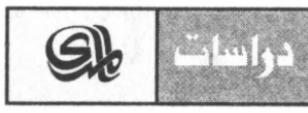


المسعودي .. هيرودوت العرب



Author : Д.В. Микульский

Title : Арабский Геродот

Translator: Dr. Adel H. Ismael المترجم : د. عادل حسن إسماعيل

Revision: Dr. Nofal Nayouf المراجعة : د. نوفل نعيف

Al- Mada P.C.

First Edition : 2006

Arabic Copyright © Al- Mada

اسم المؤلف : د. ف. ميكولسكي

عنوان الكتاب : المسودي . . هيرودوت العرب

المترجم : د. عادل حسن إسماعيل

الطبعه الأولى : سنة ٢٠٠٦

الناشر : المدى

الحقوق العربية محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص.ب. ٨٢٧٢ او ٧٣٦٦ - تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria

P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان- بيروت-الحمراء-شارع ليون- بناية منصور-الطلقي الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٧٧-٧٥٢٦١٦

E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد - أبو نواس - مجلة ١٠٢ - زقاق ١٢ - بنا ١٤١

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - جانب فندق السفير

تلفون: ٧١٧٥٩٤٣ - ٧١٧٠٣٩٥ فاكس: ٧١٧٠٥١٣

www.almadapaper.com

almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

د. ف. ميكولسكي

المسعودي .. هيروودوت العرب

ترجمه عن الروسية د.عادل حسن إسماعيل
راجعه د.نوفل نيوف



مقدمة

شهدت أواخر القرن التاسع الميلادي ولادة طفل كتب له أن يشغل مكانة مرموقه في تاريخ علوم الجغرافيا والتاريخ والأداب العربية الإسلامية.. إنه المسعودي الذي رأى عيناه النور في واحدة من عائلات الذوات البغدادية، تعود بنسبها إلى محمد عبد الله بن المسعودي أحد أحفاد صاحب الدعوة الإسلامية النبي محمد. ولقد وصف المستعرب الإنكليزي المعروف هـ. أ. ر. جيب أضخم أعمال أبي الحسن علي بن حسين المسعودي ومؤلفاته التي وصلتنا، أي "مروج الذهب ومعادن الجوهر" بالقول انه " واحد من خيرة الكتب باللغة العربية ".

أولت الثقافة العربية الإسلامية اهتماماً كبيراً لبعض الشخصيات، وبقيت حتى أيامنا هذه آلاف التراجم والسير لشخصيات دينية وسياسية من العالم العربي الإسلامي، والعديد من شعرائه وأدبائه وعلمائه أيضاً. ويرد ذكر المسعودي في ستة من المؤلفات العربية الإسلامية^(١)، ورغم ذلك لا نعرف إلا القليل عن حياته. على أن الذين تحدثوا عنه يشيرون

(١) في مجموعة "الفهرس" الشهيرة للعالم العراقي ابن الدجيم أواسط القرن العاشر . وعند النجاشي في القرن الحادى عشر . وعند ابن حزم الأندلسي الذى توفي عام ١٠٦٤ م . وعند المصريين الذهبي والسيكى فى القرن الرابع عشر . وفي المقدمة لابن خلدون الذى توفي عام ١٣٨٢ م .

إلى مكان ولادته فستناقض رواياتهم في ذلك، ثم يذكرون أسماء مؤلفاته، ولكن هذه المعلومات لا تتعدي بضعة أسطر. ولا تحفظ مؤلفات السيرة حتى النوادر المختلفة عن تصرفات وأقوال المسعودي كذلك التي شخوصها العديد من رجالات الثقافة العربية الإسلامية، بل ولا نعرف على وجه الدقة متى ولد، فالمتuarف عليه اصطلاحاً أن عام ولادته هو العام ٨٩٦ للميلاد. هذا في حين أن "مروج الذهب..." كتاب المسعودي الذي وصلنا، يتضمن نوادر وقصصاً رائعة تستذكر العديد من مشاهير عصره.

كان المسعودي أول من تَمَثَّلَ وقدَّمَ، من بين الكتاب، تاريخ الجماعة الإسلامية، والدولة العربية الإسلامية، أي الخلافة، كمادة للقص الشيق، والمختلق في الكثير من جوانبه. أما المسعودي نفسه، وبصفته إنساناً مبدعاً أصيلاً، وبالتالي متواضعاً، وشغوفاً بعمله، فقد بقي عصياً على مؤلفي السيرة الذين جاؤوا بعده.

لم تكن في زمن المسعودي مكاتب أو دواوين لمارسة العمل العلمي حسب مفهومنا الآن، غير أن العمل "الديواني" كان قد تشكل. إلا أن المسعودي لم يشف غليله أبداً، ولم يكتف، بالحصول على الحكم المحفوظة في بطون المجلدات المغبرة، علماً أن سعة اطلاعه وغزاره معارفه في هذا المجال كانت مذهلة حقاً. لقد سعى لدراسة العالم الذي عاش فيه، فكان فضوله النبيل دافعاً للقيام بأسفار كانت تمت سنوات عديدة في بعض الأحيان، فزار ووصف قسماً كبيراً من الأمصار التي كانت معروفة للعرب المسلمين، وترك توصيفات للشعوب التي قدر له أن يعيش بين ظهرانيها. وجمع معلومات صحيحة عن البلدان التي لم تُبح

له زيارتها. وغدت أخباره عن العديد من الأمصار والشعوب القاطنة فيها مرجعاً هاماً للمؤرخين والجغرافيين والإتنوغرافيين. وإذا درس بتمحیص ما رأه بأم عينه، أو سمعه من أناس ثقة، ودأب على فرز الصحيح مما ينافق الحقيقة حسب رأيه، فقد حل المسعودي مسؤلاً من مسائل علم الجغرافيا الهامة في عصره مكتسباً بذلك للأبد شهرة جغرافي عَلِمٌ ورحلات بارزة.

ذلك هو السبب الذي يكمن وراءبقاء هذا الإنسان الرائع مؤرخاً وكاتباً أصيلاً، وجغرافياً فذاً في تاريخ الثقافتين العربية الإسلامية والعالمية.

الفصل الأول

الطفولة في مدينة "ألف ليلة وليلة"

"والصقع الذي مدينة السلام منه أفضل مواضع الأرض جميما في الطيب والغذاء" .. المسعودي - "كتاب التنبية والإشراف" عند الحديث عن المسعودي، الابن الأصيل لعصره، لا مندوحة من الحديث عن بغداد، المدينة التي فيها ولد وترعرع وبدأ تبحره في العلم، ومنها انطلق في أول رحلة، وإليها عاد غير مرة.. بغداد المدينة التي اشتد حنينه إليها بعد أن غادرها إلى الأبد. وحديثنا عن عاصمة الخلافة يقوم في الكثير من الجوانب على ما أورده المسعودي في مؤلفاته من أخبار عنها.

تقول المطبوعات السياحية في عراق اليوم إن بغداد هي مدينة حكايات "ألف ليلة وليلة" الشرقية الحالدة. وهنا بالذات، كما يبيئنا هذا الكتاب الرائع، كان أمير المؤمنين هارون الرشيد، العادل الكريم، يتجلو ليلا في الشوارع والأزقة رفقة وزيره الحكيم جعفر البرمكي، حيث كان دائما، كما في المسرح الإغريقي القديم، يظهر في الوقت المناسب ليعجل بحلول النهاية السعيدة. ولكن للأسف، أثبت علم التاريخ منذ زمن بعيد أن هارون الرشيد الحقيقي لا يشبه بشيء تلك الشخصية اللطيفة التي

انطبعت في ذاكرة قراء "ألف ليلة وليلة". إن صورة هارون الرشيد الساحرة إلى درجة لا تتطابق فعلاً مع نموذجها الأصلي، غدت أو كادت تغدو، الصورة المركزية في الأدب الشعبي العربي في العصور الوسطى المتأخرة لأن هذا الاسم اقترب في الذاكرة الشعبية بعصر ازدهار الإمبراطورية وعز الخلافة التي تحمل آثارها في كتاب "ألف ليلة وليلة" الموضع في زمن متأخر عن ذاك العصر كثيراً.

مدينة المنصور.. تاريخ باهروMaisawi

كانت بغداد زمان المسعودي لا تزال عاصمة مزدهرة للإمبراطورية العربية الإسلامية، ومدينة تعتبر حديثة العهد نسبياً، علمًا بأنها عاشت غير قليل من الهزات على مدى تاريخها القصير مقارنة بغيرها من حواضر الشرق الأدنى آنذاك.

عدد المسعودي في مؤلفه الأخير "كتاب التنبئه والإشراف" المدن الكبرى التي تأسست منذ ظهور الإسلام، ورأى أنها سبع، بغداد السادسة بينها.

ثمة اعتقاد بأن "بغداد" كلمة فارسية الأصل تعني "هبة الله.." وهذا المعنى يمكن تلمسه حتى في اللغة الروسية، إذ أن اللغتين الفارسية والروسية تنتهيان إلى أسرة لغات واحدة هي الهندو-أوروبية. و"هبة الله" يقابلها في الروسية لفظة "Будан". وليس ثمة ما يبعث على الاستغراب في أن اسم العاصمة العراقية قد يكون فارسي الأصل، فالعراق كان حتى الفتح العربي الإسلامي في القرن السابع، ضمن دولة الساسانيين التي كانت إمبراطورية متراوحة الأطراف حكمتها سلاة

إيرانية بنفس الاسم. وهذا التأويل لكلمة "بغداد" يجد ما يؤكده عند المسعودي الذي يخبرنا أنه في مكان هذه المدينة التي ذاع صيتها فيما بعد، كان يوجد في غابر الزمان صنم اسمه "باغ".

لقد ارتبط بناء بغداد بانتقال الخلافة من سلالة إلى أخرى، فمن المعروف أن قيادة الجماعة الإسلامية آلت بعد وفاة النبي محمد إلى خلفائه. وكان الأربعة الأوائل منهم (أبو بكر وعمر وعثمان وعلي) خلفاء راشدين تقاة فضلاء في نظر دارسي التاريخ العربي الإسلامي. ولا يزال الكثير من المسلمين يعتقدون أن أحكام القرآن الكريم ووصايا النبي محمد قد روحيت، واتبعت بقدسيّة زمن الخلفاء الراشدين، ولذلك كانت حياة المسلمين الذين عاصروا هؤلاء الخلفاء حياة سعيدة.

أما بعد وفاة آخر الخلفاء الراشدين، علي بن أبي طالب عام ٦٦١ م، وهو ابن عم الرسول وصهره، فقد استولى الأمويون على الخلافة (وهم عشيرة عربية مشهورة وغنية سادت في مكة، موطن محمد، في الفترة التي سبقت الإسلام).

أقام الأمويون حكماً ملكياً وراثياً في حين بقي أبناء الخليفة الراشدي علي وغيرهم من آل النبي محمد يتمتعون في نظر معاصرهم بحق كبير في الخلافة، الأمر الذي حال دون استقرار سلطة الأمويين آنذاك.

وبالرغم مما أشرنا إليه أعلاه بلغت الخلافة في زمن الأمويين أكبر اتساع لها فامتدت أراضيها من حدود مملكة الفرنجية غرباً حتى حدود الصين شرقاً. وفي هذه الحقبة بالذات راحت ترسى أسس الثراء الروحي فضلاً عن الثروات المادية، فكان عصر ولادة الثقافة العربية الإسلامية

التي جمعت بين التقاليد الثقافية للشعوب الخاضعة والشعب الذي أخضعها جماعاً عضواً في كل واحد لا يتجزأ، مما جعلها واحدة من أعظم الثقافات العالمية.

أعلن أهل بيت النبي محمد وأنصارهم أن الأمويين حكام كفرة وقياصرة وثنيون، لا حق لهم بالخلافة. تولى أبناء علي قيادة الكفاح ضد الأمويين في البداية، وأيد مطالبتهم بالسلطة سكان إيران، وخاصة في منطقة خراسان التي لم تكن راضية بسيادة العرب البدو، الذين كانوا يقتطعون منهم أموالاً كبيرة (الخرج) لصالح حكام دمشق. وأرسل أنصار علي دعاتهم إلى مدن خراسان وأريافها لتجنيد الموالين بهدف الكفاح من أجل "قضية مقدسة" "وجمع الأموال لصالح أبناء علي". وفي المرحلة الأخيرة من الكفاح ضد الحكم الأموي انتقل مركز القيادة إلى مجموعة قبلية أخرى من أهل النبي هم العباسيون، أحفاد العباس عم الرسول. وقاد الشورة على الأمويين تحت راية العباسيين مولى سابق فارسي الأصل هو أبو مسلم. وبعد عدة معارك ضارية تم القضاء على قوات الأمويين، وفر الخليفة الأموي الأخير مروان بن محمد إلى مصر حيث لقي مصرعه، فآلت السلطة في الخلافة إلى سلالة العباسيين التي يعتبر العام ٧٥٠ م بداية حكمها.

وكان من أولى الخطوات التي قامت بها السلالة الجديدة التخلّي عن عاصمة الأمويين دمشق التي كانت قوية فيها التقاليد البيزنطية المسيحية الغريبة عن الإسلام. أقام الخليفة العباسي أبو العباس السفاح أول عهده بالخلافة في مدينة الكوفة جنوب العراق، ومن ثم انتقل إلى معسكر حصين قرب الكوفة، وفيما بعد إلى الأنبار. ولكن هذه الأماكن

لم تكن، لهذه الأسباب أو تلك، مناسبة كعاصمة، فالكوفة على سبيل المثال، التي أسست بالأصل كقاعدة (معسکر حربی) لتنظيم الحملات على المناطق الخاضعة لإیران الساسانية، كانت مأهولة بأحفاد البدو الذين يتقنون منذ الطفولة استخدام السلاح ويجنحون إلى التمرد والعصيان، فضلاً عن أن الوضع فيها كان على قدر كافٍ من احتمالات التفجّر. وفي نهاية المطاف قررَ رأي الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور (٧٥٤ - ٧٧٥ م) على موقع بغداد الذي كان يتّوسط بلاد الرافدين العريقة، غير بعيد عن كتيسيفون^(١) العاصمة السابقة للدولة الساسانية. وسيق قرابة مائة ألف فلاح من القرى المجاورة لبناء بغداد التي سميت مدينة السلام. وخلافاً لما كان معهوداً في أوروبا القرون الوسطى، حيث بناء القصور والمحصون فرض من فروض السخرة الإقطاعية، نال الفلاحون الذين شيدوا العاصمة الجديدة - بغداد - أجراً ولو زهيداً، لقاء عملهم الشاق.

بنيت بغداد وفق خطة دقيقة قضت بأن تكون دائرة الشكل، وتتألف من جزئين أساسين هما: مقر الخليفة الواقع في المركز والأحياء المحيطة به المعدة للتجار والصناع. وأحيطت المدينة بخندق عميق وسور حصين، إضافة إلى سور آخر حول دار الخليفة. وكل سور من السورين، الداخلي والخارجي، كان له أربعة أبواب يتصل كل اثنين منها (الداخلي والخارجي) برواق مسقوف أقيمت فيه أماكن خاصة للجنود الذين يسهرون على راحة بال أمير المؤمنين.

(١) بطيسبون ، طيسبون بغربي المدائن في أرض العراق "مروج الذهب" م ١ ، ص ٢٧١ ، دار الفكر ، بيروت ٢٠٠٠ م .

ارتأى الخليفة المنصور بناء بغداد كمدينة - مقر، ولذا ليس من المستغرب أن يشغل القصر المحيط بسور مساحة أكبر من مساحة "الضاحية" إذا جاز التعبير، فبلغ قطر الجزء المركزي من المدينة ٢ كم بينما كان قطر المدينة كلهما ٦٠ كم. ويبدو أن حاشية الخليفة كانت تشكل غالبية سكان بغداد في ذاك الزمن، أما الخدم وجند الحراسة وعدد قليل من التجار وأصحاب الحرف فقد أسكنوا فيها لتلبية حاجات القصر.

كان قصر الخليفة المكمل بقبة خضراء عليها قثال جواد، يعتبر بحق فخر مدينة المنصور المستديرة. وبمرور الزمن أصبح هذا البناء يسمى "القبة الخضراء". وفي العام ٩٤١ م، أي في زمن المسعودي، انهارت القبة الخضراء جراء صاعقة ضربتها على ما يبدو أثناء عاصفة. أما أسوار هذا الصرح الفخم فقد بقيت حتى أواسط القرن الثالث عشر الميلادي.

كان يفضي إلى القبة الخضراء باب مكسو بالمرمر ومحلى بالذهب سمي "باب الذهب". وبقيت القبة الخضراء دارا للخليفة طيلة خمسين عاما. وبعد أن استولت قوات المؤمن بن هارون الرشيد (الشهير في حكايات "ألف ليلة وليلة") الذي خلع أخيه غير الشقيق، الأمين، عن العرش، لحق أذى كبير بالقبة الخضراء جراء المعارك التي دارت بين الطرفين، فاختفت وهجرت نهائيا.

كان النزاع بين ولدي هارون الرشيد، الأمين والمؤمن، (٨١٠-٨١٣) من أكثر صفحات التاريخ العربي الإسلامي مأساوية في القرن التاسع الميلادي. ومثلما كان يحدث غالبا في القرون الوسطى، فقد شبت نار الفتنة في الخلافة، وكان وراءها التنافس بين أخوين أميرين. ودارت رحى حرب أهلية حقيقة أسفرت في النهاية عن تدمير المدينة الرئيسية

في الدولة الإسلامية، وقتل الآلاف من سكانها، وخلفت أثراً لا يمحى في نفوس معاصرتها والعديد من الأجيال اللاحقة في دولة الخلافة. وبالرغم من أن المسعودي ولد في وقت متأخر جداً عن زمن وقوع هذه الأحداث الدامية مطلع القرن التاسع، فقد اهتم بمسارها وتطوراتها، وسجل في المؤلف الرئيسي مما وصل إلينا من مؤلفاته، إفادات شهود عيان لحرب الأخوة الضارية هذه.

وحول هذا الأمر يرد في "مروج الذهب" أنه كان لأمير المؤمنين هارون الرشيد زوجة أثيرة هي السيدة زبيدة، التي غدت، شأنها شأن زوجها الجليل، أحد شخصوص حكايات "ألف ليلة وليلة". ولقد كانت تتمتع بشخصية قوية وتأثير كبير على الرشيد. ولكن سرعان ما اتضاع أن هذه السيدة عاجزة عن الإنجاب، الأمر الذي أنزل الغم على قلب الخليفة الذي كان شديد الرغبة في أن يكون له من يرثه. عندئذ أشارت عليه حاشيته ونصحه المقربون، أن يفعل كما فعل أبونا إبراهيم، وهو شيخ طاعن، في قصته الواردة في الكتاب المقدس، التي يعرفها المسلمون خير المعرفة لورودها في القرآن الكريم؛ فابراهيم نبي تقي أنزل الله عليه الوحي، ووردت أخباره في القصص التي انتشرت في بلاد العرب قبل وقت طويل من ظهور الإسلام، وسلط عليها الدين الجديد مزيداً من الضوء، فيما بعد. ويتلخص الأمر في أن من يسمون بعرب الشمال، ومنهم قريش، قبيلة النبي محمد، يعودون بنسبهم إلى إسماعيل بن إبراهيم من جاريته هاجر. ويعتقد العرب أن إسماعيل الذي أبعده إبراهيم مع أمه هاجر بناء على طلب زوجته الشرعية سارة قد ترعرع في الصحراء، وبنى الكعبة في مكة، فكانت حرماً مقدساً عند العرب الوثنين، وغدت بعد الإسلام أقدس الأماكن لديهم.

وأشار الوجهاء على هارون الرشيد أن يتخذ لنفسه جارية كما فعل إبراهيم حين اتخذ هاجر جارية. وكان رجال الحاشية يأملون بأن زوجة الخليفة بعد أن تأخذها الغيرة ستنجب وريثا، كما أنجبت سارة إسحق بعد أن أخذتها الغيرة من هاجر التي أنجبت إسماعيل. وعمل أمير المؤمنين بالصيحة، فاتخذ لنفسه جارية سرعان ما حملت بالمؤمن. وعندها أنجبت زبيدة الأمين كما يقول المسعودي.

بعد مصرع الأمين، أول خليفة عباسي يموت ميتة غير طبيعية، راحت تنسج عن حياته شتى الأساطير. وكان الناس في العصور الوسطى يملون لأن يروا إرادة العناية الإلهية في كل الأحداث، وخاصة تلك التي كانت على قدر كبير من الأهمية الاجتماعية، فرأوا أن مقتل الأمين كان مقدراً سلفاً، وأن الله أنزل من العلاتم ما يبني بذلك. وكان المسعودي ذا ميل كبير لتصديق مثل هذه الموروثات، فقد آمن، على ما يبدو، إيماناً كبيراً بها، كما آمن شكسبير بواقعية العَرافات (النبءات) التي قدمتها الأخوات، الكاهنات الثلاث، ولذا ليس ثمة ما يثير الاستغراب من أن يورد المسعودي في "مروج الذهب" حكاية نقلت عن لسان زبيدة، على حد الزعم، من أن نسوة ما ظهرن لها ثلاث مرات، مرة عندما كانت حاملاً بالأمين، وأخرى عندما وضعته، وثالثة عندما فطمته، وأنبأنها بأن الخليفة المُقبل (الأمين) سيكون مختل الطياع، وسوف يُقتل في مستهل عهده بالحكم. وهذه الرواية عن حلم النبوة تلك تعكس الإيمان "بالبارك" الذي تعود جذوره إلى العصر القديم، وهو كائنات أسطورية نسوية تحدد مصير الوليد. ونشير هنا إلى أن التقاليد الهellenistic القديمة كانت قوية جداً في العالم العربي الإسلامي آنذاك.

بدأ التنافس باكرا بين ولدي هارون الرشيد، الأمين والمأمون، وكان تنافسا حادا لنيل الحظوة عند الأب، ومن أجل النفوذ في البلاط. وتشكل حول كل من الأمراء حزب من رجال الحاشية والأقارب الذين أُججوا نار العداوة. كان وضع المأمون أسوأ من وضع أخيه، فالعديد من رجال البلاط أخذوا عليه أن أمه جارية، وليس زوجة شرعية. ولم يخف الأشخاص غير الشقيقين الكراهية التي كان كل منهما يكنها لأخيه. وبورده المسعودي رواية للعالم اللغوي الكسائي تقول إن هارون الرشيد استدعاه مرة إلى القصر وقدم له ولديه. وإذا أدهشه ثقافة كلا الصبيان وأدبهما الجم، انهال عليهما أمام الخليفة بالإطراء والمديح، غير أن الرشيد أبعد ولديه، وأنهمرت الدموع من عينيه وأسرّ للكسائي أن الشقاق بين الأمين والمأمون واقع بعد موته لا مجال له.

ورغبة منه وأملاً بتطبيع العلاقة بين ولديه اتخذ هارون الرشيد قراراً بوضع نظام ثابت لتوارث السلطة بعد وفاته. ولكي يضفي على قراره طابع الشرعية بالكامل، وبغية إلزام الأخرين بفرض القسم أحدهما تجاه الآخر، قام وهما في رفقة عام ٨٠٢ م بالحج إلى بيت الله الحرام. وأثناء وجوده في مكة سطّر الرشيد وثيقة عهد جاء فيها أن الأمين يخلفه بعد وفاته، وفي حال وفاة الأمين يرثه المأمون. وأقسم الأخوان على قدسيّة الالتزام بهذا العهد، وأن يحافظا على الإخلاص فيما بينهما. وإضفاء الأهمية الجلل على ذلك، قرر هارون الرشيد تعليق الوثيقة على سقف الكعبة بحضور مئات المسلمين المحتشدين في مكة لأداء فريضة الحج. ويخبرنا المسعودي أن الرقعة التي كتب عليها العهد سقطت عندما حاولوا تعليقها، وأن المسلمين رأوا في ذلك نذير شؤم، وأن العهد بين

الأميرين سينتهك عما قريب، وأن أحد الحاج أكده أنه رأى في المقام
رجلين يتنازعاً ب شأنٍ بغير، وغرابينٍ يتزفّ منهما الدماء.

بعد وفاة الرشيد آلت الخلافة إلى الأمين كما جاء في الاتفاق المذكور آنفاً، أما المؤمن فقد عين والياً على مقاطعة خراسان الإيرانية الغنية. ولكن الأمين سرعان ما أقدم على انتهاك العهد بينه وبين أخيه، إذ قرر تنصيب ابنه موسى صغير السن وريثاً للعرش، وأرسل كتاباً إلى المؤمن يأمره فيه بالقدوم إلى بغداد. وإذا استشعر المؤمن شرّاً فرر القتال ضد أخيه. ولم يمض طويلاً وقت حتى تمكنت قوات المؤمن بإمرة واحد من خيرة قادته، هو طاهر بن الحسين، من تدمير جيش الخليفة عن بكرة أبيه بالقرب من مدينة الري الإيرانية. وما لبث طاهر بن الحسين وقائد آخر هو هرثمة بن أعين أن حاصراً بغداد. أما الأمين الذي كان يتمتع، كما يقول المسعودي، بقوة بدنية كبيرة وحسن فائق من ناحية، وبشخصية ضعيفة وعقل محدود من ناحية أخرى، فلم يتخذ عملياً أية تدابير لإنقاذ الوضع بطريقه ما وتخذب أهالي مدينة السلام ويلات الحرب. وبينما كان البغداديون تحت وطأة حجارة المنجنيقات والحرائق والنهر والجحور كان الأمين معتكفاً في القبة الخضراء، منساقاً وراء تسليات خطيرة. ومن الأمثلة على هذا اللهو أن الخليفة حاول ذات مرة أن يقتل دون سلاح في يده أسدًا جلبه إلى القصر فرسان صيد في قفص خاص استطاع الإفلات منه. ومن ذكريات إبراهيم بن المهدي أخي هارون الرشيد وعم الأمين والمؤمن، أنه دخل مرة مخدع الأمين فوجده جالساً إلى نافذة تطل على نهر دجلة والحزن باد عليه. وتبين أن سبب حزنه سمكة صغيرة ألبسها قرطاً ثميناً وتركها تسبح في بركة لها مخترق إلى النهر عليه شباك،

فانزلقت السمكة إلى النهر. وبعد وفاة جاريته الأثيرة، أم ابنه موسى، بقي الخليفة حزينا لفترة طويلة، عازفا عن كل القضايا. ولو لا تعنيف أمه له ما كان ليتخد أي إجراء لصد العدو. وسرعان ما راح ينشد السلوان بعشرة إما، أخريات كن يمتنعه، والمربيين منه، بعذب غناهن. وعندما أصبح الوضع ميئوسا منه في نهاية المطاف فر الأمين من القصر ليسلم نفسه طوعا على أمل أن يغفو أخوه عنه. ولكن طاهر بن الحسين أمر بقطع رأسه وتعليقه على "باب الحديد" تدليلا على الانتصار، ويدفن الجثة في حديقة من حدائق بغداد. وفيما بعد نقل رأس الأمين إلى المأمون في خراسان، ومعه شارة الخلافة، أي بردة النبي محمد وخاتمه.

وهكذا انتهى حكم الأمين نهاية مخزية، ولذا لم يكن من المستغرب أن يرى الخليفة الجديد في القبة الخضراء مكان شوئم، إذ كانت تذكره، كما يبدو، بسلفه دائما، فقرر الانتقال إلى قصر آخر، وهجر المقر السابق إلى الأبد.

كان جامع المنصور، الذي شيد بعد بناء القصر مباشرة، أحد معالم بغداد الدائمة. وفي زمن هارون الرشيد اتضح أن اتجاه المسجد صوب قبلة المسلمين، الكعبة المكية الشريفة، لم يكن صحيحا، فأمر الخليفة بهدمه وإعادة بنائه من جديد. وجرى إتمام بنائه مرات عديدة بعد ذلك.

أسرار البلاط في بغداد

راحت بغداد تستوّع بالتدريج مستوطنيها الجدد من سكان العراق الأصليين، أحفاد الآشوريين والبابليين، والمتحدرين من أصول فارسية، وعرباً من شتى القبائل والديار. وفيها أنزل جند المنصور البالغ تعدادهم

ثلاثين ألفاً، وكانوا أيضاً من مختلف المناصب والأصول. كان أبناء هذه المجموعات الإثنية يتحدثون لغاتهم الأصلية أول عهدهم ببغداد، وبحلول الزمان غدت اللغة العربية لغة التواصل بينهم، فتأثرت باللغات الأخرى وكان ذلك أساساً لأن تنشأ بالتدريج اللهجة البغدادية المتميزة.

وهكذا راحت مدينة المنصور الدائرية تتسع شيئاً فشيئاً، وفي العام ٧٧٣ هـ بنى المنصور على ضفاف دجلة مدينة أخرى هي مدينة الخلد، وبعد ذلك أمر بإقامة معسک الرصافة على ضفة دجلة الشرقية لولي العهد المهدى. وسرعان ما شُيد فيه قصر ومسجد، وغدت الرصافة حياً من أحياء بغداد. أما الكرخ، الضاحية الجنوبية للعاصمة الجديدة، فقد شهدت الأعمال التجارية فيها تطويراً عاصفاً.

وشيئاً فشيئاً تحولت مدينة المنصور الدائرية من مركز لبغداد إلى مجرد حي من أحياها العادلة. وما يسرّ ذلك بالدرجة الأولى كما يبدو، أن الخليفة المأمون نقل مقر إقامته من القبة الخضراء إلى قصر التين الذي شيده في مطلع القرن التاسع صاحب المقام الكبير جعفر البرمكي الذي أعدمه هارون الرشيد في وقت لاحق. وفي العام ٨٩٢ م، أي قبل ولادة المسعودي بوقت قصير، ضرب الخليفة المعتمد (٨٧٠ - ٨٩٢) سوراً حول قصر التين وشيد هناك عدة مبان وأنشأ الحدائق والبساتين. وعلى هذا النحو نشأت دار الخلافة التي عاش فيها الخلفاء لحين استيلاء المغول على بغداد ونهبها عام ١٢٥٨ م.

أمر الخليفة المعتمد (٨٩٢ - ٩٠٢) ببناء قصر آخر يبعد مسافة ميلين من قصر التين سمي "الثريا"، ووصله بدار الخلافة بواسطة ممر تحت الأرض. وفي عهد الخليفة المكتفي شيد قصر آخر إلى جوار قصر الخلافة هو "التاج" تعلوه قبة ضخمة. وشيد هنا أيضاً جامعاً خاصاً

٩٠٨) بسكنى مقر الخليفة سمي " جامع القصر ". وكان الخليفة المقتدر (٩٣٢) آخر خليفة في حياة المسعودي يقوم بتوسيع دار الخلافة . كان مقر الخليفة مدينة صغيرة مستقلة حقاً في إطار مدينة بغداد الضخمة بمقاييس ذاك الزمن . ويمكنا أن نتخيل أبعاد مجمع القصر استناداً إلى ما ورد في أخبار المؤلفين العرب المسلمين . فقد كان يمتد على مسافة ١٢ كم عن ضفة دجلة التي كان يطل عليها جزء من سوره ، وكان عدد أفراد الحامية الداخلية في دار الخلافة يبلغ حوالي عشرين ألفاً من الحراس ، وكانت كل نوبة تضم خمسة آلاف عسكري راجل ، وأربعينات من نخبة الحرير ، وثمانينات من خدم المخادع الداخلية . وكان الحراس عبيداً من أصول تركية مقسمين إلى فصائل تتميز إحداها عن الأخرى بلون الزي الذي يرتديه أفرادها . وكان حراس الحماية الشخصية " المختارون " الذين يقومون بالخدمة أثناء خلوات الخليفة يشكلون فوجاً يتمتع بامتيازات خاصة . وبعد مقتل الخليفة المتوكل عام ٨٦٤ على أيدي الحراس الأتراك تحول هؤلاء إلى قوة سياسية جبارة قادرة على التصرف بعرش الخلافة . ويتحدث المسعودي غير مرة بألم شديد عن تدخل هؤلاء في خلع وتنصيب الخلفاء وفق ما يرتأون .

كان نظام بلاط الخليفة يشتمل على المراتب والوظائف التالية:

- أمراء بنو العباس
- بوابو قصر الخليفة
- حجاب الخليفة، وبختارون من بين أرقاء والد الخليفة بعد عتقهم.
- حشم آخرون منهم كتبة ديوان القصر، مقرئو القرآن الكريم، مؤذنون، ساعاتيون، حكواتيون، مهرجون، سعاة، حملة رايات، بواقون

وطبالون، سقاون، حرفيون من شتى المهن، سائسو خيل، صيادون، خدم معرض الوحوش، أطباء، بحارة مراكب البلاط النهرية.

كان الحرير عنصراً ذائع الصيت من عناصر قصر الحاكم الشرقي. ومن الطبيعي أن يكون الحرير كثير التعداد عند الشخص الأول بين سادة المسلمين، أي عند الخليفة. وتقضى الشريعة الإسلامية بحق المسلم الحر بأربع زوجات شرعيات فقط، بل إن القرآن الكريم اشترط على الرجل لكي يتمتع بهذا الحق أن يعدل بين زوجاته. ولكن في الحين ذاته، وفضلاً عن الزوجات الشرعيات الأربع، كان للمسلم الحق بامتلاك عدد غير محدود من الإماماء (الجواري) إذا كانت ظروفه المادية تسمح بذلك.

تجمع المراجع العربية الإسلامية، رغم التضارب فيما بينها، على أن حريم الخليفة كان يضم بضعة آلاف من النساء. وكانت تشرف على شؤون الحرير سيدة (قهرمانة) يعينها الخليفة وأخرى تعينها أمه. أما خدمة الحرير فكان يقوم عليها مئات من الرجال الخصيان. وكان العدد الأكبر من جواري الخليفة إماء إغريقيات من أسرى الحروب الدائمة مع بيزنطة، وإماء من أصول تركية. ولم يكن من النادر طبعاً أن يتبوأ إمارة المؤمنين هذا أو ذاك من نجحـال أسيرات أجنبـيات، وبالتالي لا يمكننا اعتبار الخلفاء العباسيـن زـمن المـسـعودـيـ عـربـاً من النـاحـيـة الإـثـنـيـة إلا اصطلاحـاً. أما أقربـاءـ الجوـاريـ الذينـ أـسـعـدـهـمـ الـحـظـ وـنـالـواـ مـكـانـةـ خـاصـةـ عندـ أمـيرـ المؤـمنـينـ فقدـ رـكـبـواـ مـوجـةـ الـأـقـدارـ،ـ وكـثـيرـاـ ماـ انـزـلـواـ الرـعـبـ فيـ قـلـوبـ أـفـرـادـ الـبـلـاطـ.

اتصف مقر الخليفة زـمنـ المـسـعـودـيـ بأـبـهـةـ باـذـخـةـ تـشـيرـ العـجـبـ.ـ وـتـشـيرـ مـصـادـرـ عـدـيدـةـ عـلـىـ سـبـيلـ المـثالـ إـلـىـ أـنـ دـارـ الـخـلـافـةـ كـانـ تـحـتـويـ عـلـىـ

برك من الربيق والقصدير وأشجار من معادن ثمينة صنعت باتقان تحشم عليها طيور آلية ترقق. وفي إحدى قاعات القصر كانت توجد بركة مستديرة تنتصب وسط مائتها الرقراق شجرة لها ثمانية عشر غصنا سبكت من الذهب والفضة، أما أوراقها الاصطناعية ذات الألوان المختلفة فكانت تهتز محاكيّة هبات النسيم، بينما الطيور الذهبية والفضية تطرب القاعة بشدوها العذب. وهذا ما يُعد واحدة من عجائب علم الميكانيك الإسلامي في القرن العاشر.

كانت بر克 القصر مزينة بأزهار اللوتس، أما حدائقه فكانت تحضن الورود والترجس وشقائق النعمان والخشخاش الأبيض والبنفسج والياسمين والرمان والنعناع والقرنفل والزنبق والريحان وغيرها من الأزاهير التي تملأ الجو بأرجوها العجيب. ولم يضن الخلفاء بالمال لشراء مختلف النباتات النادرة، فقد أمر الخليفة القاهر (٩٣٤-٩٣٢) على سبيل المثال، بإنشاء حديقة نارنج جلبت أشجارها إلى بغداد من الهند عبر عُمان والبصرة.

وما يدعو للأسف أن هذه الروعة كلها لم يبق منها سوى الذكريات، فقد دُمر قصر الخليفة بالكامل عام ١٢٥٨م بعد تعرضه للاجتياح والنهب على أيدي المغول. وقبل ذلك وفي زمن المسعودي، لحق بدار الخلافة أذى كبير، ففي شباط/فبراير عام ٩٢٩م تمرد الحراس الأتراك على الخليفة المقتدر تأييداً لأخيه القاهر. ومع أن المقتدر تمكّن من قمع هذا التمرد إلا أن القصر تعرض لأضرار بالغة، ونهب الغوغاء الذين اقتحموه قسماً من كنوزه. وتكرر الأمر عام ٩٣٤م أثناَء خلع القاهر الذي كان قد تبوأ مكان أخيه المتوفى قبل عامين من ذلك. وتعرضت دار الخلافة

لعمليات سلب ونهب منتظمة أوقات تعاقب الخلفاء الذين غالباً ما كانوا يخلعون بالقوة، وذلك منذ النصف الثاني من القرن العاشر عندما تلاشت سلطة الخلفاء العباسيين بالكامل عملياً.

وبالرغم من كل الهزات والاضطرابات لم تتزعزع أصول المراسم والأداب في دار الخلقة، فلقد حاول الخلفاء العباسيون الضعفاء سياسياً أن يعوضوا عجزهم الفعلي ولو بأبهة المراسم والتشريفات الاحتفالية. كان أمير المؤمنين يتربع أثناء الاستقبالات الرسمية على وسادة خاصة يكسوها حرير أسود اللون، ويرتدي جبة سوداء من الحرير أو الصوف، ويعتمر قبعة (رصافية) سوداء أيضاً ويتقلد سيفاً متوارثًا عن الرسول محمد، ويحمل على جانبه الأيسر سيفاً آخر في غمد أحمر، ويضع أمامه نسخة من القرآن الكريم تعود كما يقول الرواة، لل الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان (٦٤٤-٦٥٦) م، وكان يمسك بيده عصا النبي محمد، فيما يكون الحرس وقوفاً خلفه، وستارة من الناحية الأمامية ترفع عند دخول الأعيان إلى قاعة الاستقبالات.

كان اللون الأسود رمز بني العباس الذين اتخذوه إشارة للحداد على رأس عشيرتهم الإمام إبراهيم الذي قتله آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد. كان المسلمون يولون بالغ الأهمية لوجود عصا النبي وخاتمه وبردته بحوزة الخليفة. ولم يكن مجرد مصادفة قيامُ مروان بن محمد، بعد أن حاصرته قوات العباسيين بالقرب من بوصیر في مصر العليا ورأى نهايته المحتملة، بطمر شارات هيبة الخلقة هذه في الرمل للحيلولة دون وقوعها في أيدي السلالة الجديدة. ولم يتم العثور عليها إلا بمساعدة أحد خدم مروان المقتول.

عند دخول أي من رجال البلاط قاعة الخليفة كان يتوجب عليه مبادرته بالتحية المعهودة "السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته". كان من المأثور مخاطبة الخليفة بصيغة المفرد إذ أنه الخطاب "الأوضح والأكثر إجلالاً ورجاءً". ودرجت عادة تقبيل الأرض أمام الخليفة منذ ثلاثينيات القرن العاشر، غير أن هذا النوع من الخنوع كان في الأصل غريباً عن الروح العربية البدوية المحبة للحرية، ولم يكن ظهوره بينهم خارج تأثير طقوس البلاط الإيراني. وكإشارة على إبداء العطف على شخص ما كان الخليفة يمد له يده لتقبيلها. وكان على رجل البلاط أن يمثل في هندام حسن وتفوح منه رائحة العطور الفاخرة، وأن يرتدي فوق ملابسه الشمينة جبة من القطن المضرب لكي لا تسبب رائحة التعرق الإزعاج للخليفة. وقبل المشول أمام أمير المؤمنين كان لزاماً على المرء أن ينفظ أسنانه. وكان الأعيان يدخلون على أمير المؤمنين بشيبة رصينة، ويتحدون بصوت خفيض، ولا يتوجهون بالكلام إلى أي كان إلا بإذن منه. والعارفون برماس البلاط يعتبرون أن أول مميزات رجل البلاط الإصلاح للخليفة دون غيره والنظر إليه أياً كان الأمر.

ينصح المسعودي قراءه بالشيء ذاته، وللتأكيد على أهمية ذلك يورد في "مروج الذهب" المثال التالي على "السلوك الحسن" في مخاطبة الخليفة. فقد كان أحد رجال البلاط المعروفين، يزيد بن شجرة، يتمشى ذات يوم مع الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان (٦٦١ - ٦٨٠)، وكان معاوية يقص عليه كيف أفلح والده أبو سفيان في وقف قتال حامي الوطيس بين العرب قبل الإسلام. وكان ابن شجرة مصغياً بكل ما يمكن من الانتباه. وفجأة صك جبينه حجر عاشر فأدماه،

فجعلت الدماء تسيل على وجهه ولحيته وثوبه وغير ذلك، ولم يتغير عما كان عليه من استماع، بل واصل الإصغاء لقصة معاوية حتى نهايتها. وإن رأى معاوية الدم على وجه مرافقه سأله ما الأمر، ولماذا لا يشكو من الألم. فأجاب ابن شجرة إن حديث أمير المؤمنين ألهاه حتى غمر فكره وغطى على قلبه ولم يشعر أن سوءاً قد وقع له. وعندئذ صرف الخليفة ابن شجره بعد أن أجزل له العطا. لقد كان المسعودي يرى أن الإنصات للملوك بانتباه كبير أمر واجب حتى لو كنت تعرف ما يتحدثون عنه، لأن سلوكاً كهذا دليل على حسن التربية. ويرى أن صفتين تملكان قلب الحاكم هما الوداعة عندما يغضب، والإصغاء عندما يتكلم، فإذا أراد المرء أن ينال عطف الخليفة توجب عليه الاستماع بكل جوارحه.

كان الحاجب، وهو المسؤول عن إدخال الزوار على أمير المؤمنين يلعب دوراً هاماً في مراسم البلاط عند الخلفاء العباسيين. وكان لا بد للحاجب أن يكون في سن النضوج (ما بين الثلاثين والخمسين) وأن يكون بشوشًا في معاملته، خبيراً في أمور وظيفته. وأثناء المراسم كان الحاجب يرتدي قفطاناً أسود اللون ويعتمر عمامة سوداء، ويقلد سيفاً على جنبه.

وعندما يغادر الخليفة قصره إلى المدينة محاطاً بحاشيته كانت تنتقى لهذا الغرض خيرة الجياد الأصيلة. وفي مقدمة الموكب يسير نافخ البوّاق، ويرفع حامل الراية لواءً أسود اللون كتب عليه بأحرف بيضاء "محمد رسول الله". وكان المرافقون يمتطون خيولهم ويسيرون على نحو يمكّنهم من صد الريح عن الخليفة وحمايته من قيظ أشعة الشمس. وكان المترجون من العامة يتجمعون من كل أنحاء بغداد لإلقاء نظرة على سليل عم النبي محمد.

لعبت الولائم الليلية للخليفة وضيوفه، أو لنقل ندمائه، دورا هاما في حياة سكان دار الخلافة، إذ كانت تشكل جانباً جوهرياً، لعله أقل رسمية، من جانب تشريفات القصر. ولا ريب في أن الخليفة كان يسرى عن نفسه بهذه الطريقة، في حين كان ندماً السهرات عند أمير المؤمنين يؤدون خدمة (وظيفة) بكل معنى الكلمة، ويتلقون عنها مرتبًا ثابتًا. وكان ندماً الخليفة طائفة من العلماء والأدباء الذين تميزوا بحسن السلوك والتآدب والظرف وحدة الذكاء وحفظ الكثير من شعر الشعراء القدامى والمحدثين ونواترهم. وكانوا يتقنون نظم الشعر، ويتصفون بالعديد من المناقب الأخرى. ولم يكن من النادر أن تقتصر مصادر عيش الأديب على الخدمة نديماً عند الخليفة أو عند أي شخص ذي نفوذ. وكثيراً ما عمل رجال بارزون في ميدان الثقافة العربية الإسلامية ندماً للخليفة. وكان من بين هؤلاء صديق المسعودي ومعلمته أبو بكر محمد بن يحيى الصولي (توفي نحو ٩٤٦ م) الذي تتلمذ على اثنين من كبار علماء اللغة هما ثعلب والمبرد. وقد كان الصولي من أشهر لاعبي الشطرنج في زمانه فوجد نفسه في بلاط الخليفة المكتفي (٩٠٢ - ٩٠٨) ذي الشغف العظيم بالشطرنج. ويخبرنا المسعودي أن مباراة جرت ذات يوم بين الصولي والماوردي الذي كان أيضاً لاعب شطرنج بارزاً، وأن الخليفة وقف في البداية إلى جانب الماوردي، إذ كان على معرفة جيدة به، وإعجاب كبير بأسلوب لعبه. فلما اتصل اللعب بينهما وجمع له الصولي غايته وقصد قصده، غلبه غالباً لا يكاد يرد عليه شيئاً، وتبين حسن لعبه للمكتفي، فعدل عن هواه ونصره للماوردي وقال له: صار ما ورتك بولا.^(١)

(١) المرجع السابق ،الجزء ٤ ، ص ٣٢٤ - ٣٢٥

وضع الصولي فيما بعد مؤلفا عن الخلفاء العباسين أولى فيه اهتماما خاصا للحكام الذين شاعت له الظروف معاشرتهم. ويسهب الصولي في هذا المؤلف بالحديث عن حياة الخلفاء الشخصية ومآدبهم الليلية بحضور النداماء. وفي الحقيقة يعد كتاب "تاريخ العباسين" للصولي واحدا من بوادر المؤلفات العربية الإسلامية في نوع المذكرات.

وتجدر الإشارة إلى أن الشطرنج انتشر انتشارا واسعا في دولة الخلافة زمن المسعودي، وبالدرجة الأولى طبعا وسط أبناء الذوات. ويبدو أن العرب قد ورثوا هذه اللعبة عن الإيرانيين الذين أخذوها مباشرة من موطنها الأصلي الهند. وفي العهود العربية الإسلامية ظل الناس يذكرون أن هذه اللعبة موطنها الهند. وبخبرنا المسعودي، على سبيل المثال، أن مخترع الشطرنج هو الملك الهندي الأسطوري الشهير بلهيت الذي ابتدع الرقعة وبيادقها بالتوافق مع الأجرام السماوية. وكان شطرنج بلهيت ذا مسحة من السحر، إذ كان بإمكان الملك الاعتماد عليه لكشف نوايا أعدائه. ويصف المسعودي بالتفصيل أيضا رقعة الشطرنج في زمانه ويورد معلومات شيقة عن المباريات في هذه اللعبة تبين منها أن لاعبي الشطرنج كانوا يُؤججون نار المنافسة بشتى النواذر والنكبات والأشعار الهزلية التي كانت برأي المسعودي تعين اللاعبين في إثارة الفوز.

ولنعد الآن إلى خلفاء بغداد وندمائهم. لقد ترك لنا الصولي وصفا لمجالس الراضي (٩٤٠ - ٩٣٤) وأحاديثه مع نديمائه، إذ يبدأ الجميع بإلقاء أشعار المديح على شرف أمير المؤمنين، وبعد ذلك يأخذ الراضي بالتذمر من أعباء الحكم مؤكدا أنه لم يصبح خليفة بإرادته. ثم يحاول

الندماء الترفية عنه بشتى السبل. ولقد قال الصولي نفسه للراضي ذات يوم أن العبء الذي تحمله النبي محمد كان أشد بكثير مما ألقى على كاهل الخليفة.

بالرغم من أن الإسلام حرم الخمرة فقد كانت هذه تتدفق أنهاراً في مخادع الخلفاء العباسين وحجراتهم. ولم يكن من النادر أن تقام مباريات لا في الشطرنج ولا في الرياضة، وإنما في احتساء الخمرة. وكان يفوز فيها من يرى الخليفة كأسه مفرغة قبل غيره. ولكن أكثر ما كان يتع الخليفة وكافة المشاركين في الوليمة الليلية هو تلك القصص والنكبات التي كان الندماء يروونها لتسلية أمير المؤمنين. ولقد وصل إلينا في "مروج الذهب" غير قليل من هذه القصص التي لم تتصف بالخشمة دائماً، ومنها على سبيل المثال "أنه كان بمكة سفيه يجمع بين الرجال والنساء على أفحش الريب. وكان من أشرف قريش ولم يذكر اسمه، فشكى أهل مكة ذلك إلى الوالي فغرقه إلى عرفات فاتخذها منزلة. ودخل إلى مكة مستترا فلقي حرفاً من الرجال والنساء، فقال: وما يمنعكم مني ؟ فقالوا: وأين يك وأنت بعرفات ؟ فقال: حمار بدرهمين وصرتم إلى الأمان والتزهه والخلوة والله، قالوا: نشهد انك لصادق. فكانوا يأتونه، فكثر ذلك حتى أفسد على أهل مكة أحداشهم وحواشيهم، فعادوا بالشكية إلى أميرهم، فأرسل إليه فأتى به فقال: أي عدو الله.. طردتك من حرم الله فصرت إلى المشعر الأعظم تفسد فيه وتجمع بين الخبائث ؟ فقال: أصلح الله الأمير ! إنهم يكذبون علي ويحسدونني ! فقالوا للوالى: بيننا وبينه واحدة: تجمع حمر المكارين وترسلها إلى عرفات فان لم تقصد إلى بيته لما تعودت من إتيان السفهاء والفجار إياه

فالقول ما قال، فقال الوالي: إن في هذا لدليلًا، وأمر بجمع الحمير فجمعت ثم أرسلت فقصدت منزله، وأتاه أمناؤه فقال: ما بعد هذا شيءٍ. جردوه ! فلما نظر إلى السياط قال: ولابد من ضريبي ؟ قال: لابد يا عدو الله. قال: اضرب فوالله ما في هذا شيءٌ أشد من أن يسخر بنا أهل العراق ويقولون: أهل مكة يجيزون شهادة الحمير مع تجريعهم لنا بقبول شهادة الواحد مع يمين الطالب. قال: فضحك الوالي وأمر بتخلية سبيله^(١).

لم تكن الخدمة عند الخليفة تنتهي خيراً بالنسبة لبعض الندماء، وحتى لم ين كأن منهم من أبناء الذوات وأصحاب النفوذ. ويخبرنا المسعودي أن الولائم عند الخليفة هارون الرشيد أودت بحياة أحد أفراد سلالة الوزراء البرامكة. وبعد ذلك أمر الخليفة بإزالة النقمة على هذه العشيرة فأبيدت عن بكرة أبيها تقريباً. والواقع أن الرشيد كان متعلقاً بابن وزيره، أي جعفر بن يحيى البرمكي الذي كان ك الخليفة واسع الاطلاع عارفاً بالفلسفة. وكان الخليفة يحب الاجتماع ليلاً بجعفر والتباحث معه بشأن مختلف القضايا الفلسفية. وسرعان ما علمت العباسة أخت الرشيد بهذه اللقاءات فعبرت عن رغبتها المشاركة فيها، فأراد هارون الرشيد أن يضفي طابع الشرعية على حضور أخته تلك اللقاءات الليلية، فقرر تزويجها بجعفر شريطة أن يبقى الزواج شكلياً. ولكن العباسة التي راحت تحضر الجلسات الفلسفية كزوجة للبرمكي، سرعان ما أحبت هذا الرجل الذكي المثقف الجميل وقفت أن يكون زواجه منها فعلياً لا شكلياً. ولكن جعفر لم يتجرأ على عصيان الخليفة خوفاً من

(١) المرجع السابق ، الجزء ٤ ، ص ١٤٤ - ١٤٥

غضبه. عندئذ سكتت العباسة إليه بعد أن نالت تأييد أمه وذلك تحت ستار أنها جارية، فأنجبت منه طفلاً. وعندما علم جعفر بالحقيقة فيما بعد حاول إخفاء علاقته بال Abbasة عن أخيها، ولكن الأمر ما لبث أن انكشف، إذ إن زوجة الخليفة السيدة زبيدة التي تخاطبت مع العباسة، أفضت للرشيد بسر العاشقة فاستشاط غضباً، وأمر بمعاقبة جعفر وال Abbasة التي ألحقت العار بعائلة الخليفة. وبعد ذلك تعرض للاضطهاد البرامكة كافة كما يروى. إن قصة سقوط البرامكة التي أوردها المسعودي ما هي في واقع الأمر إلا قصة جميلة، إذ أن الخليفة قضى على خدمه المخلصين هؤلاء لأنه خشي نفوذهم المتزايد في شؤون الدولة من ناحية، وأراد من ناحية ثانية أن يستولي على ثرواتهم الضخمة التي سرعان ما صودرت فعلاً.

وعلى العموم شاع بين سكان بغداد العديد من الأساطير والحكايات عن قصر الخلافة والخلفاء، بعضها دونه المسعودي وبفضله وصل إلينا. وعلى سبيل المثال يورد المؤلف قصة المغني الشهير في مطلع القرن التاسع إسحق الموصلي، الذي يقول إنه ذات مرة أثناء وليمة ليلية قدر له أن يغنى في مخادع هارون الرشيد. وعندما أخذ الضيوف والعازفون بالانصراف طلب الرشيد من إسحق أن يتريث فيما أخذته هو الغفوة. وفجأة ظهر في مخدع الخليفة فتى جميل لا يعرفه إسحق الموصلي الذي دهش لدخوله في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل دون إذن من أمير المؤمنين فظن أنه ابن الرشيد من إحدى الجواري الكثیرات. تناول القadam المجهول عود أحد العازفين وراح يعزف ويغنى أروع العزف وأعذب الغناء، وما لبث أن وضع العود مكانه وقال لإسحق "إذا غنيت

فغنَ هكذا" وخرج من القاعة. عندئذ تقدم إسحق الذي اعتبرته الدهشة لما حدث، من الحاجب وسأله من يكون هذا الفتى الذي خرج ليتوه من القاعة، فأجابه الحاجب: إن أحدا لم يدخل ولم يخرج. وإذا اشتد به الذهول عاد إسحق وقص كل ما جرى على هارون الرشيد الذي استيقظ من نومه. وكان رأي الخليفة أن الشيطان هو الذي ظهر للموسيقي. وطلب منه أن يغني تلك الأغنية التي سمعها من ذاك الغريب فعزف الموصلي وغنِي، فوُقعت الكلمات واللحن موقع الإعجاب في نفس الخليفة، وصرف الموسيقي إلى منزله بعد أن أجزل له العطاً.

يبين علم الفلسفة الحديث أننا في هذه القصة أمام موضوع شائع عند مختلف شعوب العالم يتعلق برسالة المغني، وقد درسه بدقة عالم اللغة الروسي الأكاديمي المعروف ف. م. جيرمونسكي الذي أثبت أن موضوع تلقي الإنسان موهبة الموسيقى أو الشعر من كائن ما خارق إيماناً نشأ بتأثير الإيمان بأن منبع الإلهام ليس الإنسان ذاته، بل روحٌ ما يرعى هذا الإنسان. ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن مثل هذه القصص كانت (وفي زمن المسعودي أيضاً) تقابل بقدر كبير من السخرية. ومن الأمثلة على ذلك أن أحد معاصرى المسعودي، صاحب كتاب "الأغاني" أبا الفرج الأصفهانى أورد في كتابه هذا قصة مماثلة عن إبراهيم الموصلى والد إسحق، مضيفاً أنه هو بالذات ربما ابتدع القصة بقصد رفع مكانته في عيون الذين يقدرون الشعر والموسيقى.

كان الخليفة المعتصم الذى ولد في زمن المسعودي شخصية مقيمة دار حولها شتى القصص والروايات. واستطاع المسعودي أن يرسم في الذاكرة صورة لهذا المستبد الذاهية الذكي الذي اتصفت شخصيته بقسوة

مَرَضِيَّةً. وفي نظر كتاب النصف الثاني من القرن العاشر، عندما بات الخليفة مجرد شخصية اسمية، لم يكن المعتضد طاغية سادياً فقط، بل وخليفة تُكن لبعض الوقت من إيقاف تدهور أوضاع الدولة. ولكن المسعودي لم يشعر بأهمية الفارق، فالمعتضد بالنسبة له طاغية دموي قبل كل شيء، أما ما قام به لتوسيع سلطة الدولة المركزية وتعزيز العلاقات مع حاكم مصر خمارويه، والقضاء على قوات جماعة الخوارج المتطرفة في العراق، وإخضاع قبيلة بنى شيبان الذين "قد كانوا عتوا وأكثروا الفساد" ، فلم يكن من وجهة نظر المسعودي، على ذاك القدر من الأهمية إذا ما قورن بقسوة وجور المعتضد الذي بنى في القصر غرفاً خاصة لتعذيب خصومه.

لقد عانى المعتضد، كأي مستبد آخر، من عذاب الضمير، فكان دائم الخوف من عقاب الآخرة الشديد جراء ما اقترفه. ولم يكن من المستغرب، كما يقول المسعودي، أن يتراهى له شبح يظهر أمامه تارة كراهيب أبيض اللحية أسود الرداء، وتارة أخرى كشاب أسود اللحية، وثالثة في صورة رجل مسن بلباس تاجر. وذات مرة ظهر له شبح يحمل سيفاً قتل به أحد الخدم، فأمر بإغفال أبواب القصر كلها، ولكن دون جدوى، إذ ظلت الأشباح تلاحقه أينما حل. وأن المعتضد لم يجعل مما تراهى له سراً فقد سرت في بغداد الإشاعات عن أشباح الخليفة، فقال البعض إن الشيطان يظهر للخليفة، وقال آخرون إنه ولد من الجن يأتي إلى الخليفة لكترة ما سفك من دماء. وأكد غيرهم أن خادماً من القصر أغرم بجارية من جواري الخليفة فراح يتربّد عليها مستخدماً مادة سحرية لكي لا يراه حراس الحرير، والسؤال في هذه الحالة: لماذا كان العاشق

الساحر يظهر للخليفة أحياناً ؟ أيا كان الأمر فقد وصلت هذه النهاية والتقولات إلى مسامع الخليفة فبلغ الغضب منه مبلغاً، وأمر بإغراق قسم من خدمه وجواريه ومعاقبة البقية بطريقة أخرى. ومع ذلك لم يتمكن أحد من معرفة طبيعة الأسباب التي كانت تزوره.

ويخبرنا المسعودي أيضاً أن المعتضد أصاب في حادثة أخرى حظاً أكبر من النجاح في الصراع ضد خصم غامض ثان. أمر الخليفة ذات مرة بصرف مبلغ كبير من المال من خزانة الدولة (بيت المال) لصاحب عطاء الجيش وذلك ليصرفها في الجندي، وطلب صاحب الجيش من الخدم نقل أكياس المال إلى منزله ليصرفها في اليوم التالي. غير أن شخصاً مجهولاً نصب في الليل ثغرة تحت منزله وأخذ المال. وعندهما استيقظ الحازن صباحاً وعلم أن المال قد فقد استدعى صاحب الحرس، وكان يومئذ مؤنس العجمي، وطالبه بالعثور على اللص بأية وسيلة كانت مهدداً إياه، إن لم يفعل، بغضب أمير المؤمنين. وإذا نال منه الخوف من الله توجه صاحب الحرس في طلب العون إلى التوابين، أي إلى لصوص سابقين قرروا في خريف العمر التخلّي عن هذه المهنة الخطيرة والانتقال إلى خدمة السلطات. فانتطلق هؤلاء الشيوخ المحترمون، الذين كانوا في الماضي لصوصاً خطيرين، في الدروب والأسوق والغرف والماخير ودكاكين الرواسين ودور القمار إلى أن عثروا على رجل ضعيف نحيف رث الكسوة هين الحالة فأحضروه. لم يصدق رئيس الحراس أذنيه عندما سمع من التوابين أن هذا الرجل الذي يرشى حاله هو بالذات من استطاع سرقة المال الذي كاد ضياعه أن يسبب مشكلة في صفوف الجندي. ولما أحضرعوا اللص المفترض للاستجواب بغية الكشف عن أسماء شركائه ومعرفة

المكان الذي خبأ فيه المال أنكر كل شيء. عندئذ راح صاحب الحرس يداريه واعداً إياه بمكافأة كبيرة إن هو ساعده في العثور على المال المفقود. ولكن دون جدوى. وإذا ضاق ذرعاً به أمر بجلده دونما شفقة. ولكن اللص أصر على نكران مسؤوليته. وفي نهاية المطاف أبلغوا المعتصد بالأمر، فأرسل في طلب صاحب الحرس ووبيخه على تهاونه في الاستجواب. ومن ثم طلب إحضار اللص إليه، ولكن هذا لم يعترف بأي شيء، فما كان من أمير المؤمنين إلا أن أمر بصرف مبلغ آخر من المال بدلاً من ذاك الذي اختفى، وتوزيعه على الجندي. وأعلن جهاراً بحضور الأعيان وأمام اللص ذاته أنه بريء، وقد تعرض للتعذيب دون مبرر، ولا بد الآن من أن يحظى بالرعاية والتدليل. واتخذت مائدة طعام فاكيل وشرب حتى تعب فأغفا على حشية من ريش، فأمر المعتصد بإحضاره إليه، فأحضروه واللوسن في عينيه أمام الخليفة الذي سأله أن يتحدث كيف فعل ذلك، وأين ذهب بالمال، ومن سعادته. فأجاب اللص أنه قام بذلك كله بمفرده، وأنه أخفى المال في حمام صغير مقابل دار صاحب عطاء الجيش، تحت شوك يوقد به، فأمر المعتصد خدمه بوضع اللص بالفراش وإحضار المال من الحمام. وبالفعل وجد الخدم المبلغ المسروق كاملاً دون نقصان، أما اللص فقد أمر الخليفة بقتله نفخاً.

أهواء البazar

كان قصر الخليفة محط اهتمام سكان المدينة دائماً، إلا أنه لم يكن مركز بغداد الحقيقي. إن قلب حياة المدينة الفعلي كان سوق بغداد، حيث يلتقي القادمون من مختلف أرجاء دولة الخلافة ومن خارجها أيضاً، فتعقد الصفقات التجارية. وهنا كان التاجر البسيط، إذا صدقنا

حكايات "ألف ليلة وليلة"، قادرا على الاتفاق بشأن موعد غرام مع ابنة وجيه مشهور. ويبدو أن البازارات كانت تشكل بمجموعها قرابة نصف مساحة بغداد. لقد تم تخفيط أولى الأسواق بناء على أوامر المنصور مؤسس بغداد، فأقيمت على شوارع مسقوفة تتد من بوابات المدينة الخارجية إلى مقر إقامة الخليفة. وخشية أعمال الشعب أمر المنصور عام ٧٧٣م بنقل كل الأسواق من المدينة المستديرة إلى ضاحية الكرخ، حيث كانت توجد أيام المسعودي أسواق مستقلة لأبناء شتى المهن التجارية - الحرفية مثل سوق الحبوب، وسوق الوراقين، وسوق الخياطين، وسوق الصرافين. وبقدر ما كانت بغداد تتتطور وتتنامي فيها العلاقات التجارية كعاصمة جديدة كانت تظهر إلى الوجود في حي الحريبة أسواق تباع وتشترى فيها مختلف السلع الفريدة والغريبة من قبل تجار من خراسان ومرو ويلخ وبخارى وخوارزم وغيرها من مدن ومقاطعات دولة الخلافة القريبة منها والبعيدة. وكان التجار القادمون من بعيد يتكتلون في جاليات (طوائف) فيختارون شيوخاً لتمثيل مصالحهم أمام سلطات الدولة. أما الأسواق الخاصة بالتجار الأجانب، ولا سيما الصينيون والهنود، فكانت تقع بالقرب من باب الشام في القسم الغربي من المدينة.

لعب البازار ذاك الدور الهام في بغداد وغيرها من مدن الشرق في القرون الوسطى لأن التجارة هنا، خلافاً لما كان في أوروبا الغربية، لم تكن تتوقف أبداً، ناهيك عن أن العلاقات السلعية - النقدية كانت متطرورة ما فيه الكفاية. وانتشر في زمن المسعودي مختلف أشكال التسليف، وكانت تجري بعض العمليات مصرفية النمط. وفيما بعد انتقل إلى الغرب العديد منها ومن أساليب التوثيق التجاري.

كان الدكان ولا يزال "الوحدة الأساسية" ، إذا جاز التعبير ، في البazar الشرقي. وهو عبارة عن غرفة كافية المساحة تطل على الشارع. والحمد بين الدكان والشارع غير ثابت، إذ أن قسمًا من السلع يوضع على الأرض مباشرة. وكان أصحاب الدكاكين يكتنون فيها من الصباح حتى المساء دون مغادرتها إلى البيت وقت الغداء ، فالطعام يحضر إلى التجار من المطاعم المجاورة.

إن أكثر المهن وجاهة وريحا كانت تلك المرتبطة بإنتاج وبيع مواد الراهاية ، كالمصوغات والأقمشة الثمينة والتواابل. وكان المثل الشائع في ذلك الزمن يقول إن أفضل تجارة هي تجارة الباتيستا ، وأفضل حرفه هي صناعة المرجان. وكانت تجارة الحبوب أدنى منزلة ويليها هبوطا في سلم مهن البazar الشرقي صناعة الفخار ودباغة الجلود وأخيراً مهنة القصابة. من المعروف أن القوانين الإسلامية تحرم الربا ، ولكن لو أن هذا البند من بنود الشريعة طبق في الحياة العملية فعلا لاستحال القيام بالعديد من العمليات التجارية - المالية. فكيف كانت التجارة تؤدي وظيفتها فعليا في العالم العربي الإسلامي؟ كان اليهود ، من ناحية ، يقومون بدور المربابين ، فديانتهم لا تحرم ذلك ، وكان التجار المسلمين ، من ناحية ثانية ، يجدون الوسائل والسبل للالتفاف على هذه القاعدة.

إن أكثر الصفات تقديرًا في البazar الشرقي هي القدرة على ممارسة التجارة بأسلوب جميل ومحترم ، وهذا ما يعرفه كل من لديه تصور عن هذا البazar. وقد سارت الأمور على هذا النحو زمن المسعودي. كان البائع والشاري يتساومان طويلا ، وربما ينصرف الشاري عدة مرات عن البضاعة التي يساوم عليها ، ولكن إذا ما نالت إعجابه وكانت ضرورية له حقا ، كان يصل مع الطرف الآخر إلى سعر مقبول لكليهما ، فيضرب

أحدهما يده بيد الآخر ويعلنان بصوت عال إن الصفة قد تمت، ويصبح البائع إنه باع السلعة، ويصبح الشاري إنه اشتراها. وبدون ذلك ما كانت عملية البيع والشراء لتعتبر نافذة.

يكمِن الفرق الجذري بين الشرق الأدنى والغرب في القرون الوسطى في أن المدينة في الشرق لم تكن، ولم تصبح، حاملا لإرهاصات علاقات جديدة برجوازية أدى تطورها في أوروبا إلى حلول الرأسمالية محل العلاقات الإقطاعية، ولم يكن سكان المدن في العالم العربي الإسلامي منظمين كشريحة طبقية، ولم تكن لهم منظمات حرفية كتلك التي شهدتها مدن أوروبا الغربية، وبالتالي لم يعرف الشرق مؤسسات بلدية من شأنها أن تساعد سكان المدن في الدفاع عن حقوقهم. وكان "رأس" هذه المدينة أو تلك واحداً من سكانها الأكثر ثروة واحتراماً ونفوذاً، وكان يسمى "الرئيس" أو "الشيخ"، ويمثل المدينة لدى موظفي إدارة الدولة. ونظراً للسمعة التي يتمتع بها عند سكان المدينة كان يضمن تسديد الضرائب لخزينة الدولة دونما تأخير أو انقطاع. أما الرقابة على التجارة فكان يقوم بها موظفو الحكومة الخاضعون لحاكم المنطقة التي تقع فيها هذه المدينة أو تلك. والحاكم يسمى بالعربيَّة الوالي أو الأمير، وله يخضع جبة الضرائب وقائد الشرطة. وكان منصب القاضي الإسلامي (الشرعى) منصباً هاماً في إدارة المدينة، ومن مهامه فض النزاعات بين سكان المدينة فيما يتعلق بالأملاك وتقسيم الميراث، وكذلك مهام الكاتب بالعدل والأمين على الودائع. وكانت السلطات تختاره كما تختار الرئيس، من بين سكان المدينة الأكثر هيبة وعلماً بأصول الشريعة. وكان يساعده شهود على غرار المحلفين. وبالنسبة لبغداد فإن الجزء الشرقي

منها كان تحت إدارة الخليفة ذاته، بينما كان الجزء الغربي تحت إدارة موظف خاص. وكان هذا المنصب يعد منصباً مشرفاً وصعباً للغاية في الوقت نفسه.

أما الرقابة المباشرة على سير التجارة في البazar فكان يقوم بها المحتسب الذي يهتم بتطابق المكاييل والموازين مع المواصفات المقررة، وبألا يغش التجار والمشترون أو يهين بعضهم بعضاً. وفي بداية الأمر كان التجار وأصحاب الحرف هم الذين يختارون المحتسب، بيد أن هذا المنصب تحول منذ مطلع القرن العاشر إلى وظيفة رسمية. أما العناية بالأمن والنظام في الأسواق وغيرها من الأماكن العامة فكانت تقع على عاتق شرطة يحملون على خصورهم مديات طويلة. وكانت دوريات خاصة من الشرطة تحجوب بغداد ليلاً حتى موعد صلاة الفجر.

الترفيه عند عامة بغداد

لم يكن البazar مركز التجارة وحسب، بل ومركز حياة الشعب والثقافة الشعبية البغدادية، فبين صفوف الحوانين فيه توجد المساجد التي يصلى فيها التجار وأصحاب الحرف أثناء العمل وبعده. ولم تكن المساجد مجرد أماكن للعبادة، بل كانت تؤدي أيضاً وظيفة سياسية هامة، وفيها يتلقى يوم الجمعة من كل أسبوع سكان بغداد من الذكور البالغين، ويستمعون للخطبة التي يتناول فيها الخطيب القضايا السياسية الهامة في ذاك العصر. ولم يكن من النادر أن تتحول اجتماعات المسلمين في المساجد إلى انتفاضات شعبية واسعة النطاق. وكان في بغداد وحدها مطلع القرن العاشر قرابة سبعة وعشرين ألف مكان للصلوة.

وبالقرب من البazar تقع نوادي المدينة، أي الحمامات التي كان منها في بغداد زمن المسعودي عشرة آلاف. وكان العديد من هذه الحمامات يزدآن بالمزايايك والزخرفات الجدارية. ويخبرنا المسعودي أن الماء غالباً ما كان يرى في الحمامات صورة عُقاب خرافي تقول القصص الإسلامية إنه حمل الإسكندر ذا القرنين (الأسكندر المقدوني) وطار به إلى السماء. ويسبب هذه الصور بالذات كان للفيوريين على نقاوة الإسلام موقف يتسم بنفور وربة كبيرة كبيرة إزاء التردد على الحمامات.

كانت البازارات مكاناً لتقديم عروض الفنانين الجوالين، وغيرهم من يؤدون أدوار شخصيات ما يسمى بالأدب الشعبي، إذ أن أدب المتعلمين في القرون الوسطى، ولا سيما الشعر الذي يحاكي فحول الشعر الجاهلي، لم يكن يسير الفهم على فئات عريضة من سكان المدن الذين غالباً ما كانوا أميين، أو على ضعف في معرفة قواعد لغة الأدب، أي اللغة العربية الفصحى. وهذا ما أدى على ما يبدو، ورغم شحة معلوماتنا عن ذلك، إلى ظهور إبداع خاص مدني، شعبي، شفوي، من النثر والشعر في المراحل المبكرة لانتشار اللغة العربية كلغة للحديث في مدن العالم العربي الإسلامي. إن الأثر الباقى الأكثر شهرة لهذه التقاليد الأدبية هو كتاب حكايات وروايات "ألف ليلة وليلة" ذات الصيت الذى ترجم من العربية إلى العديد من لغات العالم، ومنها اللغة الروسية. وكان المسعودي، بالنسبة، أول مؤلف عربي إسلامي يذكر هذا العمل الأدبي. وفي كتابه "مروج الذهب" نجد لأول مرة ذكراً لإحدى بطلات أدب الشطارة والاحتيال في "ألف ليلة وليلة" هي دليلة الماكرة. ولم يقتصر الأمر على دواوين الحكايات والقصص القصيرة، بل نجد إلى جانبها

روايات طويلة عن مغامرات الفرسان العرب يتطلب إصدارها مطبوعةً العديد من المجلدات.

بورد المسعودي قصة شيقة عن مثل شعبي و مغامراته في قصر الخليفة المعتصم الذي اشتهر كما أسلفنا بقسوة شديدة. يقول المسعودي إن رجلاً كان يتكلم على الطريق ويقص على الناس أخبار نوادر و مضاحك، يعرف بابن المغازلي، وإنه وقف يوماً في خلافة المعتصم على باب الخاصة يضحك وينادر، فحضر حلقة أحد خدم القصر، الذي أبلغ الخليفة ببراءته، فأمره بإحضاره. ولكن الخادم طلب من المغازلي تقاسم الجائزة مناصفة، فوافق بعد أن أخفق في ثنيه عن طلبه هذا. وعد أمير المؤمنين المغازلي بجائزة قدرها ٥٠٠ درهم إن هو أضحكه، وان لم يفلح ينال عشر صفات بجراب على قفاه. فاستهون المغازلي الأمر وقبل بالشرط، فأخذ يقص النوادر والحكايات من كل نوع وجنس وأمير المؤمنين لا يضحك. ولما أسقط في يد المغازلي طلب من الخليفة مضاعفة الجائزة بإضافة عشر صفات، فكاد الخليفة أن يضحك ولكنه استمسك، وبعد أن نال المغازلي عشر صفات موجعات طلب الكلام، فتوقف الصفع. فقص على الخليفة ما اتفق عليه مع الخادم، وقال إنه استوفى نصف الجائزة وبقى للخادم نصفها، فضحك الخليفة حتى استلقى. ثم أمر أن ينال الخادم نصبيه. وبعد ذلك قسم الدرارم بين الاثنين.

للوهلة الأولى تبدو هذه القصة صورة جميلة من الحياة اليومية تعكس بصدقخلق الصارم في بلاط المعتصم. ولكن من المشكوك فيه أن يكون لهذا المشهد مكان في الواقع. إن موضوع قصة ابن المغازلي يعود إلى منابع فولكلورية، حيث نجد مثل هذه الحكايات عن الشطرة

والحيلة عند العديد من الشعوب، ومنها الروس والألمان والأتراك.... ولكن القيمة التاريخية لقصة المسعودي عن المضحك ابن المغازلي تكمن في أمر آخر، إذ يتضح من هذه القصة أن بغداد عرفت مهنة خاصة هي مهنة راوي النكات والنواذر المسلية (المضحكة) التي تمارس في الشوارع مباشرة. وما يؤكد الطابع الفولكلوري لقصة المسعودي أن رواية ذات مضمون كهذا موجودة في "ألف ليلة وليلة" مع فارق أن بطلها اسمه ابن القربي، أما الخليفة فهو هارون الرشيد، بينما يقوم بدور الخادم الذي أحضر المضحك رئيس حرس قصر الرشيد، وهذا شخصية واقعية تاريخياً، واسمها مسرور. أما قصة تقاسم الدرام "المرجو الذهب" مباشرة، على الأرجح، محررو "ألف ليلة وليلة" من "أعيدت كتابته مرات عديدة، وفي كل مرة كان يستوعب نصوصاً جديدة، وذلك حتى القرن السادس عشر. وهكذا عادت هذه القصة التي استمدتها المسعودي من الفولكلور المديني إلى الأدب الشعبي من جديد..

يدل تطور التجارة الكبير في بغداد زمن المسعودي، ووجود العديد من الأسواق فيها، على أن جزءاً هاماً من سكانها كانوا من لهم علاقة ما بتجارة البazar، أي أصحاب حرف وتجاراً وأصحاب دكاكين (نشير بالمناسبة إلى أن الباحثين المعاصرین يقدرون عدد سكان بغداد آنذاك ببضعة مئات من الآلاف. أما رقم ٢ مليون الذي غالباً ما نصادفه في المراجع القراءية وأدبيات الماضي العلمية فيبدو الآن غير واقعي). ومن البديهي أن هذا الجزء من السكان لم يشكل فئة اجتماعية متجانسة، إذ كان يضم حرفيين فقراءً، وتجاراً أغنياءً يملكون ثروات كبيرة ولهم علاقات تجارية مع كل أنحاء دولة الخلافة.

كل البغداديين متكافئون ولكن بعضهم أكثر تكافؤاً

إن الدور الهام للعلاقات السلعية - النقدية في العالم العربي الإسلامي قد ساعد في عدم تشكيل شريحة إقطاعية بالمعنى الأوروبي للكلمة. وعلى أية حال، كانت التخوم بين فئات السكان زمن المسعودي متحركة جداً، فكان الشخص يتحوال إلى ابن ذوات تبعاً لحالته المادية ونجاحاته في المجال السياسي. ومن ناحية الأصل والنسب كان سليلو أهل البيت النبوى، أي بنى هاشم، يعدون الأكثر رفعة، علماً بأنهم كانوا في أغلب الأحيان بعيدين عن تبوء مكانة رفيعة، وإن كانت خزانة الخليفة (بيت المال) تصرف لهم المرتبات، ولا تقطع منهم الضريبة الإسلامية المعروفة بالصدقة. ولم يكن الهاشميون خاضعين لاختصاص القضاء الإسلامي العادى، بل كان القاضي الرئيسي عندهم هو عميدهم (أكبرهم سناً) ويسمى بالنقيب، الذي يعينه الخليفة مباشرة. وبنو هاشم مجموعتان رئيسيتان، الأولى منها تضم أحفاد العباس عم النبي؛ والثانية أحفاد ابن عم النبي وصهره الخليفة الرابع علي بن أبي طالب، أي أبناء علي، أو العلوين. ولقد استولى العباسيون، كما سبق وأشارنا، على السلطة في الخلافة عام ٧٥٠ م مستثمرين الصراع الذي خاضه أبناء علي سنين طويلة ضد نظام الأمويين. وإذا لم ينالوا شيئاً ظلوا طوال الوقت غير راضين عن حكم العباسيين، وغالباً ما نظموا انتفاضات لإطاحة خصومهم الذين كانوا أوفر حظاً. وتكون بالتدريج وسط أبناء علي وأنصارهم تيار خاص في الإسلام هو المذهب الشيعي. أما الخلفاء العباسيون الذين اتبعوا الاتجاه الإسلامي الآخر، أي المذهب السنى، فلم يعدموا المبررات لاعتبار الشيعة أعداءهم الألداء. وفي النصف الثاني من

القرن التاسع صدر أمر يحرم على أبناء علي - نواة الشيعة- استئجار أراضي الدولة، وركوب الخيل، والاحتفاظ بأكثر من عبد واحد، وكذا الشهادة في المحاكم.

كان شيعة بغداد يقطنون منطقة الكرخ في الجزء الشرقي من المدينة. وكانوا يجتمعون عادة في مسجد برصدة لإقامة صلوات الجمعة وعقد المجالس. و يبدو أن اجتماعاتهم هذه أخذت طابعا خطيرا بالنسبة للسلطة مما أدى عام ٩٢٥ إلى تدمير المسجد بأمر من الخليفة.

كان أحفاد الخلفاء الراشدين الثلاثة أبو بكر وعمر وعثمان يحظون بجلال المسلمين، ولكنهم لم يتمتعوا بالامتيازات التي تمتلك بها الهاشميون. وكان أحفاد المسلمين الأوائل، صحابة النبي محمد، يعدون من ذوي المكانة أيضا. وكان المسعودي نفسه ينتهي إلى هذه الفئة. ولا تتضح لنا أبدا حالة أبيه المادية ولا نوع عمله. وربما أمكننا القول إن المسعودي لم يكن من فئة التجار منشأ، ذلك أنه لم يكتب شيئاً عن وضع التجار في بغداد، كما أن شهادته عن أمور التجارة في الأماكن التي زارها أثناء رحلاته الطويلة مقتضبة جدا. ومن المحتمل أنه من عائلة توارثت العلم أبا عن جد، ولعل ما حصل عليه من ثقافة واسعة لم يكن ثمرة جهوده الشخصية وحسب، بل ومظهرا من مظاهر تقاليد العائلة أيضا.

وعند الحديث عن سكان بغداد زمن المسعودي لا يسعنا إلا أن نشير إلى العبيد الذين كانوا يشكلون جزءا هاما منهم. أما مالكو العبيد فكانوا من أتباع كل الديانات في الخلافة، مسلمين وبهود ونصارى. وكان العبيد ينقلون من أسواق الرقيق في شمال أفريقيا ومصر واليمن

إلى العاصمة بالقوافل مع الذهب وغيره من السلع الثمينة. ومن الأرقاء كان أفارقة سود وآخرون بيض البشرة. وفي العبيد أيضاً كان عدد كبير من ذوي الأصول التركية الذين استخدمو حارساً لل الخليفة. وكان العبيد بيض البشرة أغلى قيمة من السود، والأفضل بين العبيد البيض هم ذوو الأصول السلافية (من الصقالبة) الذين كانوا يجلبون إلى دولة الخلافة بطريقين اثنين، فإما عن طريق حوض الفولغا وإما عن طريق البحر المتوسط قدوماً من ألمانيا وأسبانيا والبروفانس. وكان التجار المقيمين في سكسونيا الشرقية يضمنون وصول العبيد من روسيا وبولندا وتشيكيا وغيرها من بلاد السلاف (الصقالبة).

استخدم الأرقاء في بغداد وغيرها من مدن الخلافة الكبيرة كخدم في البيوت بصفة رئيسية، وكذلك للعناية بالأطفال وطهي الطعام وتذليل شؤون المنازل. وإلى جانب هؤلاء، كان هناك عدد من العبيد الذين يتلقنون حرفة ما. والعبد من هذا النوع كان ملزماً بأن يدفع لسيده مبلغاً معلوماً كل يوم كجزية. ويخبرنا المسعودي أن الموسيقي والشاعر المعروف في عهد هارون الرشيد، مسكن الدين، كان قبل ذلك عبداً خياطاً ملزماً بدفع درهمين لسيده كل يوم. ويرور الوقت كان بإمكان العبد الحرفي افتداء نفسه بالتقسيط. والإماء كنّ كثيرات أيضاً، والفتاة الأمة التي تجيد العزف والغناء كانت أغلى ثمناً، إذ كانت فتاة كهذه تساوي في بغداد مطلع القرن العاشر ثلاثة عشر ألف دينار ذهباً. كانت العبودية زمن المسعودي، بل وبعده بوقت طويل، تعتبر ظاهرة طبيعية. ولذا نرى المسعودي وغيره من الكتاب العرب المسلمين لا ينطقون بكلمة استباء واحدة حول هذا الأمر، بل نراهم على العكس من ذلك يفاخرون بالطابع

الإنساني للعبودية في ظل الإسلام، فالشريعة تحرم ضرب العبد، كما أن إعتاق العبيد يعد عملاً يرضي الله. ولكن هل ثمة ضرورة ياترى للتساؤل عما إذا كانت هذه المقاصد النبيلة قد تحققت دائماً في الواقع العملي؟

إلى جانب التجار وأصحاب الحرف وأبناء الذوات وأرباب الشعائر الدينية والعبيد، كان هناك الكثيرون من لا عمل محدداً لهم، أي حثالة المجتمع المؤلفة من المشردين والمتسولين واللصوص الذين اصطلح على تسميتهم (قاع المدينة). وهؤلاء لم يكن لهم عمل دائم ولا سكن دائم، فيتسكعون نهاراً في بازارات بغداد وشوارعها وأزقتها وساحاتها.. ويتسولون ويتشاربون ويسرقون، ويئون ليلاً إلى أكواخ مزرية أو إلى الحمامات، أو إلى العراء يفترشون الأرض ويلتحفون السماء. وكان بين المشردين واللصوص في بغداد مهرة بارعون في الاحتيال والخداع. وقد تعرفنا فيما سبق على واحد من هؤلاء عندما أوردنا قصة الخليفة المعتصم. يورد المسعودي حادثة أخرى وقعت أثناء احتفال بالنصر نظمه في بغداد الخليفة المعتصم أيضاً بمناسبة أسر أحد العصاة، فاحتشد في الشوارع جمّهور غفير من الناس وخاصة على الجسر المقام على دجلة مما أدى إلى تحطم دعائمه التي لم تتحمل وطأة الجمّهور. ووقع حطام الجسر ومن فوقه على مركب كان يبحر النهر وعليه كثرة من أهالي بغداد كانوا يستمتعون بمناظر الاحتفال، فغرق جراء ذلك ما يزيد عن ألف شخص. وراح الناس ينتشلون الغارقين بالكلاليب، وكانت بينهم جثة صبي في ثياب تدل على اليسر، ومزينة بأحجار كريمة. تقدم رجل مسن تبدو عليه أمارات الوقار متوجعاً نادباً بصوت جهير قائلاً إن الصبي الغريق ابنه.

استلم هذا الرجل جثة (ولده) فأستأجر حمارا وضع الجثة عليه وانصرف متحبا بأعلى صوته. ولكن سرعان ما وصل إلى عين المكان مهولا تاجر معروف باليسار كان قد علم أن جثة صبي في ثياب تم عن الشراء قد انتشلت من نهر دجلة. وأدرك التاجر التعس من الوصف الذي سمعه أن الفريق ابنه. ولكن ما من أحد على الشاطئ تذكر الفتى الغريق ولا الرجل المسن "الصالح" الذي حمل جثة الصبي على الحمار. واتضح أن الرجل المسن ذا اللحية البيضاء، كان ذاتع الصيت في بغداد كلها، وأن ملابس الصبي وزينته الثمينة قد أغرته فلعب بهارقة كبيرة على مشاعر جمهرة البغداديين تجاه مصيبة والد فقد ولده. وفي حادثة أخرى حمل هذا الم GAMER فأسا وجرا فارغة وارتدى رث الثياب وانطلق إلى منزل أحد العدول الأغنياء. وكان عند باب المنزل عدد من الدكاكين يباع فيها ما هب ودب من الحاجيات. وأخذ هذا المحتال يطرق بفأسه جدران الدكاكين وأبوابها متزلا بها غير قليل من الأذى، فاجتمع كل الحي، وخرج أيضا صاحب المنزل. وكان العجوز الرث لا يزال يضرب الجدران فسألته الشري لماذا يفعل ذلك ومن طلب منه أن يتصرف على هذا النحو ؟ فرد الرث قائلا إنه يهدم الدكاكين بناء على أمر صاحب الدار. عندئذ صالح المجتمعون أن صاحب الدار أمامه، ولم يأمر بشيء من هذا القبيل، فاقترب العجوز من جتره وادخل يده فيها كأنه قد خطا ثيابه بها، فصرخ وبكي، وعنديز ظن المجتمعون أن محتالا قد خدع هذا المجنون البائس بعد أن سرق ثيابه. سأله العدل والدموع في عينيه، المجنون المزعوم عما فقده، فأجاب بقوله "قميصا اشتريته أمس وملحفة لبيتي وسراويل ". أثار هذا الاعتراف مزيدا من الشفقة عليه، فرقوا له وكسوه ووهبوا

له دراهم. وسرعان ما اختفى "البائس" ولم يظهر بعد ذلك في هذا الحي. ويخبرنا المسعودي أيضاً أن هذا اللص الشهير راهن في شبابه على اختطاف أحد أطباء البلاط من بيته وأخذه إلى الخليفة المتوكل في صندوق. وقد فعل ذلك. وكان يعرف بالعقاب ويكتفى بأبي الباز.

كان في بغداد كما في غيرها من المدن العربية الإسلامية تنظيم خاص للعيارين يسمى أعضاؤه بالفتوة. ومن العسير الآن التتحقق ما إذا كان ذلك تجمعاً لعناصر منبوذة من طبقاتها، أم تنظيمًا لشباب المدينة يضم أبناء أصحاب الحرف وصفار التجار. وربما كان يضم هؤلاء وأولئك. كان لأخوية الفتوة تنظيم يقوم على التراتب، وطقوس خاصة في قبول الأعضاء. وكان أفرادها يرتدون سراويل ذات تفصيلة خاصة يعرف بواسطتها بعضهم بعضاً. مارس العيارون أعمال النهب، أو فرض الخوات على التجار الأكثر غنى وبخلا لتوزيعها على الفقراء. وعند قبول عضو جديد في منظمة الفتوة كان الزعيم يطلعه على الأحاديث النبوية التي تؤكد أن النبي محمد أعطى كلمة السر الخاصة بالعيارين للخليفة الرابع علي بن أبي طالب، وقد انتقلت هذه القواعد غير المدونة إلى زعماء الأخوية. وبعد الاطلاع على هذه الأحاديث يشرب المنتسب الجديد كأساً من الماء البارد ويقسم اليمين للدفاع عن الفقراء والمساكين. كان العيارون مهرة في فنون القتال، وشكلوا قوة لا يستهان بها.

عندما حاصرت قوات المؤمنون بغداد قام أحد قواده، وهو المسبib الضبي، بنصب المنجنيق في الجزء الشرقي من المدينة. وعندما قصفها بلا رحمة لحق أكبر الضرر بالبغداديين البسطاء. ويخبرنا المسعودي أن العيارين وزلاة السجون هبوا للدفاع عن مدینتهم وقاتلوا لهم عراة إلا من التابعين والميازير، وصنعوا الدروع والخوذ من الخوص والبواري،

وتسلحوا بالعصي والحجارة. وبالرغم من بساطة هذا التسلح لم تكن مقاومة البغداديين الشعبية غوغائية بلا تنظيم، فكانوا ينقسمون إلى مجموعات يضم كل منها عشرة أشخاص عليهم عريف، وكل عشرة عرفاء عليهم نقيب، وكل عشرة نقباء عليهم قائد، وعلى كل عشرة قواد أمير. ويقول المسعودي إن قادة العيارين لم يكونوا يقاتلون كمساة، بل على ظهور رجال من بين مأمورיהם ذوي أجسام قوية. اشتدت الوطأة في بداية المعركة على القوة التي تحاصر المدينة عندما أغارت عليهم قوة العيارين الجسورة، ولكن أنصار المؤمنين المسلمين جيداً مكنوا من إلهاق الهزعة بالعيارين المستبسلين.

الأفراح والأتراح في بغداد وسامراء

بين الباحث الروسي البارز في ميدان ثقافة القرون الوسطى م.م. باختين أن الكرنفالات كانت سمة من سمات حياة المدينة في أوروبا الغربية في القرون الوسطى. أما في مدن الشرق الأدنى فكان يقام أيضاً العديد من الاحتفالات وخاصة في عاصمة الخلافة بغداد. وكان سكان بغداد من المسعودي يحتفلون بالأعياد المسيحية كلها تقريباً، وغالباً ما كانت هذه احتفالات بمناسبات وثنية أعيد تمثيلها وأخذت طابعاً جديداً. كانت الأعياد المسيحية في مختلف الأديرة تلقى صدى كبيراً عند سكان بغداد من مختلف الديانات. إن سكان العراق الأصليين الذين سماهم العرب "النبط" هم أحفاد البابليين والآشوريين، وكانوا قد اعتنقوا المسيحية على مذهب اليعاقبة. وفي مطلع القرن العاشر لم يكونوا قد أسلموا بالكامل. ولهذا السبب كان هناك عدد كافٍ من الأديرة والكنائس والمصليات المسيحية في بغداد وضواحيها. وكانت الأديرة في

كثير من الأحيان تملك في الأراضي التابعة لها كروماً يصنع الرهبان من ثمرها خمراً يبيعونه في المخانات الواقعة ضمن حدود الدير للزوار من أتباع مختلف الأديان. ومن الطبيعي إن زيارات الأديره لم تقتصر على أيام الأعياد، ولا على الزوار المسيحيين، فمن بين زوارها كان مسلمون يحرم دينهم تناول الخمر.

كان أحد الشعانيين يعد من أهم أعياد الربيع، حتى أن أمير المؤمنين بالذات أمر بأن ترتدي إماء الحرير أحسن الملابس، والحضور إليه وفي أياديهن سعف النخيل وأغصان الزيتون. وبعد أسبوع من ذلك، أي في عيد الفصح، كان المسلمين والمسيحيون يقيمون الولائم المشتركة عند دير بالقرب من باب الشماسية في الجزء الشمالي الشرقي من بغداد. وفي يوم السبت الأخير من شهر أيلول كان يقام احتفال دير الشعالب الواقع في الجزء الغربي من المدينة، والمشهور بحداقه الفسيحة التي كان أتباع الديانتين في بغداد (الإسلام والمسيحية) يحبون إقامة المأدب فيها. ويلي ذلك بوقت قصير الاحتفال بعيد دير القديس إشمونا في الضاحية الشمالية الغربية من بغداد، وكانت تسمى قطريلاً، التي تغنى بخمرها الشاعر العربي الإسلامي الشهير في القرن التاسع أبو نواس (*). وكان البغداديون في هذه المناسبة يتأنقون في ملبسهم ويأتون إلى قطريلا على المراكب النهرية ويستمرون في احتفالاتهم ثلاثة أيام بلياليها. وبمناسبة أعياد الميلاد كان البغداديون يوقدون النار في الشوارع ويتجمعون حولها

(*) يقول أبو نواس في وصيته :

خليليٌّ بالله لا تخفرا
لي القبرِ إلا بقطريلا
خلال المعاشر بين الكروم
ولا تدانياني إلى السنبلِ
إذا عصرت ضجة الأرجلِ
علي أسمع في حفرتي

مغنين راقصين. وقبل موعد الصوم الكبير كانوا يجتمعون عند دير الأخوات في ضواحي بغداد. وكان الرجال في هذه المناسبة يرتدون ملابس نسائية ويقططون خبولا من خشب ويبارون بالتهريج.

وتجدر الإشارة إلى إن عيد رأس السنة الفارسية والاعتدال الريعي، عيد النوروز، كانا من الأعياد غير المسيحية التي تمنتت بشعبية كبيرة. وكان الاحتفال بهذا العيد، كما بالأعياد الإسلامية، احتفالاً مهيباً في البلاط، حيث يقوم الخليفة شخصياً بإهداء المقربين منه تماثيل صغيرة مصنوعة من العنبر، وكان ينشر النقود على الممثلين مكافأة لهم. وفي أواخر أيلول / سبتمبر كانت تقام احتفالات لا تقل فخامةً مناسبة المهرجان، أي يوم الاعتدال الخريفي المأخوذ عن الفرس أيضاً. وكان رجال الحاشية وحراس القصر يستلمون ألبستهم الشتوية في هذا اليوم.

وفيما يتعلق برأس السنة الإسلامية (الهجرية) فكان الاحتفال به يقتصر على بلاط الخليفة. أما مناسبة عيد الأضحى (العيد الكبير) وعيد الفطر (العيد الصغير) فكان البغداديون العاديون يستقبلون الضيوف ويقدمون لهم بسخاءً شتى أنواع الضيافات. ومنذ مطلع القرن العاشر شاع الاحتفال بعيد المولد النبوى، فكان الناس يتجمهرون في هذا اليوم في الشوارع أمام قراء السيرة النبوية الذين يتلون فصولاً منها تتحدث عن معارك النبي ضد الكفار عبدة الأواثان، وقصة الإسراء والمعراج، المعجزة التي أتى بها النبي بشيئته الله.

كانت الاحتفالات الخاصة تقام مناسبات عديدة، وفي طليعتها ختان الصبيان والأعراس، فكان الأثرياء يحسنون ضيافة كل من يدخل بيوتهم، ويوزعون الصدقات بسخاء، ويقدمون الهدايا للجيران وحتى للمارة.

كان أصحاب الحرف ينظمون في الأعياد الإسلامية مسيرات احتفالية يحملون فيها على أصوات الأبواق وقرع الطبول نماذج مضخمة من مصنوعاتهم، منها قصور من السكر وغيرها من الغرائب.

تقع بغداد على نهر دجلة وهذا ما جعل العديد من ضروب لهو أهاليها وتسلياتهم مرتبطة بهذا النهر، فالكثيرون يتذمرون أيام الأعياد على قوارب نهرية خاصة أو مستأجرة. أما البغداديون الميسورون فكانوا يستمتعون بجمال الطبيعة في الضواحي على أصوات المغنيات العذبة، فيتوقفون في زاوية خضراً، ويولون في الهواء، الطلق. وكان بعضهم يركبون النهر عدة أيام صعدا نحو سامراء التي كانت تتدلى كشريط ضيق بطول ثلاثين كيلومتراً بمحاذاة النهر. كان المسعودي، على ما يبدو، قد زار سامراء مراراً في طفولته وبعدها بسنين كثيرة، وهو يفرد حيزاً مهما في مؤلفاته لهذه المدينة؛ ففي "كتاب التنبيه والأشراف" يؤكد أن سامراء هي آخر مدينة كبيرة شيدت في العهد الإسلامي حتى أيامه (المسعودي)، وقد أسسها في العام ٨٣٨م الخليفة المعتصم (٨٣٣-٨٤٢). ويخبرنا المسعودي أن المعتصم كان مولعاً بابتياح العبيد الأتراك، وتعليمهم فنون الحرب، وتشكيل فصائل منهم لحرسه الخاص. وهكذا تجمع لدى الخليفة تدريجياً جيشاً كامل من الحراس بلغ تعداده أربعة آلاف رجل. وكان هؤلاء الأتراك يضيقون على أهالي بغداد بعد أن أحسوا أنهم ذوو حظوة عند الخليفة الذي وفر لهم اللباس الشمين والمرتبات السخية والوجود الدائم في حضرته. وكانوا مغرمين، علىخصوص، بإقامة سباقات الخيل وسط أسواق بغداد المكتظة بالناس، فكانت الخيل تنزل بالغ الضرر لا بالسلع وحسب، بل وبالتجار أنفسهم

أيضاً، فكان كثيرون يقعون تحت حواري الخيول متحملين ما يلحق بهم جراء ذلك من عاهات، وهلاك أحياناً، فأخذ السكان المغناطيون يغيرون على الحراس ليلاً ويفقذونهم. وإذا رأى المعتصم أن وجود الحرس التركي في العاصمة يسبب الفوضى، وأن رعاياه يزدادون استياءً، قرر الانتقال مع بلاطه وحراسه إلى مكان آخر أيا كان. واعتنم في بداية الأمر الإقامة في مكان قريب من بغداد يسمى البرزان، ولكنه لم يستطع هواءه، فانتقل المعتصم والمقربون منه إلى القاطلول حيث شيدوا قصراً جميلاً أقام حوله أصحاب الحرف والتجار الذين جيء بهم من بغداد. ولكن سرعان ما اتضح أن المناخ هنا (في القاطلول) غير ملائم صحياً فاضطر الخليفة للبحث عن مكان آخر. ولما كان المسعودي قاصداً بارعاً فإنه لا يفوته هنا أن يورد حكايةً أسطوريةً عن بناء سامراء، فيقول إن المعتصم خرج للصيد في يوم من الأيام ودخل بالصدفة بقعةً تسمى سامراءً كان فيها دير مسيحي، وتحدث إلى الرهبان فأخبروه أنه كانت تقوم على هذه الأرض، كما تقول الروايات المتوارثة، مدينةً أسسها سام بن نوح وسميت سامراءً تكريماً له وتهنيناً به. أقام المعتصم نحو ثلاثة أيام في محيط سامراءً أمضاها في الصيد والراحة، كما أنه تذوق الخمر الذي قدم ضيافة له من أقبية الدبر. وقرر في آخر المطاف الانتقال إلى هنا. ولعل الخلفاء العباسيين بعد الخليفة العباسي الثاني المنصور الذي بنى بغداد، لم يشيدوا بناء آخر أكثر فخامةً مما بنوه في سامراء. وبأمر من المعتصم جيء بالبنائين والنجارين والحرفيين وغيرهم من كافة أنحاء العراق. ومن شروع الشمس حتى غروبها كانت المعاول وأدوات البناء تخرق الهدوء والسكينة في هذه البقعة. أمر الخليفة بأن تشيَّد إلى جانب القصر ثكنات

للحجد الأتراك وغيرهم من المجموعات الإثنية كالفراغنة (المتحدرين من وادي فرغانة في آسيا الوسطى)، والأشروسيية بالدرجة الأولى. وخطط أيضا لبناء أحيا، لاصحاب الحرف، وأسوق للتجار، بل وأخذ بالحسban سلفا كون أبناء كل صنعة سيقيمون في حي خاص بهم. أما قطع الأرض المتميزة فقد خصصها الخليفة للمقربين منه.

بلغت سامراء أوج ازدهارها في عهد المتوكل (٨٦١-٨٤٧) ولكن نجمها أخذ بالأفول بعد موته المأساوي، إذ قتل في مؤامرة دبرها الحرس الأتراك.

وربما كان المسعودي قد طاف كثيرا في قاعات مسجد سامراء الكبير متأملا بفناء كل ما في هذه الدنيا، فهذا المسجد شيد بأمر من المتوكل وقد بنيت جدرانه من القرميد، وفي زواياه شمخت أبراج دائيرية، وفي قاعة الصلاة الكبيرة محراب جميل صنع من الخشب الشمين وعلى جانبيه عمودان من المرمر. وفي الداخل نافورة للوضوء. وبالقرب من المسجد مئذنة كبيرة رائعة شيدت على شكل برج بابلي متدرج مساحة قاعدته تسعون مترا مربعا، ويلتف حول المئذنة درج حلزوني بعرض كبير حيث كان بإمكان الخليفة أن يبلغ ذروته راكبا على حمار.

لم يقتصر تفكير المتوكل على حياته القادمة في الدار الآخرة (ولعل فكرة الحياة في الدار الآخرة هي التي دفعته لبناء هذا المسجد الفاخر)، وما كان لينسى الحياة الدنيا. إن القصر الذي أمر بتشييده في سامراء لا يقل روعة عن قصر الخليفة في بغداد، وفيه قاعة العرش الفاخرة، وأبواب للمخادع تطل على باحات داخلية بهيجات. وأعدت للخليفة والمقربين منه حمامات كسيت جدرانها بالمرمر. وارتفع في الحديقة، حيث

خير الشلالات الاصطناعية، بناء خاص للجواري. وزينت جدران قاعة العرش وغيرها بالتماثيل والمزاييف (لم يخالف الخليفة تحريم الإسلام الخمر فقط، بل وتحريم صنع صور للكائنات الحية). لم يكتف المتوكل بعظمة المباني التي شيدتها في سامراء، بل قرر، وقد أخذ الغرور منه مأخذًا، بناء مدينة جديدة لإقامة سميت باسمه، فعلى بعد عشرين كيلومترا من سامراء، شيدت الموكليّة التي دام العمل في بنائها عامين فقط، فبدأ عام ٨٥٩ وانتهى عام ٨٦١ م. إن قصور الخليفة والمقربين منه فيها لا تقل جمالا عن مباني سامراء، وكانت تطل على النهر مباشرة. ولكن المتوكل لم يقدّر له أن ينعم طويلا في عاصمته الجديدة التي انتقل إليها في ١٧ آذار، ففي العاشر من كانون الأول قام قادة الحرس الأتراك، وقد ضيق الخليفة عليهم مجال تعسفهم واستبدادهم، بخلعه عن عرش الإمبراطورية الإسلامية لما رأوا فيه من قرد عليهم.

إذا كان الأمين بن هارون الرشيد أول خليفة عباسي يموت قتلا، وإذا كان مقتله قد ترك انطباعا مؤثرا عند معاصريه وأحفاده من بعده، فإن موت المتوكل قد ترك أثرا لا يقل عن ذلك في الذاكرة العربية الإسلامية، إذ كان أول خليفة عباسي يقتل في مؤامرة يحيكها الحراس الأتراك. ويبدو أن المسعودي أدرك أن هلاك المتوكل قد دشن مرحلة جديدة في تاريخ الخلافة، فالحراس الأتراك الذين أغراهم نجاحهم الأول، شاركوا في معظم التغييرات التي طرأت على عرش الخلافة بعد موته وحتى أيام المسعودي. لذلك لم يكن من قبيل الصدفة تأكيد المسعودي على أن الوضع في الخلافة في عهد المتوكل تميز بالاستقرار، وأن الرعية عاشت في نعيم وأمان. ومن الجلي أن فترة حكم هذا الخليفة بدت للمسعودي

وابناء زمنه عصرا ذهبيا، علما بأن الأمور في واقع الحال كانت أكثر تعقيدا بكثير.

لقد حفظ لنا المسعودي قصة بلية عن الشاعر المشهور البحترى، ابن زمن الم توكل وأحد رجال بلاطه، تروي ملابسات مقتل الخليفة. ولا تكمن أهمية هذه القصة في صدقيتها التاريخية (الأمر الذي لا بلح المسعودي عليه)، وإنما في استرجاعها ذلك الجو النفسي المشحون بانعدام الثقة بالمستقبل والخوف من المجهول، الذي عاش فيه من كان قريبا من بلاط الخليفة.

يقول المسعودي عن البحترى إن الخليفة الم توكل قتل بسيف هندي اشتراه من رجل من أهل اليمن، وذلك أن الم توكل أمر بتسلیم هذا السيف الفريد لأحد حراسه، واسمي باغر التركى، ليكون واقفا به على رأسه في كل يوم مادام الخليفة جالسا. وفي أحد السهرات، وكان الم توكل قد سكر سكرا شديدا، أقبل باغر ومعه عشرة من الأتراك وهم متلثمون والسيوف في أيديهم، وقام باغر بقتل الخليفة بالسيف الهندي ذاته بعد أن كان المنتصر بن الخليفة، قد استمال كثرة من الأتراك والفراغنة والأشروسية، وكان على رأس مغامرة قتل أبيه.

وفي هذا الصدد يقول المسعودي إن ندما، الخليفة كانوا مجتمعين عنده عشية مقتله. وعندما بلغ المرح أوجه حضر رسول من اليمن يحمل سيفا قديم الصنع، فأمر الم توكل، الذي كان يهوى الأسلحة النادرة، بشراء السيف لقاء مبلغ كبير من المال، وسرّ بالغ السرور بهذا السيف وسلمه في الحال إلى أحد الحراس الأتراك طالبا منه المحافظة على راحته ليلا نهارا. ويشير البحترى إلى المصادفة الغريبة بأن يقوم هذا الحارس،

الذى كان ضالعا في المؤامرة، بقطع رأس سيده في تلك الليلة، وبالسيف إياه ؛ فبعد أن اشتري السيف انتقل الخليفة والمقربون منه إلى الحديث عن تكبر الملوك في القديم. وإذا سمع المتوكل هذه الأحاديث خرّ على وجهه الذي تعفر كله بالغبار، وأعلن بصوت جهير أنه عبد الله، وأنه من التراب ولد وإليه يعود، ولذلك لم ينسق وراء التكبر. ورأى البحتري في قول الخليفة وتصرفه هذا نذير شؤم. وإذا استعاد هدوء عاد الخليفة وجلس يشرب الخمر. وغنى العبيد أعزب الغناء، فبكى المتوكل وقال لوزيره الفتح بن خاقان إنه لم يبق أحد من يقدرون الغناء سوى الخليفة والوزير. ورأى البحتري في هذا القول نذير شؤم ثانياً. وبعد ذلك دخل مخدع الخليفة خادم إحدى زوجاته حاملاً لأمير المؤمنين قفطاناً فاخرا هدية منها. فرح الخليفة لذلك وأراد أن يجرب القفطان، ولكنه استدار استداره ترق معها القفطان، فتكدر وأمر الخادم أن يعود بالقفطان إلى سيدته وبلغها رغبته بأن تحفظه لتكتفنه به عند موته. وهذا ما اعتبره البحتري نذير شؤم أيضاً. وشاءت الأقدار أن كان تخوفه في محله. فقبل الفجر، وبعد أن نال السكر من المتوكل، اقتحم مخدعه عدد من الحراس الأتراك على رأسهم باغر. تفرق جمع رجال البلاط بينما حاول الوزير الفتح بن خاقان حماية الخليفة، غير أن الحراس تمكنوا من قتل الاثنين. وفي الصباح دفن المتوكل بعد أن لفته زوجته بكفن صنعته من ذاك التوب الذي قدمته له كهدية عشية مقتله.

ورغبة منه بجعل صورة المتوكل على أكبر قدر من الجاذبية عند القارئ، يورد المسعودي قصة مؤثرة عن حب إحدى الجواري لسيدها الخليفة، وكانت قد أهدت له في مطلع حكمه. فبعد مقتل المتوكل آلت

هذه الجارية، واسمها محبوبة، إلى بُغا الكبير أحد مدبري المؤامرة ضد الخليفة المقتول. وذات مرة أقام بُغا سهرة كان من المفترض أن تغنى فيها محبوبة صاحبة الصوت الجميل، ولكنها ما أن تناولت العود حتى شرعت تغنى عن حزنها على الخليفة الذي فارق قبل الأوان، فاستشاط بُغا غضبا وأمر بزجها في الحبس حيث ماتت على أغلب الظن. وهكذا بقيت محبوبة على ولائها خليلها بالرغم من العقوبة الصارمة التي كانت بانتظارها. عاش حب محبوبة وولاوها قرونا، إذ خلدها كتاب المسعودي "مروج الذهب" وكتاب "ألف ليلة وليلة" الذي وردت فيه من خلال مؤلفات المسعودي.

"خير الأمور وأوسطها" وخاصة عندما تكون ضيفا

تؤكد قصة الم توكل أن قصر الخليفة لم يعد آمناً منذ بعض الوقت في حين كان سكان مدن الشرق الأدنى في زمن المسعودي يرون أن المنزل يجب أن يكون حصناً لصاحبها (لقد سبقوا الإنكليز في هذه النظرة إلى الراحة المنزلية). كانت غالبية المنازل في بغداد تتتألف من طابقين يبنيهما متوسطو الحال من اللبن (القرميد الخام)، بينما يبني الأغنياء منازلهم من الحجر. وغالباً ما كانت النوافذ تطل على باحة وحدائق داخلتين. وهكذا كان البيت العربي يبدو للناظر إليه من الشارع وكأنه حصن فعلاً. ويشغل القسم الرئيسي من هذا البيت صاحبه وذووه من الرجال، أما القسم الآخر فتسكنه الزوجات والجواري والبنات وأخوات الزوج العازبات. وكانت توجد فيه أيضاً مخادع خاصة للضيف والخدم، فضلاً

عن غرف المؤنة وأغراض الخدمة الأخرى. وكانت في بعض البيوت حمامات خاصة بأهلها.

كان كرم الضيافة العربي المشهور ينوب عن عزلة البيت العربي الإسلامي المديني التقليدي، وكانت الزيارات واستقبال الضيوف في شتى المناسبات، ويدون مناسبة أيضاً، التسلية المحببة لدى البغداديين الرجال من كافة الفئات. وفي أوساط المتعلمين والمشففين الذين كانت أسرة المسعودي تنتمي إليهم كما يبدو، لم يكن تبادل الزيارات حجة لتذوق أطابخ الحمرور والمأكولات الشهية بقدر ما كان للاستمتاع بالحديث مع الجلساء الظرفاء. وكانت موهبة المحادثة تعد من أهم مزايا الإنسان. وفي هذا المجال يرى المسعودي أن المرء يجب أن يتحدث بشكل طبيعي ومنطقي في آن، ولا ينبغي إرهاق المستمع بالاستشهادات الشعرية الطويلة والشقة الممدة. ويورد القول "تعلم حسن الاستماع كما تعلم حسن الكلام".

وكان حضور المآدب دون دعوة يعد من التصرفات المعيبة جداً، ومع ذلك، ونظراً لكثرة السهرات واللقاءات، وبوجود عدد كبير من الذين يعتاشون في بغداد وغيرها على مداخيل غير ثابتة، نرى أن بعض القراء النبهاء كانوا يعتاشون من حضور المآدب دون دعوة، وهؤلاء هم الطفيليون. وبرور الزمن غدت هذه "المهنة" كما يبدو، شكلاً شبه معترف به من التسول. كان الفقير الذي يتطلّف على الآخرين يقوم بدور المهرج ويسلّي الضيوف بشتى الوسائل ويحظى مقابل ذلك بنصيب من كرم الضيافة عند رب البيت.

يورد المسعودي هذه القصة الطريفة عن اعتقال أحد هؤلاء الطفيليين. ففي يوم من الأيام أبلغ الخليفة المأمون أن في البصرة عشرة

من الزنادقة أتباع المانوية^(*). وبناء على أوامر الخليفة جرى البحث عن هؤلاء الزنادقة وتم اعتقالهم، واقتيدوا إلى مركب بغية إرسالهم للممثل أمام الخليفة. شاهد أحد الطفيليين هؤلاء المانويين فقرر الانضمام إليهم لاعتقاده أنهم شيوخ محترمون في طريقهم لحضور وليمة. وعندما وصلوا إلى السفينة ظن الطفيلي أن الوليمة ستقام في مكان ما بضواحي المدينة تحت ظلال الأشجار، وسرّ لذلك غاية السرور. قبل الحراس كل المعتقلين بالأغلال، والضييف المتطفل بينهم. وعندما بانت له حقيقة الأمر أجهش بالبكاء، فضحك منه المانويون. وبعد حين وصل المعتقلون إلى بغداد ومثلوا أمام الخليفة. قرر المأمون إخضاع الزنادقة لامتحان في غاية البساطة، فطلب بأن توضع أمامهم صورة معلمهم ماني، وأمرهم أن يتفلوا عليها واحدا بعد الآخر. ووعد بالعفو عن من ينفذ أمره. أما من يرفض فأمر المأمون بقطع رأسه حالا. رفض المانويون جميعا تدنيس الصورة. وبعد أن قطعت رؤوس العشرة في القاعة مباشرة اتضح أن معهم شخصا آخر، وإذا استغرب الخليفة ذلك سُئل هذا البائس من يكون، ولماذا لا يتبع الإيمان القويم. فأفصح الطفيلي، الذي اعتبره خوف ميت، عن هويته وسبب وجوده مع الزنادقة مؤكدا لل الخليفة أنه مسلم غير علّ دينه. وللبرهان على صحة ما يقول بصدق عدة مرات على الصورة. فعفا المأمون عن الضييف المتطفل وأجزل له العطايا وأطلقه في حال سبيله. وهكذا نرى إذن أن "مهنة" الطفيلي لم تكن بالمهنة الآمنة دائما.

(*) المانوية عقيدة دينية ظهرت في القرن الثالث الميلادي وتتمثل توليفة من المسيحية والزرادشتية وكانت من ضمن الديانات المحظورة في دولة الخلافة . وكان من المعمول به أن يعرض على أتباعها التخلّي عن عقائدتهم أو أن يتعرضوا لعقوبة الإعدام .

لم يخل الأمر من حوادث لعب فيها أبناء الذوات دور الطفيليين رغمما عن إرادتهم. يخبرنا المسعودي أن إبراهيم بن المهدى، عم الخليفة المأمون، ركب حصانه ذات مرة وانطلق للقيام بجولة في بغداد، وكان أن دخل زقاقا لا يعرفه. وفجأة امتدت من إحدى التوافذ يد في غاية الحسن، لاشك أنها يد امرأة. وبعد أن استوضح إبراهيم بن المهدى من الجيران أن هذا المنزل يسكنه تاجر غنى ينتظر ضيفا في هذا اليوم بالذات، قرر أن يتسلل إلى المنزل دون دعوة، وأن يتبيّن إن كانت صاحبة اليد على قدر من الجمال أم لا.

وعندما لاحظ أن رجلين نبيلين في ثياب أنيقة يقتربان من باب المنزل، تقدم نحوهما وسألهما إن كانوا متوجهين إلى منزل التاجر الغنى ذاته، وإذا ردا عليه بالإيجاب انضم إليهما ودخل المنزل بمعيتهما. ظن صاحب المنزل أن الغريب صديق أحدهما، بينما ظن الرجلان أن إبراهيم بن المهدى من معارف صاحب المنزل. تناول الضيوف أولاً أفسخ المأكولات، ومن ثم انتقلوا إلى غرفة أخرى، فجاءت مغنية وبدأت بالغناء والعزف على العود. كان غناء الفتاة رائعًا للدرجة أثارت حسد إبراهيم بن المهدى، الذي كان مغنياً وعازفاً ممتازاً. وعندما فرغت من غنائهما وعزفها قال لها: "بقي عليك يا جارية شيء". فشعرت هذه بالضيق وألقت بالعود على الأرض. عندئذ طلب إبراهيم من أحد الخدم أن يتناوله العود، فكان له ما أراد. أصلح من شأن العود وضرب على أوتاره وشرع بالغناء. أعجب الضيوف والمضيف بغنائه أياً إعجاب. أما المغنية فطلبت العفو عما بدر عنها من غضب. وعندما تفرق الجميع أدرك المضيف أن الغريب جاء بلا دعوة، وسألته بأدب جم عما يريد. أوضح إبراهيم بن المهدى أنه

تجرأ على هذا التصرف لأنه رأى من النافذة يدا بدعة. عندئذ أمر المضيف بخروج ساكنات الحريم كافة والكشف عن أياديهن. وتبين في نهاية الأمر أن صاحبة اليد هي اخت المضيف، فزوجها لعم الخليفة حالاً. وهكذا نرى أن شخصية هامة تنتمي إلى بيت أمير المؤمنين قد تسمع نفسها أحياناً بحرق التقاليد وأداب المحاملة.

تشير قصة مغامرات إبراهيم بن المهدى إلى مدى الدور الكبير الذي تلعبه الموسيقى في حياة المجتمع العربي الإسلامي. ولذلك من الطبيعي جداً أن يتحدث المسعودي بإسهاب في "مروج الذهب" عن الموسيقى والآلات الموسيقية الرائجة في زمانه، وأن يعرض آراء معاصريه عن أصلها، ولو أن هذه الآراء تبدو الآن ساذجة. فالطبيب الشهير حنين بن إسحق على سبيل المثال، يرى بأن الأسنان كانت أول الآلات الموسيقية عند الإنسان، لأن القدماء كانوا ينقرن بأسنانهم مصدرين أنغاماً معينة. أما العالم الكبير عبيد الله بن خرداذة فيرى أن مخترع العود هو أحد أجداد العرب، ملك بن متولش الذي صنع هذه الآلة من ساق ابن له لم ير得 أن يفارقه بعد موته. أما توبل بن ملك فقد اتخذ الطبول والدفوف. لقد أحب العرب الغناء منذ القدم، وشاعت عندهم قبل اختراع الغناء، كما يرى ابن خرداذة ومن ثم المسعودي، صرخات إيقاعية خاصة كانوا يحدون بها قوافل الإبل. ويورد المسعودي حكاية تقول أن مضر بن نزار بن معد، أحد أجداد العرب، سقط مرة عن الجمل فكسرت يده، وراح يندب حظه بشكل يشير الشفقة، فأصافت لصوته كل الجمال التي كانت في القافلة وراحت تتحرك بإيقاع وانسجام. وبعد ذلك "أشتق الغناء من الحدا، ونوح نساء العرب على موتها، ولم تكن أمّة من الأمم أولى بالملاهي والطرب من العرب بعد فارس والروم". ويرى ابن خرداذة، ومن

بعد المسعودي، أن أوائل المغنين عند العرب كن جواري أحد ملوك العرب القدماء وهو معاوية بن بكر العملقي. ويرى المسعودي أن للموسيقى والغناء أثرا طيبا على الإنسان فهما يسران الروح وبهجان القلب، ويعينان المرأة على تحمل المصائب والأمراض. وكان الملوك القدماء يغفون على أنغام الغناء ليكون للنوم أطيب الأثر عليهم. ومن الجلي أن المسعودي وأسلافه قد تأثروا في آرائهم عن أصل الموسيقى والغناء بالتصورات الميثولوجية التي تعود إلى الماضي السحيق والقائلة بأن كل خيرات الحضارة قد ابتدعها الأسلاف الأسطوريون الأوائل، أي من يعرفون بأبطال الثقافة.

* * *

ذلكم هو إذن العالم المدهش الذي ولد وترعرع فيه الرحالة والجغرافي والمؤرخ القادم. ولكن شهرة بغداد، مسقط رأس المسعودي، لم تأت أساسا عن التجارة، ولا عن المباني الفاخرة، ولا عن حب الموسيقى... بل عن أن بغداد كانت بالنسبة لسكان أقصى أرجاء الإمبراطورية العربية الإسلامية، موئلا للعلم والثقافة أولاً وقبل كل شيء. وكان المسعودي مدينا بمعرفه في الكثير من ميدانين علوم عصره لعلمه الدين ترك العديد منهم آثارا عميقه في الحياة الفكرية لتلك الحقبة... فلتنقل الآن من وصف جمال بغداد وعادات أهلها إلى الحديث عن أبناء زمن المسعودي، وماذا، وكيف، كانوا يتعلمون، وماذا كان يمثل علم الجغرافيا العربي الإسلامي عند حلول القرن العاشر الميلادي، وما هي آراء المسعودي في ميدان الجغرافيا...

الفصل الثاني

نحو ذرا المعرفة

كان الدين في المجتمع العربي الإسلامي، كما في أي من مجتمعات القرون الوسطى، الشكل السائد من بين كافة أشكال الوعي الاجتماعي. ولذا كانت التقوى موضع أكبر التقدير كصفة من صفات الإنسان في ذلك الزمن. وكانت مراكمه المعرف ذات الطابع الديني أحد مظاهر التقوى والإيمان القومي. وأخذت تنشأً منذ العقود الأولى لوفاة الرسول العلوم الإسلامية الدينية التقليدية، أي التفسير والسير والفقه والشريعة. وكان التاريخ أيضاً علماً من العلوم الدينية، إذ أن مادة دراسته هي الأحداث التي وقعت بمشيئة الله، كما يرى المسلمون، في الجماعة الإسلامية، أي دولة الخلافة.

ونتيجة الاحتكاك بالشعوب الأخرى، كالإغريق والبيزنطيين والسورين (السريان) والإيرانيين والهنود، دخلت علوم أخرى حيز اهتمام العرب المسلمين، أي ما عرف بعلوم الأقدمين التي ليست لها علاقة مباشرة بالدين الإسلامي، ومنها على سبيل المثال الفلسفة والرياضيات والمنطق والسيمياء، والجغرافيا التي اشتهر المسعودي في مجالها أكثر ما اشتهر، ولو أنه معروف أيضاً كمؤرخ وأديب كما سبق ذكره.

ولامتلاك ناصية المعرف كان لابد قبل كل شيء من دراسة اللغة العربية دراسة جيدة، فهي لغة القرآن، كتاب المسلمين المقدس. وكان الكثيرون من رعايا الخلافة، وخاصة أولئك الذين تعود أصولهم إلى شبه الجزيرة العربية، يستعملون في حياتهم اليومية اللغة العربية لا في صيغتها الأدبية الرفيعة (الفصحي)، وإنما في صيغتها المحكية التي ينبغي البحث عن منابعها في لهجات قبائل الجزيرة العربية. ولذلك كان لزاماً حتى على الذين كانت العربية لغتهم الأم، أن يبذلوا قصارى جهدهم ليتمكنوا من استخدام هذه اللغة أداة للثقافة العربية الإسلامية. وظل هذا الوضع قائماً في البلدان العربية حتى أيامنا هذه، فما قولك إذن عن رعايا الخلافة الذين حافظوا على هويتهم الإثنية واستمرروا يتكلمون لغاتهم الأصلية كالأسبان مثلاً؟ لقد كان على هؤلاء إن يجدوا، أكثر من غيرهم، لإتقان اللغة العربية التي كانت بلا شك اللغة السائدة في الخلافة.

كان ينبغي على من يود امتلاك المعرف التي راكمتها الحضارة العربية الإسلامية، أن يتعلم ويدرس بجد وصبر طويل.. فكيف كانت تسير عملية التعليم في مدن الخلافة؟ من المهم بالنسبة لنا أن نجد جواباً على هذا السؤال لأن المسعودي حصل على معارفه الواسعة بعد تعلم دام طويلاً.

كان الصبيان يبدأون ارتياح المدرسة (الكتاب) في سن ٦ - ٧ سنوات عادة. والكتاب لا يشبه المدارس التي ألفناها نحن. كان في كل حي من الأحياء، رجل يشتهر بمعرفة القرآن والقدرة على تعليم الصبيان القراءة والكتابة. كان المعلم يجمع الأولاد في مسجد الحي و يجعلهم

يحفظون الحروف العربية عن ظهر قلب، وبعد ذلك يشرعون بقراءة سورة الفاتحة، فيرددون مرات عديدة كجودة واحدة هذه الكلمات المقدسة عند المسلمين ويحفظونها غبياً. وبعد ذلك ينتقل المعلم معهم إلى قراءة وحفظ بقية السور بدءاً من النهاية، لأن سور القرآن مرتبة حسب طول كل منها، فأقصرها هي الأخيرة، وأطولها هي الثانية.

وكان عمل معلم الصبيان يعد عملاً محترماً، والمعلمون أناساً أغبياء تنتصهم الثقافة. وليس من قبيل الصدفة أن يرد في كتاب "ألف ليلة وليلة" أن كل من يعلم الصبيان لا يملك عقلاً سليماً حتى لو كان يعرف كل العلوم. ومن المعروف أن والي الأمويين على العراق الحجاج بن يوسف، العنيف والذكي، (النصف الأول من القرن الثامن الميلادي) غالباً ما غير بأنه كان في شبابه معلم صبيان.

أغلب الظن، أن التردد على الكتاب لم يكن من نصيب المسعودي فهو، على الأرجح، من أسرة وجهاً ميسورة، في حين لم يكن يضطر للقبول بتعليم الكتاب الابتدائي إلا أولاد الحرفيين والتجار البسطاء. ومن المرجح أن المسعودي تعلم القراءة والكتابة في صغره على يدي أبيه أو أحد أقاربه الرجال المقيمين في المنزل. ومن ثم تابع، كما يبدو، تعليمه في المنزل على يدي معلم لقاءً أجر مجز. وهؤلاء المعلمون كانوا يدرّسون أبناء الأسر الميسورة القرآن والتفسير دراسة معمقة، ويطلعونهم على السيرة النبوية والحديث الشريف. ومعهم حفظ الصغار واستوعبوا قصائد الشعراء العرب القدماء الذين عاشوا وأبدعوا في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، وكذلك الشعراء الذين عاصروا النبي محمد، مروراً بشعراء العصر الأموي، ووصولاً إلى شعراء العصر العباسي. إن نقد الشعر

العربي في القرون الوسطى، وهو فرع هام من فروع المعارف التي ازدهرت في الخلافة، لم يكتف بوضع تحقيب دقيق لتطور الشعر وفق المراحل الأساسية للتاريخ السياسي في المجتمع العربي الإسلامي، بل صاغ أيضاً معايير صارمة لتقييم إبداع هذا الشاعر أو ذاك. وما يدل على اهتمام المسعودي العميق بالشعر تلك الاستشهادات الشعرية الكثيرة التي تزدان بها صفحات ما وصلنا من مؤلفاته. ولا نستبعد أن منزل أسرة المسعودي كان يحتوي على مكتبة قيمة، ويكمننا القول بشقة إن الصبي التواقد للمعرفة كان يمضي ساعات طوالاً مع المخطوطات المجلدة. إن آلات الطباعة، كما نعرفها اليوم، لم تكن موجودة بالطبع في العالم العربي الإسلامي آنذاك، ولكن الكتب كانت تنسخ بخط اليد. وتدل المخطوطات التي بقىت حتى أيامنا على أن هذا العمل كان يجري على نطاق واسع جداً بأيدي نساخ محترفين يتلقون أجراً معيناً لقاء ذلك، وعلماء شباب بحاجة إلى المال للعيش وتحصيل العلم. وغالباً ما كان يكلف بنسخ الكتب، وهو عمل رتيب غير يسير، أفراد المجتمع الأكثر حرماناً من الحقوق، أي العبيد والمعتدين حديثاً. وكان نسخ الكتب الدينية والقرآن الكريم خاصة، يعد عملاً خيراً، ولذلك لم يكن من النادر أن يقوم الميسورون بهذا العمل ابتعاه الفوز بثواب الآخرة. أما تجارة الكتب فكانت صنعة مشرفة. وكان في بغداد القرنين التاسع والعشر قرابة مائة دكان للكتب كان أصحابها (الوراقون) يمارسون النسخ في بعض الأحيان. ولو افترضنا أن منزل أسرة المسعودي كان يحتوي على مجاميع من الكتب لما كان ذلك ظاهرة شاذة مطلع القرن العاشر للميلاد، فالملكتبات المنزلية في ذاك الزمان، وخاصة في بغداد، كانت بحوزة

الكثيرين. وبداية هذا العمل النبيل، أي جمع الكتب، في عاصمة الخلافة كانت على يد المنصور مؤسس هذه المدينة. وعندما آلت مكتبة الخليفة بالوراثة إلى المأمون (٨١٣ - ٨٣٣) الابن الثاني لهارون الرشيد، شكلت الأساس الذي قامت عليه تلك المؤسسة العلمية المعروفة باسم "دار الحكمة". وعندما انتقل البلاط في عهد المعتضم إلى سامراء، بقيت المكتبة المعروفة "بخزانة المأمون" في بغداد. وكان في مكتبة الخليفة زمن المسعودي أكثر من مئة ألف مجلد. وللمقارنة نشير إلى أن رصيد أمهات المكتبات في أوروبا ذاك الزمن لم يتعد بضع مئات من المجلدات. أما الشخص الذي يدير شؤون المكتبة فكان يسمى "الوكيل" وبخضوع له الخازن والشرف. وكانت الكتب تصنف في خزانات حسب فروع المعرفة. ولتسهيل البحث عن الكتاب الذي يهم القارئ وضعت فهارس حسب الموضوعات. ومنذ أواخر القرن التاسع انتشرت مكتبات الوقف، أي مجتمع الكتب التي يوصي بها أصحابها لجماعة المسلمين بحيث تكون تحت تصرفهم إلى الأبد، ومثل هذه المكتبات كانت توجد عادة في المساجد.

وعلى غرار "دار الحكمة" ظهر منذ أواسط القرن التاسع بضع مكتبات بنفس الاسم، أسس واحدة منها أبو الحسن علي بن يحيى (توفي عام ٨٨٨ م) أحد المقربين من الخليفة المتوكل. وكان يقدور أي رجل علم يأتي إلى بغداد أن يحصل فيها ليس فقط على الكتب من أجل الدرس، بل وعلى غرفة للإقامة، وبعض المال للمصروف الشخصي. وقد عمل في هذه المكتبة أبو عشر البلخي الذي غدا فيما بعد من مشاهير علماء الفلك والتنجيم، واستشهد المسعودي مراراً بمؤلفه

الأساسي "كتاب الألوف". وكان لدى البعض مجموعات هامة من الكتب لم تأخذ صفة مكتبة عامة للجمهور. وعلى سبيل المثال كان للصولي، صديق المسعودي ولاعب الشطرنج واللغوي الشهير، غرفة مليئة بالكتب التي صنفها حسب المادة وجلدها تجليداً زاهياً. وما لاشك فيه أن مجموعات كتب أقل أهمية كانت عند أشخاص آخرين أقل شهرةً، وثمة احتمال كبير إذن لأن يكون المسعودي قد استعار في طفولته وفتنته الكتب من أصدقاء والده.

وربما كان المسعودي قد وجد وهو فتى، بين ما وجده من كتب والده، مؤلفات أكبر فلاسفة العرب المسلمين في القرن التاسع، أبي يوسف يعقوب بن اسحق الكندي (توفي بين العامين ٨٦٠ - ٨٧٩ م). ومن المؤكد أن المسعودي قد اطلع على مؤلفاته، إذ أنه يستشهد بكتاب من كتب هذا الفيلسوف مخصص لمسألة المد والجزر. والكندي هو أول ممثل للأسطوطالية الشرقية، وقد وضع ما يربو على مائتي مؤلف أغلبها لم يصل إلينا. وذاع صيت الكندي بفضل ملخصاته لمؤلفات بعض الفلاسفة القدماء، وكذلك شروحته على مؤلفات أرسطو وإقليدس وبطليموس.

يبدو أن المسعودي قد اطلع من خلال الكتب على تعاليم أحد رجال العلم الأجلاء، وهو أبو بكر بن محمد بن زكريا الرازى (٩٢٥ - ٩٣٤) الذي قال بخمس بدايات، أو أنس، تشكل العالم هي: الحال والنفس والمادة والزمان والمكان، وأن كل الأديان باطلة، وأن موسى وعيسى ومحمد ليسوا بأنبياء وإنما هم محთالون، خدرموا دون وازع من ضمير، السُّدُجَ من أبناء عصورهم. لابد من القول إن هذه الآراء التي عبر عنها الرازى في أحد مباحثه / رسائله / كانت الأساس الذي قامت عليه

الأهجية اللاتينية القروسطية بعنوان: "المحتالون الثلاثة". ومن المرجح أن المسعودي قد اطلع فيما بعد، وهو في سن النضوج، على أعمال أبي نصر محمد الفارابي (٩٥٠ - ٨٧٠) المكتن بالعلم الثاني لوضعه شروحات تأملية مستفيضة على مؤلفات أرسطو الذي كان يعتبر في الشرق المعلم الأول. وضع الفارابي تعاليمه حول الدولة المثالية في كتابه "المدينة الفاضلة" التي يرأسها ملك فيلسوف، وجمع بين تعاليم أرسطو والأفلاطونية الجديدة محاولاً البرهان على أن الله يخلق العالم عبر جملة من الفيووض، كل فيض منها يتواافق مع "عقل كوني" معين ومجال سماوي معين. والأدنى بين هذه العقول هو "العقل الفاعل" الذي يخضع له "عالم ما تحت القمر" حيث يعيش البشر.

أدرك ذوو المسعودي أن تحصيل تعليم منهجي أمر متعدز من دون الإصغاء إلى الشيوخ الحكماء المتضلعين في مختلف العلوم، والذين كانوا يجلسون يومياً عند أعمدة المساجد الكبرى في بغداد وقد تخلق حولهم تلاميذهم المنصتون بوقار، إذ لم يكن في الشرق الأدنى آنذاك مؤسسات للتعليم العالي بالمعنى الأوروبي لهذه الكلمة. وكان إعطاء الدراسات يعد عملاً شخصياً. وكل تلميذ يطلع في حياته على عدد من مؤلفات معلميه وغيرهم من المترسرين في هذا الميدان أو ذاك من العلوم. وغالبية الشيوخ الذين يلقون دروسهم في مساجد بغداد كانوا مؤلفين وضعوا أعمالاً علمية من نتاجهم. وكانت عملية التعليم تتلخص في أن ينقل المعلم إلى تلاميذه نصوص مؤلفات يعرفها في فرع معين من فروع المعرفة. وكان التلاميذ يقومون تحت إشراف المعلم بدراسة كتاب أو أكثر، وعن كل كتاب يدرسه التلاميذ مع المعلم كان يحصل على وثيقة تشهد

أنه حفظ هذا المؤلف غيباً، ونسخه أيضاً. وبعد أن يستوعب التلميذ مجموعة نصوص يعرفها المعلم في مجال ما، كان بإمكانه الانتقال إلى معلم آخر، أو أن يسافر إلى مدينة أخرى لتابعة تحصيله العلمي. وكانت درجة تضلع هذا الشخص أو ذاك في العلم تقاس بعدد المؤلفات التي درسها ويسمعاً معلمه كذلك. وكانت المعلومات عن الكتب المدرستة تدون على ورقة منفردة أو على نسخ من المؤلفات ذاتها.

كان الإملاء الطريقة السائدة في عملية التعليم. أما اجتماع التلاميذ إلى معلمهم فكان يسمى "المجلس"، حيث يتربع المعلم في ردائِه الشمرين وعمامته البيضاء وسط مستمعيه وقد شكلوا حلقة من حوله. ويبدأ الشيخ درسه بحمد الله والثناء على رسوله. ثم يتلو أحد التلاميذ آيات من القرآن الكريم تعقبها إقامة الصلاة والدعاء لله تعالى أن يمن بالنعمَة على بغداد (أو المدينة التي يجري الدرس فيها)، وأن يعين التلاميذ على استيعاب المعارف الجديدة. وكانت إشارة انتهاء الدرس قول المعلم للتلاميذ "قوموا". وبعد ذلك يصلون ثانية شاكرين الله على إقام درسهم.

كان يتوجب على التلاميذ حضور الدرس في ثياب أنيقة ومتواضعة، ومعهم الورق والمحابر والأقلام (ريش من القصب). وكان من حسن التأدب أن يرتدي التلميذ جلباباً له أكمام عريضة حيث من اللائق والمريح وضع الأوراق. ومن المفهوم طبعاً أن هؤلاء المستمعين أو طلاب العلم، كما كانوا يسمونهم في العالم العربي الإسلامي، كانوا يحيطون بأساتذتهم الشيوخ بكل الاهتمام والتجليل. وإذا ما توفي معلم محبوب كان التلاميذ يكسرن أقلامهم ومحابرهم، ويزقون ثيابهم،

ويخدشون وجوههم. وبهذا المنظر المترافق بأنين شديد كانوا يسيرون في شوارع بغداد كي يتمكن كل سكانها من مشاطرتهم الحزن على معلمهم. أما الشيخ المتعرج الذي لا يستعد للدرس كما يجب، أو يقول للاميذه ما لا يحتاجونه، فوا مصيّبته !! فقد يقاطعونه بصيحات مدوية، وربما يرمونه بالمحابر.

تتلذم المسعودي على كثرين من علماء زمانه من ذاع صيتهم في مختلف ميادين المعرفة، وأبدى اهتماماً كبيراً بدراسة اللغة والأدب، وليس في ذلك ما يدعو للاستغراب، إذ أنه أخذ في سن مبكرة يهتم بالشعر والنشر ويفكر بوضع مؤلف تاريخي جغرافي تكون المعلومات فيه عن جغرافية الأرض وتاريخ الشعوب مسبوكة بصيغة مشوقة. ويدرك من بين أساتذته علماء لغة وأداب مشهورون في أواخر القرن العاشر مثل الواقدي (توفي عام ٩١٨) والزجاج (توفي عام ٩٣٣)، وأبن دريد (توفي عام ٩٣٣) ونقطويه (توفي عام ٩٣٥) وابن الأنباري (توفي عام ٩٣٥) والصولي الذي مر ذكره أعلاه (توفي ٩٤٦).

لم يقتصر اهتمام المسعودي على علم اللغة والأدب، بل تعداه إلى علوم الفقه والكلام، واستمع لمحاضرات مشاهير علم الفقه مطلع القرن العاشر، ومنهم أبو العباس أحمد بن سريح وإبراهيم بن جابر. ومن بين جميع المدارس الفقهية في الإسلام آنذاك كان للمعتزلة التأثير الأكبر على المسعودي، إذ شكل الاعتزال اتجاهًا كبيراً قام، إلى جانب اشتغاله بالفقه الإسلامي، بوضع مذهب تأملي (نظرياني speculative). وكان المعتزلة أول من استخدم طائق الفلسفة والمنطق لشرح وتأويل مبادئ الإسلام وإجلاء العلاقة بين الإله والإنسان. واتخذوا موقفاً مناوئاً

للتشبيه الساذج (خلع الصفات البشرية على الله) في فهم حقيقة الخالق، وكان التشبيه من سمات الاتجاهات المبكرة في الإسلام. وشددوا، خاصة، على أن الله لا يمكن أن تكون له خاصية الكلام، إذ من شأن ذلك، حسب رأيهم، أن ينافق أحد الاعتقادات الأساسية، أي الاعتقاد بوحديانية الله. ولذلك طرح المعتزلة موضوعة فحواها أن القرآن الذي يُعتقد أن الله أنزله على النبي محمد، لم يكن موجوداً منذ الأزل، بل خلق في زمن معين، وأن قدسيّة القرآن لا تكمن في حرفيّة نصه بل في روحه، وبالتالي يجوز تأويله مجازياً. والإنسان عند المعتزلة يملك حرية الإرادة ويتحمل أمام الله مسؤولية تصرفاته، الحسن منها والسيئة.

كان العديد من الخلفاء مؤيدين لأفكار المعتزلة حتى أن المؤمن اتّخذ من الاعتزال إيديولوجياً رسمية له. وفي عهد هذا الخليفة، وعدد من الخلفاء الذين جاؤوا بعده مباشرةً، كانت توجد محكمة خاصة تسمى "المحنة"، حيث يستدعي العلماء لحضور جلساتها للتعبير عن موقفهم من موضوعة خلق القرآن وحرية الإرادة عند الفرد (الإنسان). وكان أولئك الذين لا يوافقون على تأويل المعتزلة لهذه المسائل يتعرضون لعقاب صارم كالإعدام والجلد والنفي والمنع من التدرّيس. وهكذا نرى أن المعتزلة العقلانيين قد تعاملوا بقسوة مع خصومهم الفكريين. ومن المعروف أن المؤمن أرسل أحد المقربين منه إلى الحدود مع بيزنطة لافتداء الأسرى المسلمين، فلم يسمح هذا باحتياز نقطة الحراسة والخلاص من الأسر إلا من أعلن منهم أن القرآن لم يوجد منذ الأزل، بل خلق في زمن معين. أما من تمسك بوجهة النظر المعاكسة، أو لم يقل شيئاً واضحاً نتيجة الخوف، فقد تركه هذا المنافع الغيور عن المعتزلة في أسر

البيزنطيين. ولكن الحال تغيرت في عهد الخليفة المتوكل فأصبح المذهب السنوي مذهب الدولة الرسمي وغداً المعتزلة عرضة للاضطهاد.

ومع اقتراب القرن العاشر خدمت حدة المواجهة بين السنة والمعتزلة، على مستوى الدولة في الأقل، وتحول المعتزلة إلى مجرد مدرسة من المدارس الفقهية التي وصل عددها في بغداد والمدن الكبرى في الخلافة جداً كبيراً جداً. ومن الجلي أن ما استهوي المسعودي في المعتزلة هو قدرتهم السجالية في مجال الفلسفة والكلام والتعبير عن أفكارهم بيسر ووضوح. وكان المسعودي على معرفة بالعديد من مثلي هذا الاتجاه الإسلامي البارزين آنذاك ومنهم الجباعي (توفي عام ٩١٥) والحسن بن موسى التوخي (توفي مطلع القرن العاشر) وابن عبد الجرجاني (توفي مطلع القرن العاشر) وأبو قاسم البلخي الكعبي (توفي عام ٩٣٠) وغيرهم.

أثارت علوم الجغرافيا على ما يبدو أكبر الاهتمام عند المسعودي مذ كان طالباً من طلاب العلم الكثيرين. وثمة ما يجعلنا نعتقد أنه كان على معرفة شخصية بأحد كبار الجغرافيين في النصف الأول من القرن العاشر هو قدامة بن جعفر (توفي عام ٩٤٨). كما أن أعمال الجغرافي والرحالة الشهير في القرن التاسع ابن خرداذبة (توفي عام ٨٨٥) نالت منزلة رفيعة عند المسعودي الذي جسدت مؤلفاته اهتمامه بالجغرافيا. وما دمنا ندرس في كتابنا هذا، كمادة رئيسية، الجوانب الجغرافية في إبداعه والرحلات التي قام بها، نرى من المناسب التطرق إلى ما كان عليه حال علم الجغرافيا العربي في القرون الوسطى، والمسار الذي قطعه في تطوره قبل أن يتمكن المسعودي من أسس هذا العلم، ومن ثم الإسهام بقسط هام فيه.

عاش المسعودي ونشأ كعالماً في زمن بدأت الجغرافيا تلعب فيه دوراً هاماً جداً في حياة الدولة العربية الإسلامية الثقافية والسياسية. ويعد أحد أسباب ذلك إلى اشتداد النزاعات المركزية في الدولة بداية الأمر، بعد انتقال الحكم في الخلافة إلى سلالة جديدة، إذ حاول العباسيون أن يفرضوا بشتى الوسائل سيطرتهم الشخصية على الأقاليم التي يديرها الولاة. ومن أجل ذلك كان ضرورياً لهم، ولن يحيط بهم، الحصول على معلومات دقيقة عن الموقع والسكان والخصائص الطبيعية والثروات الباطنية لتلك البلدان الخاضعة لحكم الدولة العربية الإسلامية. لقد كانت دولة الخلافة إحدى أكبر الدول العظمى في القرون الوسطى، وتبينت علاقاتها مع الجيران، فكانت حاجتها ماسة إلى معلومات عن هؤلاء الجيران. وأسفر انتقال العاصمة إلى بغداد عن تعاظم دور التجارة البحرية، وتعزيز العلاقات مع البلدان الواقعة على شواطئ المحيط الهندي، وبالتالي إلى تنامي المدن الساحلية على الخليج العربي الذي اشتهر سكانه منذ القدم كبحارة بارعين. ولقد زاد حجم التجارة المتنامي في القرنين التاسع والعشر من الطلب على المؤلفات الجغرافية التي تتحدث عن الرحلات البحرية والبلدان الغريبة ما وراء البحار. تلكم هي إذن الأسباب التي كانت وراء ازدهار علوم الجغرافيا العربية على مشارف القرن العاشر.

ظهرت التصورات والمهارات في ميدان الجغرافيا عند العرب قبل الإسلام بزمن طويل، أي عندما كانوا يعيشون في شبه الجزيرة العربية بعزلة ما عن بقية العالم. غالباً ما يوصف الجمل بأنه "سفينة الصحراء"، أما السفر عبر

رمال شبه الجزيرة العربية فيقارن برکوب البحر. وهناك نكتة مشهورة عن مستعرب أوروبي كان يقرأ قصيدة من الشعر العربي القديم فظن أن وصف سير قافلة من الجمال هو حديث عن نزهة في البحر. كان الأعراب البدو، سكان المناطق الداخلية لشبه الجزيرة العربية، بحاجة إلى معلومات جغرافية عملية قدر حاجة البحارة لها، فغالباً ما كان البدو يتنقلون من مكان إلى آخر بحثاً عن المرعى مما جعل القدرة على الاهتداء والتوجه الصحيح أمراً في غاية الضرورة. ولم يقتصر العرب على معرفة جغرافية شبه الجزيرة العربية أحسن المعرفة (وهذا ما تؤكده معطيات الشعر العربي قبل الإسلام) بل كانوا على معرفة حسنة أيضاً بتحديد الطرق حسب الشمس والقمر والنجوم. وكانوا يعتقدون أن حلول الطقس المؤاتي أو غير المؤاتي لممارسة أعمالهم مرتبطة بأفول أو بزوغ نجوم معينة. وأطلق البدو على وضع النجوم المتعلق بحالة الطقس المستقرة مصطلح "النوس". أما البلدان الواقعة خارج شبه الجزيرة العربية فلم يكن عند عرب الجزيرة أكثر من تصور غامض عنها، ولكنهم كانوا على علم بوجود النهرين العظيمين في بلاد الرافدين، دجلة والفرات، وكانوا يعرفون أيضاً أسماء بعض الشعوب المجاورة لهم كالروم والفرس والترك.

يسرت الفتوحات العربية الإسلامية وقيام دولة عظمى عالمية جديدة توسيع المعارف الجغرافية عند العرب، إذ تعرفوا على العديد من البلدان والشعوب الجديدة. وعلى هذا الأساس نشأ عند العرب نوع جديد من الأدب الجغرافي شاع في بداية الأمر شفوياً، ويسمى "الفضائل"، وهي أخبار بصيغة نثرية مقفاة (سجع) تتحدث عن مزايا أو عيوب هذا أو ذاك من البلدان والشعوب. وقد دون المسعودي بعضاً من النماذج الفريدة

لهذا النوع في مؤلفه " مروج الذهب " ، وله يعود الفضل في وصوله إلينا . وعلى سبيل المثال ، وكما يقول المسعودي ، فإن أحد الحكماء وصف مصر ونيلها على النحو التالي :

مصر ، ومصر شأنها عجيب

ونيلها تجري به الجنوب

وفي قول مؤثر آخر جاء على لسان أحد الحكماء : أن مصر " ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء ، وثلاثة أشهر مسكة سوداء ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء ، وثلاثة أشهر سبكة ذهبية حمرة ". وللأحنف بن قيس قول في فضائل البصرة جاء فيه " أما البصرة فإن أسفلها قصب ، وأوسطها خشب ، وأعلاها رطب ، نحن أكثر ساجاً وعاجاً وديباجاً ، ونحن أكثر قنداً ونقداً ، والله ما آتي البصرة إلا طائعاً ، ولا أخرج منها إلا كارهاً .. "

توفرت لدى العرب منذ مطلع القرن الثامن خرائط جغرافية . ومن المعروف أن والي الأمورين على العراق الحجاج بن يوسف أمر قائده جنده قتيبة بن مسلم الذي قاد حملات عديدة في آسيا الوسطى التي سماها العرب بلاد ما وراء النهر ، أن يرسل له خريطة جغرافية لمنطقة بخارى ، واعتماداً عليها أعطى الحجاج توجيهاته لفتح هذه المدينة .

سعى العباسيون لإحياء التقاليد الثقافية في إيران ما قبل الإسلام ، وانتشرت في الوسط الثقافي العربي الإسلامي معلومات جغرافية مأخوذة عن الإيرانيين . ومحاكاًًةً للملوك إيران الساسانيين اتخذ العباسيون فلكيين في البلاط يتتبّعون بمستقبل الخلفاء اعتماداً على وضع النجوم والكواكب في السماء . وكان الهنود مشهورين أيضاً بعلم الفلك منذ القدم . وتقول الوثائق العربية إن المنصور استقبل وفداً هندياً كان ضمنه

عالم اسمه مانكا أو كانكا، أحضر معه مبحثاً في الفلك سماه العرب "كتاب السند هند". وبالرغم من أن نص هذه الرسالة - المبحث لم يصلنا، فقد تمكن المستعربون من إثبات أنها تعود إلى الكتاب الشهير في الجغرافيا والفلك "براماسبوتا سيدانتا" الذي وضعه براهما بوترا في العام ٦٢٣. ولقد سادت المعارف المأخوذة عن الهند في أواسط العلامة، العرب المسلمين حتى عهد الخليفة المأمون الذي غلب في أيامه التقاليد الجغرافية القديمة (الإغريقية والرومانية).

أثر الفكر الهندي في العالم العربي الإسلامي عبر الفكر الجغرافي الإيراني الذي كان بدوره متأثراً بعلم الفلك والجغرافيا الهندي. ومن الآثار التي حظيت بشعبية كبيرة في دولة الخلافة الرسالة المعروفة باسم "زير الشاه" أي "جداول الشاه" ، وهي الصيغة العربية للمؤلف الفارسي "زيكي شاتروبار" الذي وضع في عهد آخر الملوك الساسانيين الفرس بزدرجد الثالث (٦٣٢ - ٦٥١) .

أخذ النظام الجغرافي الإغريقي ينتشر انتشاراً واسعاً مزرياً بذلك النظامين الإيراني والهندي منذ مطلع القرن التاسع. وفي أواسط هذا القرن غداً النظام السائد. وكان تفوق النظام الإغريقي على النظامين الآخرين يكمن في أنه، خلافاً لكتلتيهما، لم يتصرف بطابع تطبيقي محض، بل وبطابع نظري أيضاً. ولقد لعبت دار الحكمة التي أسسها هارون الرشيد ووسعها ابنه المأمون من بعده، دوراً كبيراً في انتشار النظام الجغرافي الإغريقي. وبإشراف هذه المؤسسة العلمية ترجمت إلى اللغة العربية مؤلفات العديد من الجغرافيين الإغريق ونالت أعمال العالم بطليموس الإسكندراني (القرن الثاني للميلاد) أكبر شهرة. ومن أعماله

الرسالة الفلكية في ثلاثة عشر كتاباً، أو "المجموعة الكبرى" ومؤلفه الجغرافي "دليل الجغرافي" أو كما يسمى أيضاً "الجغرافيا". أطلق العرب تسمية "المجموعة الكبرى" على "المجسطي" تعبيراً منهم عن التقدير الخاص لهذا المؤلف الأساسي الذي وضعه الجغرافي الإغريقي الكبير بطليموس.

جرت في عهد المأمون، عام ٨٢٧ م محاولة لقياس درجات طول الكرة الأرضية. وفي آخر القرن التاسع عشر بين المستعرب الإيطالي نالينو والرياضي الألماني شوي أن علماء الفلك العرب لم يخطئوا في عملهم هذا إلا بمقدار كيلومتر واحد، وأن السبب في عدم الدقة هذه يمكن في عيوب أدوات القياس، هذا في حين لم تجرب في أوروبا محاولات لقياس درجات طول الأرض إلا في القرنين السادس عشر والثامن عشر. أما المعلومات التي حصل عليها علماء الفلك العرب المسلمين فقد استخدمت في أوروبا على نطاق واسع في القرون الوسطى وعصر النهضة. وبما بفضل ذلك تم اكتشاف أمريكا على يد كولومبس. فالعلماء العرب قدروا درجة الطول الواحدة بستة وخمسين ميلاً عربياً وثلثي الميل، واعتقد كولومبس أن القياس جرى بالميل الإيطالي الذي يقل بثلاثمائة وأربعة وثمانين متراً عن الميل العربي البالغ ألفي متر. ولهذا السبب، ووفقاً لحسابات هذا البحار العظيم، كانت المسافة المقدرة بين أوروبا وآسيا التي قصدها أقل بكثير مما هي في الواقع. ولذلك ربما انطلق كولومبوس بتلك الشجاعة للبحث عن طريق بحري نحو الهند.

تأسس في عهد المأمون مرصدان فلكيان، الأول في حي الشماسية في بغداد، والثاني على جبل قاسيون قرب دمشق. وأجريت في هذين

المرصددين عمليات رصد منتظمة شكلت الأساس لوضع "الزير المأموني المترagen". ومن الواضح أن هذه الفترة على وجه التقرير شهدت وضع "خريطة المأمون" أو "الصورة المأمونية" كما يسميها المسعودي، والتي شاهدها على أغلب الظن في دار الحكمة ببغداد. وجاء على لسان المسعودي أن حكماء عهد المأمون قد ساهموا في العمل لوضع هذه الخريطة التي رسمت عليها الدنيا بسمواواتها ونحوها، وبحورها وياستها، وأصناعها المأهولة وغير المأهولة، ومواطن شعوبها، ومدنها وغير ذلك. وهذه الخريطة أفضل من الخرائط الموجودة في مؤلفات بطليموس ومارين (مطلع القرن الثاني للميلاد). ومع أن المسعودي يشير إلى أفضلية "الصورة المأمونية" قياساً بخرائط الجغرافيين القدماء فهي تعود بأصلها إلى هذه الخرائط بالذات. ولكن هذه الخريطة ربما كانت بالنسبة للمأمون رمزاً للسيادة العالمية التي كانت فكرتها حافزاً ملهمأً لوضع خرائط من هذا النوع للملوك إيران الساسانيين.

عاش وأبدع في القرن التاسع العديد من الجغرافيين المسلمين البارزين، منهم الرياضي الكبير الخوارزمي الذي ربما خدم في دار الحكمة ووضع مؤلفاً عن الجغرافيا الرياضية سماه "كتاب صورة الأرض". وهذا الكتاب مجموعة من الجداول تثبت أسماء و مواقع ٥٣٧ من أهم المدن والجبال والأنهار. بنى الخوارزمي عمله هذا على قاعدة من مؤلفات بطليموس، لكنه أضاف فيه مادة تتعلق بالشرين الأدنى والأوسط وأدخل عليه عدداً من التعديلات.

أما الكندي الفيلسوف الشهير الذي اطلع المسعودي على أعماله أحسن اطلاع، فقد ساهم في تأليف واحدة من أولى المعالجات باللغة

العربية المؤلفات بطليموس. ويبدو أن الكلندي قد وضع دون أن يكون بنائى عن تأثير هذا الجغرافي الإغريقي العظيم، مؤلفاً سماه "رسوم المعمور من الأرض". وانتشرت على نطاق واسع أيضاً جداول البطانى، الجغرافي والفلكي الذى قام بعمليات الرصد في مدينة الرقة السورية. وترجمت رسالة البطانى هذه إلى اللغة اللاتينية عام ١١٤٠ على يد أفلاطون التيفولي، فذاعت بعد ذلك شهرته في أوروبا القرون الوسطى تحت اسم الباطيغينوس. ويتضمن الفصل السادس من رسالة البطانى وصفاً للكرة الأرضية يعود في أصوله إلى نظام بطليموس. وقد استوعب المسعودي وجغرافيون آخرون في فترات لاحقة هذا الوصف، بل إن المسعودي نقله في فصول الجغرافيا العامة من مؤلفيه "مروج الذهب" و"التنبيه والإشراف".

إذا كان علم وصف الأرض قد تابع تطوره عند المسلمين في القرن الثامن والنصف الأول من القرن التاسع، في اتجاه الجغرافيا الرياضية، فقد أخذ بالنشوء اتجاه جديد في القرن التاسع هو الجغرافيا الوصفية. ولعل من الطريق أن نشير إلى أن علماء اللغة والأدب، وليس الجغرافيون، هم من كانوا البادئين في الاستغلال بالجغرافيا الوصفية. والنوع الأبكر في هذا الميدان هو كتب عن منازل القمر تضمنت تنبؤات البدو العرب عن الأحوال الجوية. وبعد وقت قصير بدأ وضع المؤلفات التي تصف أماكن مختلفة من شبه الجزيرة العربية وتوضح تسميات مصارب البدو. وكانت مادة هذه المؤلفات عوناً لسكان المدن العربية الإسلامية للوصول إلى فهم أفضل لما تضمنه من وقائع وأسماء شعر الجاهلية العربية ومعلقاتها التي بقيت على مدى العصور الوسطى نماذج

من الإبداع الشعري لا تصاهي في نظر هؤلاء السكان الذين يعود
كثيرون منهم بأصول نسبهم إلى بدو هاجروا من الجزيرة العربية، ثم
بحلول أواسط القرن التاسع كان هؤلاء البدو الأحفاد قد نسوا تماماً فنط
حياة البداوة. ووضع مؤلفات من هذا النوع أدباء ولغويون بارزون أمثال
هشام بن الكلبي (توفي عام ٨٢٠ م)، والأصمعي (توفي حوالي
٨٣١ م) وابن الأصبغ (توفي حوالي ٨٤٥ م) وابن لغزة الأصفهاني
(توفي حوالي ٨٩٥ م). وبعد ذلك أخذ العلماء المسلمين بوضع مؤلفات
تناولت أراضي تقع خارج حدود شبه الجزيرة العربية.

اتصفت أعمال الجاحظ، الكاتب والعالم العربي الشهير (توفي عام
٨٦٩ م)، بأهمية كبيرة بالنسبة لتطور الجغرافيا الوصفية عند المسلمين.
ونجد معلومات غنية في الجغرافيا والأنثروبولوجيا وعلم الحيوان في
مؤلفه "كتاب الحيوان" ذي الطابع الجغرافي على وجه الخصوص.
وللجاحظ أيضاً يعود مؤلف جغرافي آخر لم يصلنا، هو "كتاب الأمصار
وعجائب البلدان"، وكذلك أول مؤلف في الجغرافيا العربية الإسلامية
يتطرق إلى موضوع تصدير واستيراد السلع في دولة الخلافة، وهو بعنوان
"التبصر بالتجارة".

وفي النصف الثاني من القرن التاسع أخذ يتبلور نوع جديد من
الجغرافيا الوصفية هو "كتب المسالك والممالك" التي تحوي معلومات
شتى عن الأصقاع التي ساد فيها الإسلام. وأول مؤلف من هذا النوع
ووضعه أبو العباس جعفر بن أحمد المروزي (توفي عام ٨٨٧ م). وفي
الفترة نفسها تقريراً وضع مؤلفاً آخر من هذا النوع أحمد بن محمد بن
الطيب السرخسي (توفي عام ٨٩٩) وهو تلميذ الفيلسوف الكندي.

ولم يقتصر عمل السرخي الذي كثيراً ما يستشهد به المسعودي، على مجال الجغرافيا الوصفية بل تعداده إلى ميدان الجغرافيا الرياضية، فكتب رسالة عن البحار والمياه والجبال. وما يدعو للأسف الشديد أن أعمال المروزي والسرخي لم تصل إلينا.

إن أول مؤلف من نوع "المسالك والممالك" يصل إلينا بالكامل كان من وضع ابن خرداذبة الفارسي الأصل (توفي عام ٩١٢ م). يبدأ هذا الكتاب بوصف شكل الأرض كما كان يتصورها الجغرافيون المسلمين بناءً على المعلومات التي ورثوها عن بطليموس. ويصف هذا الكتاب الطرق المتعددة من شمال بغداد حتى آسيا الوسطى، ومن ثم الطرق المتعددة من جنوب العاصمة حتى الهند، ويقدم معلومات عن الضرائب التي يدفعها السكان.

وكان من معاصرى ابن خرداذبة مؤرخ وجغرافي كبير هو اليعقوبي (توفي عام ٨٩٧ م)، وكان من أسرة موظفين ببغدادية. وقد شغلت الأسفار جزءاً غير يسير من حياة اليعقوبي، فأقام بضع سنوات في أرمينيا، وخراسان، ومصر، والمغرب، وزار الهند وفلسطين. ووصل إلينا من مؤلفاته اثنان: الأول بعنوان "التاريخ" ويتضمن مادة غنية تتعدى جغرافية دولة الخلافة العربية الإسلامية لتشمل تاريخ العديد من الشعوب كالصينيين والهنود والروماني والإغريق والبيزنطيين. وهذه المادة لم يتطرق إليها المؤرخون المسلمين في مدوناتهم عن تاريخ العالم قبل اليعقوبي. لقد وسع اليعقوبي، إذن إطار المادة التاريخية (مادة التاريخ) المعروفة عند المسلمين. ويقتفي المسعودي في هذا المجال أثر اليعقوبي، إذ يضمن مؤلفاته التاريخية مادة تاريخية جغرافية واسعة جداً. أما

مؤلف اليعقوبي الثاني فهو "كتاب البلدان" الذي يشغل وصف بغداد وسامراء، حيزاً هاماً فيه. أما بقية مادته فتنقسم حسب الأقاليم إلى أربعة أقسام هي:

- إيران وأسيا الوسطى وأفغانستان.

- العراق وشبه الجزيرة العربية.

- الهند والصين.

- بيزنطة وسوريا ومصر والنوبة وشمال أفريقيا.

والتزاماً بتقاليد "المسالك والممالك" يولي اليعقوبي الكثير من الاهتمام لوصف الطرق الممتدة عبر البلدان التي يتحدث عنها، ويورد معلومات هامة في مجال الطبوغرافيا والأتوغرافيا والحياة الاقتصادية لهذه البلدان.

وشاع في القرنين التاسع والعشر ما يسمى "بالمدرسة التقليدية للجغرافيا العربية"، التي تطورت في مجرى تقاليد كتب "المسالك والممالك". وركز ممثلو هذا التيار اهتمامهم على دراسة مناطق ديار الإسلام، وانطلقوا من مواقف دينية في وصفهم. واعتمدت مؤلفات هذا التيار على مجموعة مميزة ثابتة من الخرائط تتألف من ٢١ خريطة هي: "خريطة العالم الدائرية"، وخرائط الجزيرة العربية والبحر الفارسي والمغرب ومصر وسوريا وبحر الروم، إضافة إلى ١٤ خريطة للجزأين الأوسط والشرقي من المنطقة التي انتشر فيها الإسلام.

ويعد أبو زيد أحمد بن سهل البلخي مؤسس "المدرسة التقليدية للجغرافيا العربية". وقد ولد البلخي في إقليم بلخ الإيراني، ويعتقد به للدلالة على مكان ولادته. وضع البلخي قرابة ستين مؤلفاً، وقبيل وفاته

وضع رسالة أخرى تحمل عناوين مختلفة: "صور الأقاليم"، "أشكال البلاد" أو "تقويم البلدان"، علماً بأن هذه الرسالة في صيغتها المتأخرة التي وصلتنا، أرست أسس مدرسة جديدة. وكان أبو إسحق الأصطخري، معاصر المسعودي، والذي يعود بنسبة إلى وسط إيران، أحد الممثلين الكبار لهذا الاتجاه. تنقل الأصطخري بين بلاد ما وراء النهر، وإيران، والجزيرة العربية، وسوريا، ومصر.. ووضع مؤلفاً يعد ثمرة رحلاته هذه أطلق عليه، كما الكثيرين من أسلافه، "كتاب المسالك والدول" إجلالاً لهذا التقليد الذي ترسخ قبل زمنه بستين عديدة.

تابع قضية الأصطخري واحد من معاصرى المسعودي الشباب، هو أبو القاسم بن حوقل النصبي الذي انطلق من بغداد في رحلة حول العالم في شهر أيار / مايو ٩٤٣ م. وبعد عودته من رحلاته التي استغرقت العديد من السنين وزار خلالها أفريقيا الشمالية والوسطى والأندلس وإيطاليا، تعرف ابن حوقل حوالي ٩٥٢ - ٩٥١ بالاصطخري الذي أسهم في بعث الاهتمام لديه بعلوم الجغرافيا. وبعد وفاة المسعودي حوالي ٩٧٧ - ٩٦٧ م وضع ابن حوقل مؤلفاً حمل عنوان رسالة الأصطخري، أي "كتاب المسالك والبلدان". وكتب بصورة رئيسية عن المناطق الإسلامية مدققاً ومصححاً العديد من المعلومات الواردة عند الأصطخري.

أما أعمال الجغرافي البارز في النصف الأول من القرن العاشر قدامة ابن جعفر، فلا تنتمي إلى المدرسة التقليدية للجغرافيا العربية. وحوالي العام ٩٢٨ م وضع دليلاً موجزاً للموظفين بعنوان "كتاب الخراج وصنعة الكتابة" لم يصلنا كاملاً. ويولى ابن جعفر في عمله هذا أكبر اهتمام لوصف خطوط سير البريد، ووصف أقاليم الدول العربية الإسلامية، ويعرض باختصار تاريخ فتحها على أيدي العرب المسلمين.

وظهرت إلى جانب المؤلفات ذات الطابع العام في القرنين التاسع والعشر أعمال في الجغرافيا الإقليمية (المحلية) مخصصة لوصف منطقة معينة من مناطق الخلافة. ومن أبرز الآثار التي تركها هذا الاتجاه كتاب "صفات جزيرة العرب" للحمداني المولود في اليمن. ولا يقتصر مضمون هذا الوصف على مادة محض جغرافية بل يتعداها إلى معلومات عن تاريخ القبائل العربية وأنسابها. وألف الحمداني أيضاً كتاب "الإكليل" المكرس لوصف اليمن ضمنه مشاهداته الشخصية عن حياة موطنه.

ظهر في الأدبيات الجغرافية العربية الإسلامية أواخر القرن العاشر اتجاه آخر هو المؤلفات ذات الطابع الشعبي الأدبي، وتعود أصوله إلى التقاليد الإبداعية عند الجاحظ. ومن أكثر الأعمال شهرة في هذا الاتجاه "كتاب البلدان" لمؤلفه ابن الفقيه الحمداني الذي وضعه حوالي العام ٩٠٣م، ويتضمن غير قليل من النوادر والقصص المسلية فضلاً عن المعلومات الجغرافية العادية.

وفي الفترة نفسها تقرباً يضع أبو علي أحمد بن عمر بن رrostه الفارسي الأصل مؤلفاً موسوعياً مستفيضاً بعنوان "الأعلاق النفيسة" لم يصلنا كاماً. وما وصل منه هو الأجزاء التي تبحث في الجغرافيا وعلم الفلك. يفتتح ابن رrostه بحثه الجغرافي بعرض مبادئ الجغرافيا الرياضية استناداً إلى مؤلفات ابن خرداذبة ويتبعه بوصف المدينتين المقدستين عند المسلمين مكة المكرمة والمدينة المنورة، والبحار المعروفة للعرب المسلمين، وبلدان أخرى. ويعير ابن رrostه اهتماماً كبيراً لموطن أجداده إيران، ولليمن وعاصمتها صنعاء. ولقد صاغ كتابه هذا، شأنه شأن ابن الفقيه، بأسلوب مشوق.

ويدرج في هذا التيار إبداع وزير سلالة حكام بخارى السامانيين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن نصر الجيهاني الذى وضع في الفترة من ٩٠٧-٨٩٢ م مؤلفاً في الجغرافيا لم يصل إلينا . وكان الجيهاني يتمتع بشهرة كبيرة في الشرقين الأدنى والأوسط في القرون الوسطى . ويصف المسعودي كتاب الوزير الساماني على النحو التالي : "... وكذلك أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني وزير نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد بن أسد صاحب خراسان ، ألف كتاباً في صفة العالم وأخباره وما فيه من العجائب والمدن والأمسار والبحار والأمم ومساكنهم وغير ذلك من الأخبار العجيبة والقصص الظرفية ...". وفضلاً عن وصف المناطق الواقعه تحت سلطة الخليفة تضمن كتاب الجيهاني ، على أغلب الظن ، وصفاً لمناطق بقية غربية عن الإسلام . وفي هذا الشأن تابع المسعودي تقاليد الجيهاني فتحدث عن العديد من البلدان والشعوب التي كانت خارج نفوذ الخلافة السياسية والثقافية . وما لا شك فيه أن المؤلف الأساسي من مؤلفات المسعودي التي وصلتنا أي "مروج الذهب" ينتمي إلى الاتجاه الشعبي الأدبي في الجغرافيا العربية الإسلامية ، إذ ينطوي على كثير من النوادر والقصص الظرفية .

تلكم هي إذن الحصيلة الأساسية لعلوم الجغرافيا في العالم العربي الإسلامي إبان الفترة التي شهدت دخول المسعودي مرحلة النضوج العلمي وبداية وضع مؤلفاته الخاصة . ويتبعنا علينا الآن النظر في آرائه الجغرافية .

يقدم المسعودي عرضاً للمسائل الجغرافية في مقدمة مؤلفاته . ولكنه يعبر أولاً عن آرائه في مسألة أصل العالم وتطوره وفقاً لآراء المسلمين ،

ويقول إن الله خلق العالم من العدم. وفي حين ذاته يحاول المسعودي، وهو الذي على قدر كبير من المعرفة، توكيد الحجة القرآنية حول نشوء الكون بحجج فلسفية الطابع، إذ يقول إن كل الأشياء لها بداية بما في ذلك العالم، وأن بداية العالم هي الله، خالق الكون. وطالما أن للكون بداية، هي فعل الخلق الإلهي، فإن نهايةه حتمية. والمسعودي في هذا الصدد متشارئ كبير، فهو يرى أن نهاية الدنيا ستحل بعد سبعة آلاف عام من خلقها. ووفقاً لحسابات المسعودي يكون قد مرَّ منذ آدم وحتى العام ٩٤٣ ميلادية ٥١٥٦ عاماً، وبالتالي فقد انقضى الجزء الأكبر والأفضل من الحياة على الأرض. ومن وجهة نظره فإن الدليل على اقتراب نهاية العالم هو التناقص الواضح لعمر البشر وتقلص حجوم أبدانهم؛ ففي القديم، يقول المسعودي، كان البشر يعيشون عمراً أطول، وكانوا أطول قامة. وما لاشك فيه أن هذا الموقف متأثر بشكل واضح بالوعي الملحمي الذي تعود جذوره إلى مرحلة العشيرة والقبيلة، ففي ذاك الزمن كان من خصائص كل شعب ابتداع قصص وأساطير عن "عصر ذهبي" مغرق في القدم كان الناس فيه يعيشون حياة أطول وأهناً وخلوًأ من الأمراض، وكانتوا في ذلك العصر طوال القامات وذوي قوة بدنية جبارة. وإذا ننتقل إلى عرض آراء المسعودي إزاء مسائل الجغرافيا العامة لا مفر من الإشارة إلى أن هذه الآراء، بشكل عام، ترجع إلى رواية بطليموس كما عرضها البطاني، عالم الفلك المعروف الذي مررنا على ذكره أعلاه، كما أنها تعود إلى رسالة الفلكي والجغرافي الإغريقي مارين الصوري (مطلع القرن الثاني للميلاد) فترجمت إلى اللغة العربية، ولكن نصها اليوناني لم يصلنا.

وهكذا نرى أن الأرض، وفقاً للمسعودي، تقع في مركز الكون، وهي عبارة عن كرة تدور حولها الشمس والقمر والنجوم. ويقول المسعودي إن الله قسم الأرض إلى قسمين كبيرين: شرق - جنوب، وشمال - غرب. فالقسم الأول يضيق فيض من أشعة الشمس فيعمه الدفء، بينما الشمس بعيدة عن القسم الثاني فيعمه البرد. كما أن الأرض أربعة أرباع متساوية: شرقي وغربي وشمالي وجنوبي، فالذين يعيشون في الربع الشرقي من العالم يتمتعون بطول العمر والرجولة والإباء والانفتاح، بل أن فترات حكم الملوك هنا أطول مما في الأماكن الأخرى، والفضل في ذلك كله يعود إلى أن ربع الأرض الشرقي يقع تحت تأثير الشمس. أما القسم الثاني الغربي فيقع تحت تأثير غالب القمر والنجوم، ولهذا يتصرف سكانه بالانغلاق والتدبر. أما سكان الربع الشمالي فيتصفون بقامات فارعة وبشرة بيضاء وطباع لينة. وهناك أخيراً الربع الجنوبي حيث يعيش بشر سود البشرة بعد الشعور.

والمسعودي، كغيره من الجغرافيين المسلمين الذين ورثوا عن قدماء الإغريق معتقداتهم الجغرافية العامة، افترض أن العضويات الحية لا تعيش إلا في الجزء الأوسط من الأرض الذي أطلق عليه جغرافيوا الإغريق تسمية "إيكومينا" أي "المعمورة". والأرض في اعتقاد المسعودي غير مأهولة في شمالها الأقصى ولا في جنوبها الأقصى، وأن جزيرة أسمها "تولي" (يبدو أنها الجزر البريطانية) هي حد المعمورة من الشمال. أما حدتها من الشرق فهو، كما يرى المسعودي، جدار خرافي يُزعَم أن الإسكندر المقدوني (ذا القرنين) هو الذي شيده، ويفصل شعوب ياجوج وماجوج عن بقية العالم. ويحد المعمورة من الغرب المحيط. ووراء

حدود المعهودة لا وجود للحياة إما بسبب الحر الشديد وإما بسبب البرد الشديد. وسيراً على خطى سابقيه من الإغريق وال المسلمين يقسم المسعودي الأرض إلى سبعة مناخات، أو مناطق مناخية، أكثرها اعتدالاً، وبالتالي ملائمة لحياة البشر، هو المناخ الرابع الذي يسميه أيضاً مناخ بابل. وفي الوسط من هذا الإقليم المناخي يقع موطن المسعودي، أي العراق الذي يستنشق سكانه أنقى هواء ويشربون أذب ما، ويزرعون أخصب أرض، ولذلك تشكلت في المنطقة المعتدلة أنساب ظروف لتطور الحضارة. بل إن هبة النبوة (القدرة على التوسط بين الله والبشر) لا تفتح إلا لأناس في المناخ الرابع حسبما يرى المسعودي.

ويضيف المسعودي قوله تعززه هيبة هيبيوقراط (٤٦٠ - ٣٧٧ ق.م) وفحواه أن المناخ يؤثر تأثيراً حاسماً على الموصفات الفيزيائية للنبات والحيوان والإنسان، فالريح الجنوبية تحمل رطوبة تفعل في عضوية الإنسان فعل الاسترخاء، في حين أن الريح الشمالية تعزز القوى البدنية والذهنية عند الإنسان. ويرى هيبيوقراط أن الدفء والرطوبة يضاعفان مقاييس (حجوم) العضويات الحية. وحسب رأيه الذي يورده المسعودي أيضاً، ثمة بلد في مكان ما من الجنوب يبلغ فيه الإنسان والحيوان والنبات أحجاماً كبيرة جداً. ومناخ المكان يساعد في تكوين خواص فизيانية (بدنية) ثابتة عند السكان، وخاصة لون الجلد والشعر. ويعتقد المسعودي أن الأتراك والمصريين يتمتعون بصفات بدنية متشابهة لأنهم يعيشون في ظروف مناخية متشابهة. والمناخ لا يقتصر تأثيره على أجسام البشر، بل يتعداها إلى عالمهم الداخلي. كما أن تغيرات المجال الجوي تساعده في تغير أمزجة البشر لأن النفس متعلقة بالبدن والبدن بالطقس".

تشكل مياه المحيط كما هو معروف الجزء الأكبر من سطح الأرض. وكانت الملاحة زمن المسعودي وسيلة المواصلات الأساسية بين البلدان المتباude، ولذا كان من الطبيعي أن يبدي المسعودي اهتماماً ملحوظاً بوصف البحار التي يعدد منها ستة هي: البحر الحبشي (المحيط الهندي) وبحر الروم (المتوسط) وبحر بونطس (البحر الأسود الذي أسماه الإغريق القدماء (بونت) وببحر مايوتس(بحر آزوف - سبخة مايوت عند قدماء الإغريق) وب البحر الخزر (بحر قزوين) والمحيط (أو البحر الأخضر). يورد المسعودي عند الحديث عن أصل البحار ثلات وجهات نظر التزم بها الجغرافيون الإغريق وال المسلمين إذ كان يفترض بعض منهم أن البحار هي أجزاء من المحيط، ورأى آخرون أنها عروق الأرض، واعتقد قسم ثالث أن أبخرة الأرض هي التي أنشأت البحار. ويلتزم المسعودي وجهة النظر الأولى الأكثر معقولية، ويؤكد أن البحار كلها عبارة عن تفرعات للمحيط.

يرى المسعودي أن المد والجزر يشكلان الصفة الأهم للبحار. وبناء على ذلك يقدم ثلاثة أنماط للبحار هي: بحار ذات مد وجزر معتبرين، وبحار ذات مد وجزر غير معتبرين، وأخرى بلا مد وجزر. وأنواع المد يقع على شاطئ الهند، وكذلك في المكان الواقع بين البصرة (جنوب العراق) ومناء الأهواز الإيراني. وقد شاهد المسعودي في الهند كلبا يفر أمام المياه التي يتعالى منسوبها... فالمد إذن شديد هناك. وفي معرض شرحه لأسباب المد والجزر يورد وجهات نظر سابقيه القائلة بأن منسوب المياه يرتفع وينخفض بسبب جاذبية القمر، والمد والجزر يحدثان بتأثير أبخرة البحر، وأسباب المد والجزر تشبه أسباب تدفق الدم والمادة

الصفراوية في جسم الإنسان، وحركة الهواء أي الرياح، تسبب المد والجزر، وأخيراً فإن سبب هذه الظاهرة عصي على التفسير ولا يعلمه إلا الله. ويرى المسعودي أن من أسباب ضعف، أو انعدام المد والجزر ارتفاع نسبة الملوحة في الماء، وبعد هذا البحر أو ذاك عن القمر، وكذلك التذبذبات الأرضية. ويبدو أن المسعودي نفسه كان يرى، كالكندي والسرخسي، أن هبوب الرياح البحرية هو ما يسبب المد والجزر.

ويعتقد المسعودي أن اليابسة والماء يتبدلان مكانيهما بالتدريج، الأمر الذي يرتبط بعملية شيخوخة الأرض التي تشبه العضوية الحية في هذا الجانب.

ويرى هذا العلامة العربي أيضاً أن المحيط هو أكبر بحار الأرض، وأنه يبتدئ من مضيق جبل طارق، حيث تنتصب منارة عجيبة يتوجها قثال من النحاس في إحدى الجزر هناك على حد الزعم، وأن ثمة تماثيل أخرى من هذا النوع في بعض جزر مجاورة، عليها كتابات تقول إن الحيز المأهول من الأرض (المعمورة)، ينتهي بعد هذه الجزر. ويخبرنا المسعودي أن المنارة و التماثيل نصبها في غابر الزمان الملك هرقل الذي وصل إلى نهاية المعمورة وأقام هذه العلامات دليلاً على حدودها. ومن الواضح لنا تماماً أن المسعودي يشير إلى البطل الإغريقي الأسطوري هرقل المعروف عند الرومان باسم هرقلويس. أما قصة المسعودي عن التماثيل النحاسية والمنارة المنتصبة على حدود المعمورة، على حد الزعم، فتعكس مضمون الأسطورة الإغريقية القديمة التي تقول إن بطل أساطير بلاد الإغريق القديمة (هرقل) هو الذي أقام الصخور الشامخة على جانبي مضيق جبل طارق (المسماة أعمدة هرقلويس). وإذا كان من المعلوم أين يبتدئ

المحيط، فإن أحدا لا يعلم أن ينتهي، كما يقول المسعودي. كما كان يظن هذا الجغرافي أن الجزء الشرقي من البحر الحبشي، أي بحر الصين، هو المكان الآخر، بعد جبل طارق، حيث يلتقي المحيط ببحار الأرض الأخرى، ويقول إن الكثيرين يعتقدون بوجود قبة ذهبية في المحيط تنبع من تحتها أنهار الأرض الرئيسية، ويضيف: إن هذا الرأي باطل ولا وجود لشيء من هذا القبيل.

يرى المسعودي أن البحر الحبشي هو أضخم بحار الأرض بعد المحيط، وعلى شواطئه تقع الصين والهند والسندي (الجزء الشمالي الغربي من الهند الذي فتحه العرب المسلمين مطلع القرن الثامن) وببلاد النج (أفريقيا الشرقية) ومنطقتا فارس وكرمان الإيرانية، ومصر والحبشة. ومن الجنوب تحد مياه هذا البحر أرض مجهلة كان بطليموس قد تحدث عنها. ويعتقد المسعودي أن ثمة بحاراتاً أصغر تعتبر أجزاءً من البحر الحبشي، وهي بحر الصين (يبدو أن المسعودي يقصد البحار التي تحد مياها سواحل الهند الصينية وإندونيسيا والصين)، وبحر الهند (خليج البنغال) وبحر اليمن أو بحر قلزم (البحر الأحمر). ويؤكد أن هذه البحارات كافة متصلة فيما بينها، ولكن الظروف الطبيعية فيها مختلفة، فعندما يكون بحر الهند، على سبيل المثال، هادئاً ترى في البحر الفارسي هيجانا شديداً، والعكس بالعكس. وفي حديثه عن أجزاء البحر الحبشي المختلفة، وعن أن لكل منها ظروفه الطبيعية الخاصة به، يطرح المسعودي بغموض فكرة مفادها أن هذا البحر هو محيط تتباين البحارات التي تقع ضمنه أحدها عن الآخر تبانياً كبيراً، وأن نوعاً من الأسماك الضخمة يعيش في هذا البحر يبلغ طول الواحدة منها خمسة مائة

ذراع (٢٥٠ م تقربياً) وتعرف بالأقال (ربما يقصد الحيتان)، وإذا بعث هذه السمكة سلط الله عليها سمكة بطول ذراع واحدة (٥٠ سم) تدعى اللشك، فتلتصق بأصل أذنها فلا يكون لها منها خلاص فتطلب قعر البحر وتضرب بنفسها حتى تموت.

وعن بحر الروم يقول المسعودي إنه خليج من المحيط تقع على شواطئه سورية ومصر والمغرب والأندلس وبلاد الفرنج وبلاد السلاف (الصقالية) وبلدان أخرى. أما البحر الأسود (بحر بونطس) فيقع عند الحدود الشمالية للمعمورة، وأجزاؤه هي خليج القسطنطينية، وهلبونت، أي بحر مرمرة والبوسفور. (علمًاً أن النظريات الجغرافية المعاصرة تقول إن هذين البحرين هما جزء من البحر المتوسط، أي بحر الروم وفق مصطلحات المسعودي). ويتصل البحر الأسود ببحر مايونيس (مانطش) أي بحر آزواف الحالي.

وعلى ضفاف بحر الخزر (قزوين) تقع درينت (باب الأبواب) حسب المسعودي وغيره ومن الجغرافيين المسلمين، وأرمينيا، وأذربيجان، وخوارزم والأقاليم الإيرانية: الديلم وطبرستان، وجرجان. وعلى سواحله يتنقل الأتراك الأغوز الرحل. ومن صفات هذا البحر، عند المسعودي، أن النفط يستخرج من شواطئه، بل أن فيه أيضاً جزراً ترتفع من آبارها ألسنة نار تشاهد من بعيد.

واهتم المسعودي، كالعديد من علماء القرون الوسطى، بقبة السماء. وبناء على المعتقدات الفلكية التي ورثها العرب المسلمين عن الإيرانيين والهنود، افترض أن الجرمين السماويين (الشمس والقمر)، والكواكب المعروفة في زمانه، أي الزهرة والمريخ وعطارد والمشتري وزحل، وكذلك

النجوم، تؤثر على حياة الأرض عامة وعلى مصير البشر. وكان المسعودي يعتقد بوجود صلة وثيقة بين أجزاء معينة من الأرض وقبة السماء. أما مناخات الجزء المأهول من سطح الأرض فتتوزعها الأجرام السماوية التي تحكم بها، فالمناخ الأول يخضع لزحل، والثاني للمشتري، والثالث للمريخ، والرابع للشمس، والخامس للزهرة، والسادس لعطارد، والسابع للقمر. ويمارس القمر أكبر تأثير على شؤون الأرض، إذ تخضع له دوارات الحياة عند النبات والحيوان والإنسان، كما أن له علاقة بحيض النساء. ويرى المسعودي أن للأبراج التي يرجع الاعتقاد بها إلى بابل القديمة، دوراً عظيماً في شؤون الأرض، فالعالَم في مراحل تاريخية معينة، يقع تحت تأثير برج من الأبراج. وترتيب نظام تأثير الأبراج كالتالي: الحمل، الشور، التوأم، السرطان، الأسد، العذر، الميزان، العقرب، القوس، الجدي، الدلو، الحوت. واعتُقد المسعودي أن الأرض في عصره كانت تحت تأثير برج العذر، ويساعده كوكب المشترى في إدارة العالم. ومدة تأثير الأبراج كافة هي سبعة آلاف سنة. وستحل نهاية العالم، برأي المسعودي، لأن الكوكب الذي يدير العالم سيتقاطع مرات عديدة مع قبة السماء، وعندئذ ستنضب قوى العالم.... ويفنى.

قبة السماء مرتبة، حسب المسعودي، على النحو التالي: فوق الأرض مباشرة يقع مدار القمر، يليه مدار عطارد، وبعده الزهرة، فالشمس، فالمريخ، فالمشتري، فزحل. وبعد ذلك يقع مدار النجوم الثابتة، وفوقه مدار أبراج الأفلak. ويحيط بذلك كله المدار الأعلى الذي يسير المدارات الأخرى كافة. أما الأرض فتقع في مركز الكون كما النقطة في مركز الدائرة. وحركة المدار الأعلى هي من الشرق إلى الغرب، تماماً كحركة مدارات معظم الأجرام السماوية.

إن الأرض، كما يقول المسعودي، محاطة بالهواء. والهواء مأهول إذ تعيش في الجو كائنات حية لا تراها عين الإنسان، ويستند المسعودي في رأيه هذا إلى العالمين الإغريقين المرموقين جالينوس (١٢٩١-١٢٩) وبليناس الأكبر (٧٩-٢٣). ويورد المسعودي قول جالينوس "إن الهواء مأهول"، وكذلك رأى بليناس في أن المخلوقات إذا كانت تعيش على الأرض وفي الماء فهي تعيش إذن في الهواء. ومن باب التأكيد على ذلك يورد المسعودي قصة خيالية جرت لهارون الرشيد على حد الزعم، فذات يوم انطلق الرشيد للصيد في نواحي الموصل وكان يجثم على زنده صقر أبيض اللون، وفجأة اهتاج الصقر إذ أحس بوجود طريدة، فأطلقه الخليفة. حلق الصقر في الجو حتى غاب عن الأنظار وظن الجميع أنه قد ضاع، ولكن ما إن مر بعض الوقت حتى عاد الصقر حاملاً كائناً حياً يشبه أفعى لها زعانف سمكة. أمر الخليفة بوضع هذه الطريدة الغربية في طست. وبعد عودته من رحلة الصيد أمر باستدعائه، العلماء وطلب رأيهما في الأمر. فقال أحدهم إن كائنات حية مختلفة تعيش في الجو، وإن الأفاعي ذات الزعانف السمية التي أتى الصقر بواحدة منها، تضع بيوضها وتفرخ صغارها على الأرض، ثم تغادر الصغار الأرض محلقة إلى أعلى السماء. سر الخليفة سروراً عظيماً لهذا التفسير وأجزل العطاً لهذا العالم القدير. ونحن، خلافاً للمسعودي، يصعب علينا تصديق هذه القصة. وأغلب الظن أنها ابتدعت لتؤكد ما ورد عند الكتاب الأقدمين (الإغريق) الذين كانت مكانتهم رفيعة جداً في العالم الإسلامي، والقائلين بأن المجال الجوي مأهول.

ويرى المسعودي أن في أساس الكون أربعة عناصر أولية هي النار

والهوا و الماء والتراب، فالنار والهوا من حيث طبيعتهما، عنصران خفيفان يتمتعان بخاصية الارتفاع إلى الأعلى، وبختلف أحدهما عن الآخر تكون الأول جافا فيما الثاني رطب. أما الماء و التراب فهما عنصران ثقيلان ومن خواصهما الهبوط إلى الأسفل. و تقابل هذه العناصر الأربع أربعة فصول في السنة، وأربعة بلدان في الدنيا، وأربعة أطوار في حياة الإنسان (الطفولة، الشباب، الرشد، الشيخوخة). و حكمة الحالق، برأي المسعودي ومعاصريه، تتجلّى في هذه التنسابات الرباعية. وفيما يخص قبة السماء ومدارات سير الكواكب والنجوم، فإن المسعودي يورد رأيين من آراء المفكرين القدماء، الأول يعود إلى أفلاطون الذي اعتقد أن قبة السماء، شأنها شأن الأرض، تتتألف من أربعة عناصر أولية. أما الرأي الآخر الذي يعود لأرسطو، فيتلخص بأن السماء هي عنصر خاص خامس، إلى جانب العناصر الأربع الآتية الذكر.

إن عرض الآراء في ميادين الفلك والجغرافية العامة وفلسفة الطبيعة في مؤلفات المسعودي يتضمن بأهمية ثانوية، إذ أن أكثر ما أثار اهتمام رحالتنا هو تاريخ شعوب الأرض. والعالم الطبيعي عنده عبارة عن حلبة تمثل عليها دراما التاريخ العالمي. أما المجتمع البشري فقد كان في صلب هذا الاهتمام. وقد صاغ ستنا معينة لتطور البشرية، فاعتبر أن البشر أشرار بطبيعتهم، وبالتالي لا بد من وجود مؤسسة تبعث في نفوسهم الاحترام والخوف وذلك بغية استتاباب النظام في مجتمع الأفراد. وهذه المؤسسة عند المسعودي هي سلطة الملك التي تكون، حسب تعبيره، بمثابة القلب من جسم الإنسان. وأساس حكم السلطان يعني أساس نمط الحياة الحضاري، والانتقال من الحالة البدائية

إلى الحضارة، ويعني أيضا بداية التاريخ المدني (تاريخ المواطن). وما يتصف بالدلالة في هذا الصدد أن المسعودي ببدأ استعراض تاريخ قدماء الإغريق من عهد الملك فيليب المقدوني (والد الإسكندر) الذي يعتبره المسعودي أول ملك إغريقي. أما تاريخ دول المدن (الدول - المدن) القديمة، سواء الديموقراطية منها أم الأرستقراطية، قبل الفتح المقدوني، فهو خارج مجال اهتمامات المسعودي، لأن هذا التاريخ ليس تاريخ المجتمع الحضاري من وجهة نظره. ولهذا السبب أيضا لا يخبرنا المسعودي شيئا عن تاريخ روما قبل أيام حكم الإمبراطورية، معتبرا أن بوليوس قيصر هو أول قيصر روماني، وإن فهوا مؤسس دولة روما.

يلتزم المسعودي بالرواية التوراتية - القرآنية لظهور الجنس البشري، فالله خلق الإنسان الأول من طين وسماه آدم، وبعد عدة أجيال أغرق الله بالطوفان أحفاد آدم الذين ارتكبوا المعاصي وعبدوا الأصنام، ولم ينج إلا نوح وأبناؤه الذين صاروا فيما بعد أجداد البشرية زمن المسعودي. ولكن مؤرخنا لا يسلم بالرواية التوراتية - القرآنية دون تحفظ، فيخبرنا أن بعض الشعوب، كاليهود والهنود والصينيين مثلا، يرون أن آباءهم الأصليين شخصيات أسطورية أخرى. وما عزز شكوك المسعودي أيضا أن أساطير بعض الشعوب (اليهود والهنود والصينيين إياهم) التي كان المسعودي على معرفة بها، ويرى فيها شهادات تاريخية ذات مصداقية، لا تتضمن أية أخبار عن الطوفان. وبعد المحاولة الفاشلة لبناء برج بابل التي انتهت حسب الرواية التوراتية - القرآنية باقتسام الألسن، قسمت الأرض بين أبناء نوح: سام وحام وبافث، وتكونت على الأرض سبعة أقوام أسهمت في قديم الزمان، كما يرى المسعودي، بقسط

حاسم في تطور الحضارة العالمية. وهذه الأقوام هي: الإيرانيون، والكلدان، والإغريق، والمصريون، والأتراك، والهنود، والصينيون. وصاغ المسعودي منظومة من السمات التي قدم بناء عليها وصفاً لكل قوم من هذه الأقوام، وهي: اللغة المشتركة - الأرض المشتركة - كيان الدولة المشتركة - الخصائص الفيزيائية (البيئية) المشتركة.

على أن أي شعب من هذه الشعوب القديمة لم يشكل وحدة متجانسة، بل كان حصيلة بضع مجموعات إثنية متقاربة بالنسبة. ويرى المسعودي أن الإيرانيين هم الشعب الأول بين الشعوب القديمة. فهؤلاء عاشوا في المناخ الرابع الأكثر ملائمة وأسهموا بالتالي بالقسط الأكبر في تطور الحضارة العالمية. وهم أول من أرسى مبدأ الملكية في الحكم وصاغ نظرية لإدارة الدولة تعد المكسب الأهم من مكاسب الحضارة الإيرانية القديمة.

كان يعيش إلى جوار الإيرانيين شعب قديم آخر هو "الكلدان" الذينقطنت فروع مختلفة منهم سوريا والعراق وشبه الجزيرة العربية. ويرى المسعودي أنه ينتمي للكلدانين كل من البابليين والنينوين (الآشوريين) والآراميين والأنباط وكذلك أجداد العرب. وإذا تحدثنا بلغة اليوم فإن الكلدان أقوام سامية. واعتبر المسعودي أن الكلدانين هم أول شعب على وجه الأرض بنى المدن وشق الطرق واستخرج الحديد والنحاس والرصاص، وحفر قنوات الري، و أقام علاقات زواج منتظمة، وأعد قواعد شن الحرب، إضافة إلى أنهم برعوا في الزراعة، واكتشفوا قوانين علم الفلك برصدهم نجوم السماء .

وإلى الشمال من الكلدان والإيرانيين كان يعيش (الشعب القديم

الثالث) أي الإغريق. ومجموعة الشعب الثالث هذه تضم، إضافة إلى الإغريق، كلاً من الرومان والبيزنطيين ورثة الدولة الرومانية، وكذلك السلاف (الصقالبة) والفرنجية حسب رأي المسعودي، الذي يضيف أن كل الإثنينات التي يتتألف منها هذا الشعب القديم كانت تعيش في مملكة واحدة وتتكلّم لغة واحدة. لقد كان الإغريق بالنسبة للمسعودي وعلماً العرب المسلمين حجة في ميادين الفلسفة والمنطق والهندسة وعلم الفلك والفيزياء والموسيقى والطب والجغرافيا وعلم الحيوان والكيمياء. وافتراضا منه أن الثقافة العربية الإسلامية تحديدا هي وريثة إنحازات الإغريق، يؤكد المسعودي اعتقاده بأن العرب والإغريق تربطهم وشائج قربي، إذ أن جد الإغريق يونان هو شقيق جد العرب قحطان الذي يعود نسبه إلى سام بن نوح .

ولا يصنف المسعودي ضمن خانة المصريين الإثنية الثقافية سكان مصر فقط، بل وسكان المغرب وقبائل أفريقيا السوداء. والمصريون القدماء، حسب رأيه، كانوا ضليعين بمعرفة التنجيم، وسحراء ماهرين. واعتبر الكتابات الهيلوغليفية المهمة التي تغطي جدران المعابد المصرية القديمة طلasm سحرية أعانت المصريين في دحر أعدائهم. إن المعلومات التي أوردها المسعودي عن مصر والمصريين غزيرة جدا. وستتحدث عما كتبه عن هذا البلد وشعبه عندما نصل إلى قصص رحلاته .

يضع المسعودي الأتراك في أدنى قائمة الشعوب القديمة، ويورد معلومات عن القبائل التركية تتسم بالتشتت والاجتزاء، فيرى أن الأتراك يعيشون في المناخ الشمالي حياة تنقل وترحال، ولذلك فهم ليسوا مؤهلين لتطوير الحضارة، ولكتهم من ناحية أخرى مقاتلون أشداء ما

منهم دوراً كبيراً للغاية في الحياة الاجتماعية السياسية لدولة الخلافة. غير أن تأثير الأتراك في المؤسسات السياسية للدولة العربية الإسلامية اتصف بجانب سلبي لأن تسلطهم سهل عملية إضعاف سلطة الخلفاء الذين غدوا دمى في أيدي زمرة قيادة الحرس التركي. وبلاحظ المسعودي أن القبائل التركية كانت متفرقة في زمنه، ولكنها شكلت فيما مضى دولة موحدة على رأسها زعيم قبيلة كانت تقطن وادي فرغانة.

يعتبر المسعودي أن البلد الذي انطلقت منه المعارف العلمية وانتشرت في العالم كله، هو الهند التي قال عنها إنها (موطن الصالح والحكمة)، ولهذا كان يعتقد أن الهند من أعظم (الشعوب القدية). ومع أن الوحي الإلهي لم ينزل إليهم مباشرة فقد نجحوا في وضع أسس التنجيم وغيره من العلوم بفضل حكمة ملوكهم الأول براهما (ربما المقصود هو براهما الذي يمؤلف مع فيشنو و شيفا الشالوث الإلهي الهنودسي ترموموتري)، وكذلك بفضل هبوط آدم إلى الأرض (بعد طرده من الجنة وفق الموروث العربي الإسلامي)، إذ أنه نزل تحديداً في الهند ومعه كنوز الحكمة الإلهية. ففي الهند بالذات ظهرت عبادة النجوم ومعها علم الفلك، ومن هناك اقتبسها الملك الإيراني الأسطوري بوداسف. ويرى المسعودي أن العقلانية موجودة في صلب الثقافة الهندية، وأن مبادئ إدارة الدولة في الهند تمتاز بالعدالة والمعقولية. والمجتمع الهندي منظم على أساس الانقسام إلى طوائف اجتماعية بالوراثة، الأمر الذي يتواافق مع البنية التراتبية (الهرمية) للعالم، هذا الانقسام الذي يتولد حسب آراء الفلاسفة الهندو، كما يعرضها المسعودي، عن انشاق القوة الأعلى في الكون، أي المبدأ الأول الذي تخضع له الشمس، التي تخضع لها

النجوم، التي تخلق مختلف أشكال الحياة على الأرض . إن لعبة الشطرنج التي اخترع في الهند تمثل، إلى جانب نظام الطوائف الاجتماعية بالوراثة، نموذج العالم. فالمملك في هذه اللعبة يحصد المبدأ الأول، والأحجار الأخرى تجسد الشمس والنجوم التي تسير الكون .

لم يشاهد المسعودي مشاهدة عينية منجزات الحضارة الصينية، ولكن، وإن لم يزره هذا البلد أبداً، قدر نجاحاته عالي التقدير. والصينيون عند المسعودي هم قبل كل شيء تجار وحرفيون مهرة أقاموا صلات مع العديد من البلدان بعيدة. وحكامهم يستحقون المديح لما قدموه لشعوبهم من قوانين حكيمة.

وبذلك يكون كل شعب من الشعوب القديمة السبعة التي تناولها المسعودي بالوصف قد أسمهم بقسط هام في تطوير جانب ما من جوانب الحضارة العالمية، فالإغريق والهنود اشتهروا كفلاسفة وحكماء، أما الإيرانيون والصينيون فاشتهروا كمنظرين ومارسين عمليين لنظام عادل في إدارة الدولة، بينما اشتهر الكلدان كمزارعين ومنجمين مهرة. وكان المصريون ضليعين في السحر وعلوم الغيب. ويعتقد المسعودي أن تراث "الشعوب القديمة" السبعة ذو أهمية كبيرة بالنسبة للثقافة العربية الإسلامية التي ينبغي ألا تقصراًها على عسل الدين الإسلامي والجزيرة العربية وحسب، بل عليها أن تتعداً إلى منجزات الحضارات الأخرى أيضاً .

وإذ درس المسعودي عملياً ثقافات كافة الشعوب المعروفة للمسلمين في زمانه، فقد توصل إلى خلاصة مفادها أن انحطاط البشرية يحدث في سياق تطورها، وهذا ما يبدو واضحاً بشكل خاص من أمثلة تدهور دول

كبيرى كانت موحدة فيما مضى كالصين والهند ودولة الإسكندر المقدوني والإمبراطورية الرومانية. ويبدو أن هذه النظارات التشاورية عند المسعودي كانت من وحي الواقع السياسي لدولة الخلافة التي عاشت في زمنه أزمة شديدة وتفتتت إلى دول صغيرة، كان حكامها لا يعترفون أحياناً بتابعيتها لل الخليفة العباسي في بغداد. ولقد ترافق التدهور السياسي بأزمة أخلاقية تتجلّى بوضوح، خاصة بين الحكام والمقرّبين منهم. وكان المسعودي يرى الأُخْلَاق الرفيعة في نبى الإسلام محمد وخلفائه الأقربين قادة الجماعية الإسلامية، الخلفاء الراشدين الذين امتازوا، حسب رأيه، بالتقى والعدل والتواضع والبساطة؛ وكذلك في حكام إيران والهند والصين الحكماء. وفيما يتعلق بالخلفاء الذين حكموا الدولة العربية الإسلامية في زمنه، فلا يظلمهم المسعودي وهو يتهمهم بالترف وحب البذخ والقساوة والتهتك والظلم العبشي، بل وبالعجز السياسي الصريح أحياناً. ومهمماً كان الأمر مريراً على المسعودي، فيبدو أنه أدرك حتمية سقوط الدولة العباسية سقوطاً نهائياً.

تلّكم هي نظرات المسعودي إلى العالم الذي يعيش فيه الإنسان، وإلى تطور التاريخ البشري. ومن الواضح أن نظراته وأراءه العلمية والاجتماعية والسياسية لم تبلور دفعه واحدة، وطابع مؤلفاته التي وصلتنا لا يتبع لنا الحديث بإسهام عن تكون وتطور موقفه العقائدي. ومع ذلك يمكننا القول بثقة إن آراءه لم تكن ثمرة لقراءة الكتب ومجالسة جهابذ العلما، فقط، بل كانت كذلك نتيجة الرحلات الطويلة التي كرس لها جزءاً كبيراً، هو الجزء الأفضل من حياته. وعليه ستكون أسفار المسعودي محور الفصل التالي من كتابنا هذا.

الفصل الثالث

من الهند إلى مصر، ومن القوقاز إلى مدغشقر

فَغَرَبْتُ حَتَّى لَمْ أَجِدْ ذَكْرَ مَشْرُقٍ
وَشَرَقْتُ حَتَّى قَدْ نَسِيَتِ الْمَغَارِبَا
خَطُوبٌ إِذَا لَاقَيْتَهُنَّ رَدَدْنِي
جَرِحًا كَأَنِي قَدْ لَقِيَتِ الْكَتَابَا
(بيتان للبحترى يوردهما المسعودي)

بهذين البيتين اللذين نستهل بهما هذا الفصل من كتابنا، يستهل المسعودي آخر مؤلفاته "كتاب التنبية والإشراف" حيث يتحدث باختصار عن أسفاره مکابدا المشاعر ذاتها التي جاشت في صدر شاعرنا العربي الوجданى الكبير. حقاً لقد أمضى المسعودي جزءاً كبيراً من حياته القصيرة نسبياً في الأسفار استمر أربعين عاماً تقريباً، قدر له خلالها أن يزور الهند و ساحل أفريقيا الشرقي وشبه الجزيرة العربية والقوقاز، وأن يطوف سوريا ومصر، فضلاً عن موطنه العراق، الذي أقام في العديد من مدنه في الفترات الفاصلة بين رحلاته إلى بلاد الغربة... فركب الجمل تارة والمحسان أخرى والسفينة تارة ثالثة، دون أن يمنعه ذلك من الكتابة

بغزاره. وبناء على ما تفیدنا به أخبار كتب السیرة في القرون الوسطى فإن مؤلفه الأول (أخبار الزمان) الذي لم يصلنا، بلغ ثلاثين مجلداً، وأن مؤلفيه اللذين بقیا بالكامل حتى أيامنا هذه، وهما "مروج الذهب" و"كتاب التنبیه والإشراف"، يبلغ حجمها في الإصدارات الحديثة قرابة ألفی صفحة، وبلغ مجمل ما كتبه المسعودي طيلة حياته نحو من ثلاثين مؤلفاً في مختلف فروع المعرفة العلمية.

كان العرب المسلمين يرون في الترحال عملاً يرضي الله، إذ من الفرائض على كل مسلم الحج إلى الكعبة في مكة المكرمة وزيارة قبر الرسول في المدينة المنورة. كما ويعتبر الحج إلى بيت المقدس سلوكاً مشرفاً وعملاً من أعمال التقوى. وفضلاً عن ذلك كانوا يقومون أحياناً كثيرة برحلات لجمع أحاديث النبي محمد وما روى عن حياته. ونظراً لاتساع رقعة الإمبراطورية الإسلامية وترامي أطرافها كان المسلمين يضطرون لقطع طريق طويل، وخطر في أحياناً كثيرة، لتأدية فريضة الحج. وبذلك كان المجتمع العربي الإسلامي، ومنذ العقود الأولى، معتاداً على فكرة محسن الترحال والأسفار. وسبق أن أشرنا أعلاه إلى أن الحياة التجارية في الشرق الأدنى، وخلافاً لأوروبا القرون الوسطى، لم تتوقف، كما أن الاقتصاد الطبيعي (العيني) لم يكن السائد أبداً، ولذلك كانت مهنة التاجر تعد واحدة من أكثر المهن احتراماً. والتجار، كما هو معلوم، مضطرون للقيام برحلات إلى مناطق بعيدة. وكان التجار المسلمين يجمعون بين المصلحة بزيادة الشروء والأمل بمرضاة الله، فغالباً ما كانت رحلاتهم التجارية إلى البلدان البعيدة تترافق بنشاط تبشيري لنشر العقيدة الإسلامية. وأدت العلاقات التجارية إلى انتشار الإسلام في أراضي إندونيسيا وماليزيا الحاليتين، وفي شرق أفريقيا أيضاً.

استهنت الرحلات والأسفار العديد من علماء الجغرافيا العرب المسلمين من معاصرى المسعودي وسابقيه، كاليعقوبي والاصطخري والمقدسي وأبن حوقل وغيرهم، ولذلك لم تكن الأسفار البعيدة والرحلات الطويلة أمراً غريباً، أو مدهشاً، في شيء عند العلماء المسلمين.

لم تكن رحلات المسعودي، وفقاً لكل الدلائل، على علاقة بأية مهمة رسمية أو أغراض تجارية أو مسائل ذات صبغة دينية. إن الدوافع التي حثت هذا العالم على مغادرة أماكن أقامته الطويلة ومواجهة العديد من المتعاب والأخطار، دوافع في غاية النبل، فالمسعودي يصبو إلى معرفة العالم وعجائبه وسننه، ويتعلّم إلى توسيع تصورات معاصريه عن المعمورة وحياة العديد من الشعوب. وفي هذا الصدد يفترض الباحث الاسترالي م. شبول المتخصص بتراث المسعودي أن رحالتنا كان مساهمة في مؤسسة تجارية ما ليجد ما يحتاجه من مال لتغطية نفقات سفراته إلى الهند وإيران. ولكننا نعتقد أن هذا الاحتمال ضعيف، والأرجح أن المسعودي كان من أسرة كرية ميسورة، وبالتالي كان يملك، كما يبدو، ما يكفي من الموارد ليسافر إلى هذا ذاك من البلدان.

لابد أن المسعودي قد دون انطباعاته عن رحلاته في صيغة ما، ولكن مؤلفاته لا تتضمن مثل هذه الانطباعات، إذ أن الموقف الشخصي لم يكن يحظى باهتمام كافٍ في الثقافة العربية الإسلامية في زمانه. والمسعودي، عند تطرقه إلى هذا أو ذاك من المواضيع الجغرافية أو التاريخية، كان يتحدث عما رأه وعما سمعه في الأمصار البعيدة.

في إيران

غادر المسعودي بغداد في العام ٩١٥م وكان له من العمر قرابة عشرين عاماً، فانطلق مع قافلة من قوافل التجار نحو الشرق إلى إيران التي عرفت ثقافة راقية منذ القدم وقبل الفتوحات العربية الإسلامية بوقت طويل. فما الذي دفع بهذا العالم والرحلة الفتى لأن يقرر السفر إلى هذا البلد بالذات؟ يتلخص الأمر في أن أهمية التقاليد الثقافية والسياسية الإيرانية قد تزايدت كثيراً بعد انتقال السلطة في الخلافة، وأواسط القرن الثامن، إلى العباسيين الذين كان الكثيرون من أنصارهم ذوي أصول إيرانية. وراحت الخلافة تبدو في نظر البعض وكأنها انبعثت جديد لنظام حكم الساسانيين الملكي، وال الخليفة وريثاً لشاهنشاه. وبلغ الأمر بال الخليفة المنصور أن جعل اللباس في بلاطه على الطراز الملكي الفارسي. وتضاعف النفوذ الإيراني في الدولة العربية الإسلامية بعد انتصار المؤمن على أخيه الأمين، فالمؤمن الذي كان أولاً والياً على خراسان، إحدى أكبر الولايات الإيرانية، اعتمد على أعيان إيران. وفضلوا عن ذلك كان يعيش في بغداد كثير من الإيرانيين الذين اشتغلوا في الحرف والتجارة. وما لاشك فيه أن تراث إيران الثقافي قدحظى باهتمام الكثيرين من المتعلمين في العالم العربي الإسلامي، وأن المسعودي أراد أن يرى بأم عينه أطلال القصور والمعابد الفارسية المهيبة وما عليها من كتابات مبهمة، وأن يتجادب أطراف الحديث مع أتباع الزاراتية، ديانة إيران القدية التي تعرضت للملائحة بعد الإسلام، علمًا بأنها ظلت تلعب دوراً ملحوظاً في مطلع القرن العاشر، بالرغم من انتشار الدين الإسلامي آنذاك انتشاراً كبيراً بين سكان إيران.

وفي اليوم التالي لغادرة بغداد مرت قافلة المسعودي بمحاذة أطلال طيسبون (المدائن) عاصمة الملوك الساسانيين. ولطالما كانت عظمة هذه المدنية قد أثارت ذهول العرب، الذين كانوا يأتون أحيانا إلى العراق قبل الإسلام من صحراء شبه الجزيرة العربية، حتى أطلقوا عليها اسم (المدائن) إذ تبدت عاصمة الساسانيين هذه للبدو الرحيل لا بوصفها مدينة واحدة، بل وكأنها عدة مدن التحتمت الواحدة منها بالأخرى. وللمدائن تاريخ عريق، ففي العصر الهلبي قامت هنا سلوقية عاصمة إحدى المالك التي نشأت على أنقاض إمبراطورية الاسكندر المقدوني. وكان بوسع المسعودي أن يرى الأسوار القديمة (الإغريقية) لهذه المدينة. ولاشك في أنه زار أحد معالم الثقافة العربية الإسلامية فيها، أي ضريح سلمان الفارسي أحد الصحابة البارزين. والجدير بالذكر أن سلمان الفارسي هو من أشار على الرسول بحفر خندق حول المدينة المنورة عندما اقتربت منها قوات المكين وكانوا لا يزالون على معتقداتهم الوثنية، ومقاتلو قبائل البدو المتحالفه معهم. ولا يخفى أن حفر الخندق كان أسلوبا شائعا عند قوات الساسانيين في المعارك الدفاعية. لقد حاول المشركون عبور الخندق ولكنهم صدوا، وفقدوا الكثير من الرجال. وعرفت هذه المعركة في الأدبيات التاريخية - الجغرافية العربية الإسلامية، ومنها مؤلفات المسعودي، بغزوة الخندق. ويبدو أن المسعودي زار أيضا ضريح صحابي آخر هو حذيفة بن اليمان الذي كان يعد واحدا من أهل المشورة الحكماء عند النبي. ولكن ما أثار عظيم الاهتمام لدى الرحالة المسعودي هو قصر الساسانيين الشهير الذي عرف عند العرب (بايونان كسرى) أي باسم الشاهنشاه كسرى. ويخبرنا المسعودي أن أعمال البناء في هذا القصر

بدأت في عهد الشاه شابور (٢٣٤-٢٧٢) وانتهت في عهد خسرو برويز (٥٩١-٦٢٩). وكان التردد على هذا المكان من الأمور المحببة لهارون الرشيد. ففي إحدى المرات، كما يقول المسعودي، بات الخليفة الرشيد ليلة في الإيوان وسمع أحد الخدم يقول لخادم آخر إن القصر بناء وثني كافر، ابن كلب، زين له غروره أن يطال السماء. وهنا استشاط الخليفة غضبا فأمر بجلد الخادم وإبلاغ الجميع أن الخليفة لن يسمع بهذا التجديف على الملوك لأن الحكام جميعاً أخوة.

ثم تعرض إيوان كسرى في عهد الخلفاء العباسيين للهدم بغرض استخدام حجارته في تشييد ميان جديدة. وإذا يورد المسعودي في هذا الصدد نكتة تقول إن هارون الرشيد سأله وزيره يحيى بن خالد إن كان ينبغي هدم الإيوان أم لا، ولما أجابه بأن لا ضرورة لتدمير قصور الساسانيين، ظن الخليفة أن يحيى، وهو فارسي الأصل، كان كثيরين غيره من رجال البلاط قد اعتنق الإسلام ظاهرياً بينما لا يزال في حقيقة الأمر على ولائه للزارادشتية. وكان أن أمر الخليفة بإزالة الإيوان عن وجه الأرض... ولكن سرعان ما اتضح أن خزانة الخليفة تنقصها الموارد الالزمة لهدم هذا الصرح العظيم ذي البناء الوطيد، فاضطر الخليفة للعدول عن قراره. وإذا علم يحيى بن خالد بذلك قال إن الإيوان ينبغي أن يهدم تماماً، ففي البدء لم يكن هدمه ضرورياً لتعزيز قدر الإسلام لأن هذا الدين لا يدمر ما بناه أتباع الديانات الأخرى. أما الآن، وبعد أن صدر قرار الخليفة بالهدم، فلا بد من أن تنفذ إرادة أمير المؤمنين لكيلاً يبدو الإسلام عاجزاً في أعين أتباعه وأتباع الديانات الأخرى.

ومن حسن الحظ أن نصيحة الوزير الغزير الحكمة والمفرط الاهتمام

بشأن هيبة جلالة سيده لم يعمل بها حتى النهاية، فبقيت أطلال قصر الساسانيين في المدائن حتى أيامنا هذه.

انطلقت قافلة المسعودي من المدائن بعد عدة أيام، وسرعان ما وصلت حدود إيران.

شرع المسعودي يمعن النظر في هذا المكان الغريب عليه، فوجد نفسه لأول مرة على أرض تجاوز أهلها في تجاهل الخليفة أهل بغداد التي يسيطر عليها الأتراك، فمنذ النصف الأول من القرن التاسع أخذت بالظهور هنا (في إيران) دول محلية (إمارات) تحكمها سلالات من أصل إيراني. وأول دولة من هذا النوع تشكلت على يد القائد العسكري الطاهر بن الحسين قائد قوات المؤمنون التي حاصرت بغداد أثناء النزاع بين الأمين والمأمون. وبعد الانتصار على الأمين خشي المأمون من تزايد نفوذ الطاهر في البلاط فعينه في المنصب الذي كان يشغلها هو بالذات قبل إطاحة أخيه الأمين، أي والياً على خراسان أكبر أقاليم إيران، وكانت مرو تعتبر مركزه. وقرر الطاهر بن الحسين، المزهو بانتصاراته الحربية والفاخر بمنصب الوالي، أن يؤسس دولة إيرانية مستقلة. غير أنه استأنس هذا الحلم إلى درجة فقد معها الحذر، وأمر بعدم ذكر اسم الخليفة في خطبة الجمعة من على منابر خراسان، علماً بأن ذكر اسم الخليفة كان يعد من أهم علامات الولاء له. ويبدو أن الطاهر بن الحسين لم يأخذ في حسابه أن يد الخليفة كانت لا تزال طويلة في تلك الفترة، فتوفي مسموماً عام ٨٢٣م بعد عامين من ولادته. كما أن ابنه طلحه لم يبق طويلاً على عرشه. أما ابنه عبد الله بن الطاهر فقد تمكّن من ضمان الاستقرار في الدولة عن طريق إصلاحات أجراها لضبط نظام الضرائب. وكانت هذه

الإصلاحات ترمي إلى تعزيز سلطة الإقطاع، ولكن الفلاحين استفادوا منها أيضاً، إذ حدّت بعض الشيء من عسف ملاك الأراضي. وساعد هذا كله في أن تكون في التاريخ الإيراني والقصص الشعبية في القرون ١٥-١٠ م صورة رمزية مثالية للحاكم الطيب عبد الله. ولكن هذه الصورة لم تكن مطابقة للواقع.

وقد تعزز موقع الطاهرين (سلالة الطاهر بن الحسين) باستفادتهم أيضاً من قرار أصدره الخليفة يقضى بتشكيل قوات محلية، كان الخيالة فيها من ملاك الأراضي، والمشاة من الفلاحين. إذ راح بعض الشطار الحاذقين يقوم بتجمّع الفلاحين المفلسين والمنسلحين عن طبقتهم وتشكيل فصائل من المتطوعين (المطوعية) والخدمة بهم عند الطاهرين ولولاتهم، أو عند حكام مقاطعات أخرى. ولم يكن من النادر أن تقوم فرق المطوعية بحراسة الحدود مع الأتراك، والدفاع عن المناطق الداخلية في الخلافة ضد غارات هؤلاء الأتراك، ولكن القوة العسكرية التي بدت وكأنها يسرّت تعزيز استقلال دولة الطاهرين عن سلطة الخليفة غدت في نهاية المطاف سبب سقوط هذه الدولة. ففي العام ٨٦١ استولى يعقوب بن ليث الصفار، قائد إحدى فصائل المطوعية، على مقاطعة سجستان التي تقع إلى الجنوب الشرقي من خراسان معقل دولة الطاهرين. ويعقوب بن ليث سليل أسرة فلاحية فقيرة كان في شبابه صانعاً عند أحد النحاسيين، ومن هنا لقبه (الصفار). ولم يكن أخوه عمرو أقل حرماناً منه، إذ كان يكسب لقمة عيشه من عمله راعي حمير. وعندما سُئِلَ يعقوب من حرفه النحاس المضنية فرَّ من سيده ووقع على جماعة من قطاع الطرق شن معهم هجمات جريئة على قوافل التجار، وسرعان ما أصبح زعيم

عصابة. و بمرور الوقت أدرك الصفار أن الاشتغال جنديا مرتقا أكثر ربحا وأحسن قدرأ من أعمال النهب القدرة، ولذلك قام هو وعدد من زملائه المؤمنين بأمره بإشهار أنفسهم كمطوعية، والتحقوا بخدمة أحد الحكام المحليين. وكان أن اندلعت بعد وقت قصير انتفاضة الخوارج، وهم طائفة إسلامية تدعو إلى انتخاب الخليفة وتقاسم الثروة. وإذا نجح يعقوب بن ليث في قمع هذه الانتفاضة أصبح حاكما لسجستان. ونظرا لغروره المفرط لم يكتف بالسلطة على إقليم واحد فضم إلى ملكه بعد حين مدینتي هيرات وبلغ الهامتين في شرق إيران، ومن ثم أنزل ضريته بحكم الطاهرين. وبعد إسقاطهم عام ٨٧٣م استولى على مقاطعти كرمان وفارس وقرر أن يخضع الخليفة لسيطرته فتقدم نحو بغداد، ووصل بلدة دير العاقول بالقرب من سامراء. وهنا ألحقت به قوات الخليفة المعتصم (٨٦٠-٨٩٢) هزيمة نكراء، فقتل العديد من أنصاره، وتمكن هو وقادة جنده من الفرار والنجاة. وبعد وفاته عام ٨٧٩م خلفه أخيه عمرو على رأس دولته، ولكن حاكم دولة الساسانيين إسماعيل تصدى له في العام ٩٠٠ وهزمته بالقرب من بلخ، ووقع عمرو في الأسر، فأرسله إسماعيل إلى بغداد حيث أعدم. وبعد أن صفى حسابه مع عمرو ضم إسماعيل سجستان إلى ملكه.

بالرغم من أن الكيان السياسي الذي أنشأه الصفار لم تكتب له حياة طويلة، فقد تركت شخصية هذا الرجل انطباعا مؤثراً عند معاصريه بما حققه من نجاحات تدبر الرأس، إذ ابتدأ كتلמיד حرفة وانتهى حاكما متسلطا على منطقة شاسعة يتجرأ على منازعة الخليفة. وربما كان المسعودي قد سمع، وهو لا يزال في بغداد، بقصص يعقوب بن ليث

الشجاع العنيد، فقد سرت شائعة تقول إنه محارب قنوع يرضى بالقليل. ويخبرنا المسعودي أن الصفار كان يجلس دائمًا على قطعة من الخيش وينام على درعه وأضعا الرأبة تحت رأسه، وأن مبعوث الخليفة عاتبه ذات مرة لفقر خيمته الميدانية، فأجابه الصفار بأن القائد لا يحكم عليه بما يحمل معه، بل بما يقوم به من أعمال، فالأشياء مجرد عبء على دواب النقل. ونعتقد أن تواضع الصفار الشخصي (الذى يشدد عليه) ليس مجرد صفة من صفات طبعه، بل هو قناع فريد كان يرتديه لاكتساب الشعبية بين جنده. ويلاحظ المسعودي أن الصفار كان يتصرف مع مرؤوسيه بطريقة لا مثيل لها، ما أكسبه هيبة نادرة. ولكن بالرغم من تواضعه لم يكن يسمع "برفع الكلفة"، ولم يكن يطلع أحداً على خططه. وعندما لا تكون قواته في حملة أو عمل ما، كان يحب الجلوس والتأمل وحيداً، أما في الأمسى فكان يدرب الفتيان على استخدام السلاح. ولم يكن يمنع ثقة تامة إلا للحراس اللذين يختارهم بنفسه، فكان يقاسمهم المبيت المتواضع، والمأكل البسيط. ولم يكن الحراس يسمحون لأي من قادة جنده بدخول خيمته إلا بإذن خاص. واشتهرت قواته بانضباط حديدي. ويورد المسعودي أمثلة على ذلك فيقول إنه أمر ذات يوم جنده بالتوقف، وسمح لهم بترك الخيول لترعى، ولكن طارئ حدث فاضطر أن يعطي إشارة المعركة فجأة. وفيما بعد روى الذين حضروا هذه الحادثة أنهم شاهدوا أحد المقاتلين ينتزع العشب من بين أسنان حصانه لكي لا يتأخر عن الركب. وفي حادثة أخرى، كما يقول المسعودي، أن قوات الصفار أبقت معسكراً لأعدائه سالماً دون المساس به بعد أن سيطرت عليه، وكان فيه الكثير من الغنائم الثمينة، وذلك

انتظاراً لأوامر قائدها. وأن الصفار وضع نظاماً صارماً لاختيار عناصر جديدة للقوات. ويروي المسعودي أن الصفار كان إذا جاءه رجل يرغب بالالتحاق بقواته يقابلة ويتحدث معه شخصياً، وبعد ذلك يأمر ببيع ممتلكات الرجل وإيداع ثمنها خزينة القوات. ويستلم المجندي الجديد مقابل ذلك عدة الحرب والطعام. وإذا أراد أحد من جنده مغادرة صفوفه كان الصفار يصرفه ويعطيه قيمة ممتلكاته المباعة.

توسعت دولة السامانيين في النصف الأول من القرن العاشر لتتشمل إيران وأسيا الوسطى. وكانت سمرقند وبخارى مركزين رئيسيين لها. وينذكر أن جد السامانيين هو سامان أحد ملوك الأرض الصغار في بخارى، تسلم أحفاده في عهد الخليفة المأمون مناصب إدارية في خراسان مكافأة لهم على المشاركة في قمع إحدى الانتفاضات المحلية. وبعد تدمير دولة الصَّفاريين تلقى الساماني إسماعيل من الخليفة المكتفي (٩٠٨-٩٠٢م) كتاباً بإدارة خراسان. اعتمد السامانيون على كبار ملوك الأراضي في إيران وأسيا الوسطى، وأقاموا في دولتهم نظام الإدارة العباسي البيروقراطي. وسار السامانيون على نهج خلفاء بغداد فشكلوا قواتهم من الأتراك الذين أخذوا فيما بعد يدبرون الانقلابات. فقتل الشاه أحمد بن إسماعيل على أيدي الحرس الأتراك عام ٩١٣، وتنصَّب على العرش ابنه نصر وهو في الثامنة من عمره. ولقد أدى تسلط الأتراك، والروح الانفصالية المتنامية عند كبار الإقطاعيين إلى سقوط دولة السامانيين أواخر القرن العاشر.

كان السامانيون في زمن المسعودي قوة سياسية جبارة لا تخضع للخليفة إلا اسمياً، وأخذت تنبعث في بلاط حكامهم الثقافة الإيرانية

وقد اغتنت بالمؤثرات العربية الإسلامية. كان المسعودي، حسب كل الدلائل، من أنصار تعزيز سلطة الخلفاء العباسين، وكان لديه ثمة ما يبرر أن يرى في السامانيين خصوما لهم ومدمرين للإمبراطورية العربية الإسلامية الموحدة. وإذا لم يكن قادراً أن يواجه ذهنيا جبروت السامانيين بأية قوة سياسية واقعية، فقد فضل المسعودي التزام الصمت في مؤلفاته إزاء دولتهم، علما بأنه كان مقينا ضمن حدود هذه الدولة.

ونحن الآن لا يمكننا أن نرسم خط رحلة المسعودي في ربوع إيران إلا على وجه التقرير. وأول مدينة إيرانية كبيرة حلَّ فيها هي، على الأغلب، همدان الواقعة في وادٍ خصب، والتي يرد ذكرها في التوراة ومؤلفات الإغريق القدماء. وخضعت لحكم العرب المسلمين بعد هزيمة قوات الساسانيين عام ٦٤٢م بالقرب من نهاوند. وتشير الوثائق التاريخية إلى أن أهالي همدان فتحوا أبواب مدینتهم أمام الفاتحين طوعاً، ووافقو على دفع الجزية، ولكن سرعان ما انتفض الهمدانيون وطردوا الحامية التي أبقيت في المدينة. وبعد ذلك أخضعها العرب المسلمين ثانية بعد أن قاموا باقتحامها هذه المرة. وعندما زارها المسعودي كانت قد غدت مركزاً كبيراً للحرف والتجارة، ومدينة حصينة هامة من الناحية الاستراتيجية لها أسوار عالية منيعة، وأربعة أبواب وقلعة. وفي فترة النزاع بين الأمين والمأمون عام ٨١٠م عانت همدان من حصار طويل. وفي زمن المسعودي كانت قلائل تلك الفترة المضطربة قد باتت طي النسيان، وكانت التجارة على قدم وساق في بازارات المدينة الثلاثة. وما يدل على وضعها الاقتصادي الجيد آنذاك أنها تجاوزت حدود الأسوار وأحاطت بها الضواحي الفسيحة. وأنذاك لم يكن بوسع

المسعودي الذي متع ناظريه برؤيه السلع الشمينة والمتنوعة، ولا بوسع التجار القادمين من أماكن أخرى، ولا بوسع السكان المحليين، التوقع بأن همدان ستتعرض بعد ١٧ عام (في العام ٩٣٢ م) لمحن قاسية جديدة. إن هذه الأحداث المأساوية لا تزامن مع رحلات المسعودي في ربع إيران، ولكنه إذ تابع اهتمامه الحيوى بما يجري في هذا البلد، فقد ترك لنا وصفا لما حدث في همدان اعتمادا على أقوال شهود عيان. وقد أدت حالة الضعف التي اعتبرت سلطة الخلافة المركزية إلى أن يظهر في إيران العديد من المغامرين الراغبين بالسير على خطى الصفار، أي بالانشقاق عن الخليفة وتأسيس سلالات حاكمة خاصة بهم، بل وأحياناً بفرض سيطرتهم على العالم العربي الإسلامي كله. وكان أحد هؤلاء الباحثين عن المغامرات مرداویح بن زیار. وهو صاحب إمارة صغيرة في منطقة بشمال إيران، كان أبوه والياً عند السامانيين على هذه المنطقة. وإذا عصفت برأسه المطامح، استولى مرداویح على طبرستان المجاورة عام ٩٢٨ وعلى جزء كبير من غرب إيران في العام ٩٣١ م. ولتوطيد سلطاته كان عليه الاستيلاء على همدان. غير أنه عندما اقتربت طلائع قواته بقيادة ابن أخيه من المدينة هاجمتها قوات الخليفة ودحرتها، ولقي ابن أخيه مرداویح مصرعه في المعركة. ولكن مرداویح تقدم بعد ذلك بقواته الرئيسة من باب الأسد في همدان. ويسمى هذا الباب كذلك لأن تمثال أسد ينتصب مقابلة يقال إن الإسكندر المقدوني وضعه هناك. وإذا أخذنا بالملووث المحلي فإن الأسد كان حارس همدان التي كان يعتقد سكانها أن مدینتهم يستحيل خرابها إلا إذا حطم الأعداء تمثال الأسد. ومثل هذه الاعتقادات كانت واسعة الانتشار في كل العالم، فجاء في الأدب

الملحمي الإغريقي أن الطرواديين كانوا يعتقدون أن مدینتهم منيعة لا تؤخذ ما دام باقيا فيها تمثال بلاس - أثينا (إلهة الحکمة والفنون والصناعات النسوية عند الإغريق) . كما كان أهالي مدینة نوفغورود الروسية يعتقدون أن عدوا لن يتمكن من قهر مدینتهم ما دامت تلك الحمامات المصنوعة من الحديد الصب جاثمة على قبة كاتدرائية القديسة صوفيا . وتعود جذور مثل هذه الاعتقادات إلى زمن قديم كان الناس فيه يتخيلون مكان سكناهم كائنا حيا ذا روح متجسدة في طلسم ما ، ويؤمنون بأن تحطيم هذا الطلسم يؤدي إلى هلاك المدينة لا محالة . ويبدو أن مرداویج كان على علم بهذه الأساطير فأمر جنده بتدمیر تمثال الأسد بأقصى سرعة . وأغلبظن أنه فعل ذلك لا لإيقانه بقوة التمثال ، وإنما لإدراكه مدى الضرر المعنوي الذي سيلحق بالمدافعين عن همدان . ودارت معركة حامية الوطيس عند باب الأسد أسفرت عن هزيمة الهمدانيين وقوات الخليفة . وبعد أن اقتحم جنود مرداویج المدينة قتلوا دونما شفقة كل من وقعت عليه أيديهم ، واستباحوا المدينة سلبا ونهبا على مدى ثلاثة أيام . وبعد ذلك بوقت قصير لقي سكان مدینة إيرانية أخرى هي الدینور المصير نفسه ، ولم تنقذهم شفاعة الصوفي المعروف بتقواه ابن مشاد الذي ذبحه أحد قادة جند مرداویج .

بعد أن بسط سيطرته على غرب إیران واصل مرداویج زحفه حتى تخوم العراق وهو يقتل ويسلب ويأخذ الأسرى في طريقه . ثم توقف عند هذا الحد ، فلم يتجرأ على المضي قدماً ، إذ كانت قواته قد أثقلتها الغنائم وقرابة مئة ألف أسير يساقون خلفها . لذلك قفل عائدا إلى مدینة أصفهان وسط إیران فاختارها عاصمة له . ولا يعود اختياره هذا مجرد

اعتبارات اقتصادية وسياسية، بل لأن أصفهان ستشهد حسب تنبؤات المنجمين، حكم ملك رجلاء من ذهب يستولي على العالم بأسره ويكون له أربعون خلفاً يتوارثونه. وقرر مرداویج الذي كان يحلم بإحياء دولة إيرانية مستقلة أنه بالذات ذلك الملك ذهبي القدمين، فأمر بإعادة بناء أصفهان بما نبهه من مدن إيرانية أخرى، وانتقل ليقيم فيها إقامة دائمة. ورغبة منه في أن يثبت للجميع أنه شاهنشاه إيراني حقيقي أمر بصنع ملابس مذهبة وعرش وتابع من ذهب على غط تلك التي كانت للساسانيين. ولكن هذا المطبع لم يكتب له أن يتحقق لأن العبيد الأتراك حراس مرداویج خذلوه كما خذلوا الكثيرين غيره من حكام الشرق الأدنى. لقد فتنه الدور الجديد كملك للكون، ولم يضع في حسابه تلك القوة الجبارية التي يشكلها الحراس الأتراك الذين بلغ تعدادهم أربعة آلاف شخص يمارسون شتى صنوف الإذلال على جنوده وقادتهم سواء، بسواء. ولقد تحول استياء الأتراك من سيدهم إلى مؤامرة ضده دبرها عدد من قادة الحرس. فذات مرة انطلق مرداویج إلى الصيد وهو في حالة من الانشراح. وعند عودته من هذه الرحلة دخل الحمام، ولكن أربعة من قادة الحرس التركي اقتحموا المكان وقتلوه فيه. واستغل المتأمرون حالة البلبلة العامة وفروا إلى الخليفة الراضي [٩٤٠ - ٩٣٤] بينما راحت قواتهم التي علمت بمقتل أميرهم مرداویج، تنهب بلا رحمة المدينة التي كان مؤملاً لها أن تكون عاصمة إمبراطورية عالمية. وعلى هذا النحو المأساوي انتهت محاولة من محاولات عديدة لتبوء عرش العالم.. محاولة كانت وثيقة الصلة بمصير همدان ومدن إيرانية أخرى.

بعد أن عاين المسعودي همدان تابع طريقه على ما يبدو مع القافلة

نحو الشمال الشرقي باتجاه الري عاصمة مقاطعة ميديا الإيرانية العريقة التي تبعد أطلالها حوالي ثمانية كيلومترات عن طهران اليوم. كان تاريخ هذه المدينة عاصفا، ففي العام ٣٣٠ق.م استولت عليها قوات الإسكندر المقدوني، وفي العام ٦٤١م ودع يزد جرد الثالث آخر ملوك الساسانيين الشعب في هذه المدينة قبل انطلاقه إلى خراسان التي لم تتمكن من الصمود أمام حالف القوات العربية الإسلامية المتقدمة. وبعيد ذلك قتل يزد جرد الثالث بالقرب من مرو عاصمة خراسان، ويموته انقرضت سلالة الساسانيين. واستولى العرب على المدينة عام ٦٤٤م، ولكن سرعان ما اندلعت فيها انتفاضة شعبية ضد سيطرة الغرباء، فقمعها بقسوة سعد بن أبي وقاص أحد قادة العرب المسلمين البارزين. وبعد مئة عام ونيف على هذه الأحداث ذاقت الري الأمرين أثناء الحرب الأهلية في دولة الخلافة وانتقال السلطة من الأمويين إلى العباسيين. ولكن المدينة أعيد بناؤها من جديد على يد محمد المهدي الذي عُين حاكماً للشرق فاختار الري مقراً له (أصبح فيما بعد خليفة). وفي عهده تغير اسمها أيضاً فأصبحت تعرف بالمحمية، وفيها رزق المهدي من إحدى زوجاته بابنه هارون الرشيد. وتجدر الإشارة إلى أن المدينة لم تنبع من آثار الشقاق بين ولدي الرشيد الأمين والمأمون، ففي العام ٨١٠م أحرز الطاهر ابن الحسين (الذي أسس فيما بعد دولة الطاهريين في إيران) أحد انتصاراته الخامسة على قوات الأمين بالقرب من الري، وبعد المعركة التي دارت رحاتها هنا أصبح الطريق إلى بغداد مفتوحاً أمام أنصار المأمون. وفي النصف الثاني من القرن التاسع انتقلت هذه المدينة أكثر من مرة من أيدي سلالة إلى أخرى إلى أن استتب فيها

هدوء نسبي بعد استيلاء السامانيين عليها وضمها إلى دولتهم، أي قبل قدوم السعوديين إليها عام ٩١٢ م.

كان الإيرانيون الذين يشكلون غالبية سكان الري من المستغلين المجددين في الحرف والتجارة. واشتهرت في هذه المدينة على وجه الخصوص صناعة المناديل والفارخار والمنتجات الخشبية. وذاع صيت مكتبة المدينة الواقعة على ضفة قناة سوركاني. وما لا شك فيه أنها لفتت انتباه السعوديين.

وعلى التلال الممتدة جنوبى المدينة بمسافة قصيرة يوجد ضريح بباب شهربانو الذي تقول الروايات إنه يضم رفات ابنة آخر ملوك الساسانيين التي أسرها العرب المسلمين وزوجوها للحسين بن علي بن أبي طالب، الذي حاول بعد وفاة الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان عام ٦٦١ استئناف أنصار أبيه في مدينة الكوفة جنوبى العراق، ولكن فضلاً من قوات الحكومة اعترض طريقه من مكة إلى الكوفة في بقعة تسمى كربلا، فحُوصر وقتل مع مجموعة من أقربائه وأنصاره. ومنذ ذلك الحين غدا الحسين من الشخصيات العظمى عند الإسلام الشيعي وشهيده الأكبر، ولا تزال حتى أيامنا هذه تنظم في كربلا كل عام مشاهد دينية تصور آلام الحسين واستشهاده مع صحبه. وفي أيام أخرى ينظم الشيعة مسيرات حداد ترافقت أحياناً كثيرة في الماضي بتعذيب قاس للذات. إن الرواية التي تقول إن الحسين تزوج ابنة آخر ملوك الساسانيين جعلت الإسلام الشيعي منتشرًا بين سكان إيران التي لا تزال حتى يومنا هذا أكبر معلم للشيعة في العالم كله. وتفيدنا أخبار المؤلفين الذين عاصروا السعوديين أن ضريح بباب شهربانو كان محجاً

للناس من كل أنحاء إيران وبلدان أخرى أيضاً. وكان عدد النساء بين زواره كبيراً جداً، إذ كان يؤمن أن القديسة الراقدة في هذا الضربي تحفف آلام عسر الولادة وتساعد في تحقيق الزواج السعيد وغير ذلك.

ويقول المسعودي إنه شاهد بين الري وطبرستان أعلى قمة في إيران، أي بركان دنباوند الخامد الذي يبلغ ارتفاعه ٥٦٠٤ متر. وكان على صواب إذ اعتبره أحد أعلى جبال إيران. وما ترك انطباعاً خاصاً عند رحالتنا المسعودي تلك الأسطورة الإيرانية القديمة التي تقول إن الضحاك، وهو أمير عربي شرير باع نفسه لإبليس واستولى على إيران بمساعدة منه، قد أوثق إلى صخور جبل دنباوند. وتضيف الأسطورة أن حيتين هائلتين قد نبتتا على كتفي الضحاك الكافر، وكانتا تتغذيان قبلًا من نخاع فتيان يقتلون بأمر من هذا الحاكم الظالم. وعندما أهلك الضحاك العديد من الإيرانيين أخذ وزيره يدس للحيتين نخاع عنز ويرسل الفتياً الناجين إلى الجبال. ويرى المسعودي أن هؤلاء الناجين هم أسلاف الأكراد. وحسب المعتقدات الشعبية فإن الضحاك الذي أطاحته انتفاضة الإيراني العظيم، سرد قصة الضحاك في قصيدة الشهيرة (شاهنامه) التي تروي تاريخ إيران بدءاً من ملوكها الأسطوريين وحتى الفتح العربي الإسلامي. والضحاك عند المسعودي، كما عند الفردوسي، ليس شخصية خرافية بل هو إنسان حقيقي تاريخياً، مع فارق أن المسعودي يشكك في أصله العربي، ويفترض أنه قد يكون إيرانياً تماماً كما قد يكون عربياً.

ويورد رواية أخرى عن أن الضحاك كان ساحراً، ولم يستول على إيران فقط بل على المعمورة كلها، وأن ملكه دام ألف عام.

بعد أن ودع المسعودي الري اتجه جنوبا نحو مدينة قم التي لابد أنها كانت ذات أهمية كبيرة بالنسبة له، إذ أن مدرستها التاريخية الجغرافية كانت تحظى بشهرة واسعة في العالم العربي الإسلامي منذ أواسط القرن التاسع. وقم مدينة عريقة كالعديد من المدن الإيرانية، فتحتها القوات العربية الإسلامية بقيادة الصحابي المعروف أبي موسى الأشعري. وكانت هذه القوات تتألف من أبناء القبائل العربية الجنوبية أساسا. وبعد قيام سلطة بنى أمية أيد البدو الذين استقروا في قم أمير مقاطعة سجستان الإيرانية ابن الأشعث الذي قاد تردا على الحجاج بن يوسف والي الأمويين على المناطق الشرقية من الخلافة. وكان التشيع الرأبة العقائدية للنضال ضد سلطة الأمويين بعد أن نشأ وتراءى بين أقرباء وأنصار الخليفة علي. وهذا الاتجاه بالذات هو الذي غزا عقول وقلوب سكان قم. ولقد ألقت مؤلفات المؤرخين الذين عاشوا في قم الضوء على أوضاع الجماعة الإسلامية من موقع شيعية تحديدا. وبعد سقوط سلطة الأمويين على يد العباسيين لم يهادن سكان قم النظام الجديد، وقاموا عدة مرات بانتفاضات فاشلة تأييداً لبني علي. ولا تزال في قم حتى الآن أضرحة رموز شيعية تحظى بأكبر الإجلال، منها قبر فاطمة ابنة الإمام السابع موسى الكاظم التي دفنت هناك عام ٦٢٨م. ويربو عدد العتيبات المقدسة في هذا المركز الشيعي الهام على أربعين قبر وضريح. ولذلك ليس ثمة ما يشير الدهشة في كون سكان قم على درجة من القدرة. وثمة نادرة طريفة حول هذا الأمر تزعم أن والياً سنياً شدید العداء للمذهب الشيعي قد حكم هذه المدينة فترة من الزمن. والمعروف أن الشيعة لا يقرنون بشرعية حكم الخلفاء الثلاثة الأول أي أبو بكر وعمر وعثمان، ولذلك لا

يصادف المرء بينهم من يسمى بوحد من هذه الأسماء. وذات مرة أراد الوالي السني أن يستهزيء بأبناء قم فجمعهم وأمرهم بإحضار ولو شخص واحد (اسميه أبو بكر أو عمر أو عثمان) وتوعدهم بشدید العقاب إن لم ينفذوا أمره. ولما أعياهم البحث وينسوا وجدوا متسللاً دمياً اسمه أبو بكر. وعندما شاهد الوالي هذا الشخص سميَ الخليفة الأول وحبيب الرسول، ظن أن هؤلاء الشيعة أتوه بهذا المسلح عمداً ونكارة، فقرر جلدهم بالسباط، ولكن أحد الظرفاء أنقذهم إذ خاطب الوالي قائلاً: ما العمل أيها الأمير إذا كان هواً قم غير ملائم لأن تكون لأبي بكر هنا هيئه أفضل؟ ولم يكن الوالي خالياً من روح النكتة والظرافة، فتكرم بالغاء العقوبة.

لم تقتصر شهرة قم على كونها مركزاً للتدین الشيعي، بل يعود ذلك إلى أنها كانت مدينة تنعم بوحدة من أفضل منظومات الري في إيران، يهتم بها متابعةً وصيانةً مراقبون متخصصون، فكان الماء يصلها من نهر قم الذي يشقها نصفين، وتصل مياهه إلى منازلها بأنابيب بعد أن تخضع للتنقية. وكما في زماننا كانت توجد في الشوارع فتحات تتصل بدرجات تؤدي إلى الأنابيب التي تنقل الماء، وبعض هذه الأنابيب يصل إلى خارج المدينة لإرواء الحدائق والبساتين.

ومن قم توجه المسعودي جنوباً نحو أصفهان التي انضمت، شأنها شأن الري وقم، إلى دولة السامانيين قبل وقت قصير من شروع المسعودي برحلته إلى ريوغ إيران. وقبل نحو خمسين عاماً من ذلك كانت أصفهان قد تعرضت للدمار على يد موسى بن بُغا قائد جيوش الخليفة المعتر (٨٦٦-٨٦٩)، الذي عمل بسكانها تقتيلاً لأنهم أيدوا أعداء

العباسين من سلالة علي التي كانت تحكم إقليم طبرستان عند بحر قزوين. وعندما حل فيها المسعودي كانت أصفهان قد ضممت جراحها السابقة، وانتقل للعيش فيها سكان جدد من القرى المجاورة ومن مدن إيرانية أخرى. وعاد إليها البعض من نجوا من مذابح موسى بن بُغا. ولم ينس الأصفهانيون دروس الماضي الفظيعة فأحاطوا مدینتهم مرة أخرى بسور حصين يعززه مئة برج، وفيه أربعة أبواب. وسرعان ما أخذت أصفهان تستعيد غناها السابق، فمناجم الفضة القرية منها كانت تدر عليها دخلاً جيداً. ولكن الانطباع الأقوى عند المسعودي كان نتيجة مشاهدته واحداً من المعالم الأخرى هنا، هو أطلال المعبد الزرادشتى الذى كان يعتبر من أعرق الأماكن الوثنية المقدسة على الأرض. ويخبرنا المسعودي أن الإيرانيين القدماء كانوا في البدء يعبدون الأصنام هنا إلى أن جاء الشاه الأسطوري يستاسف وأمر بإزالتها وإقامة هيكل النار الزرادشتى بدلاً منها. ولا شك في أن الدقة التاريخية للمعلومات التي يوردها المسعودي عن معبد أصفهان تبقى موضع تحفظ من يقرأ مؤلفاته اليوم، ولكن هذه المعلومات تتصرف بقدر كبير من الدلالة، بمعنى أنها تعكس ذاك الاهتمام الراسخ عند رحالتنا بالزارادشتية ومقدساتها، وأنه على اطلاع جيد على ديانة إيران القديمة هذه. ويتحدث المسعودي بتفصيل واف في مؤلفاته عن زارادشت الذي عاش وأرسى أسس هذه الديانة، حسب ما تقول تقاليدها، في القرن السادس قبل الميلاد. ويضيف المسعودي أن الإيرانيين قبل ذلك كانوا يعبدون النجوم. ولكن معتقدات الإيرانيين الدينية التي أخذت فيما بعد صيغة الزرادشتية، ظهرت في حقيقة الأمر قبل زمن طويل من الفترة التي عاش فيها

زارادشت كما يفترضها المسعودي. إذ أن "الهانا"، وهي الجزء الأقدم من كتاب الزارادشتين المقدس (بستاه)، قد تشكل على مدى زمن طويل خلافاً للتقاليد الزارادشتية. ويتضمن هذا الأثر الأدبي مستويات مختلفة وفقاً لمراحل تطور القبائل الإيرانية. والإيرانيون منذ القدم كانوا يبعدون النار التي تعتبر في الزارادشتية ولidea إله الخير "أهورا مازدا" الذي خاض صراعاً لا هواة فيه ضد إله الشر "أنهرا - مانيا". وهذا الإلهان كلامهما أبنا (الزمن السردي) الإله أردان. ويؤمن الزارادشتيون بأن يوم الحساب الأعظم سيحل في نهاية الزمن حيث سيلقى أعداء إله الخير عذاباً أبداً.

ومن أصفهان تابع المسعودي مسيرته نحو الجنوب إلى مدينة اصطخر، التي تقع على مقربة من عاصمة إيران القديمة بيرسبوليس. ولفت انتباه رحالتنا هنا معبد زارادشتى تحول إلى مسجد يحمل اسم سليمان، وبالرغم من ذلك بقيت فيه صور قديمة لخيول وحيوانات خيالية تتحصّنها المسعودي باهتمام. ويقول إن ريحها تهب باستمرار في هذا المسجد إذ حبسها فيه الملك والنبي التوراتي والقرآنی سليمان، الذي كانت له القدرة على أن يأمر الجن فيطیعوه. وباسم سليمان ترتبط عند المسلمين أطلال قصر ملكي قديم في بيرسبوليس غير بعيد عن اصطخر، شيده جن كانوا تحت سلطان سليمان كما كان الاعتقاد سائداً زمن المسعودي. ومن المحتمل أن المسعودي شاهد أيضاً على مقربة من هذا المكان نقوشاً من العهد الساساني منحوتة على الطرف الجنوبي لجبل حسين كيد الصخري كانت تعتبر في ذاك الزمان تصويراً لتأثير العملاق الإيراني الأسطوري رستم وتسمى بالفارسية (نقشی رستام). ويبدو أن

السعودي قد زار أيضاً ثلاثة أبراج قديمة تقع على مسافة ٤-٣ ساعات من اصطخر، ويسمىها السكان المحليون (قلعة اصطخر). وتقول الأسطورة إن هذه الأبراج كانت تحفظ (بستاه) المخطوط بأحرف من ذهب على ١٢ ألف رق من جلود البقر، أحرقت فيما بعد بأمر من الإسكندر المقدوني الذي احتل دولة ملوك إيران القدماء الأخمينيين، الأمر الذي كان معلوماً لدى السعودي أيضاً.

كانت اصطخر زمن زيارة السعودي لها مدينة متوسطة لا تزيد مساحتها عن ميل عربي مربع (٢كم٢). وقد تدهورت أوضاعها بعد الفتح العربي الإسلامي، واستلمت منها قصب السبق في مقاطعة فارس مدينة شيراز التي كانت زمن السعودي على مسافة يقطعها المسافر في يوم واحد. وفي شيراز كانت في انتظار رحالتنا لقيمة رائعة، إذ شاهد في منزل عائلة فارسية معروفة دعته لضيافتها مخطوطاً قدماً لكتاب تاريخي إيراني يصف حكم ملوك الساسانيين. وكانت المخطوطة، كما يقول السعودي، غنية برسومها، إذ تضمنت صوراً لسبعة وعشرين ملكاً، واعتبرها بمثابة مدونة تاريخية وضعت خلال حكم هذه السلالة بأكمله. ويخبرنا السعودي أن صور (بورتريهات) الملوك كانت ترسم في اليوم الذي يموت فيه هذا الملك أو ذاك. وبعد ذلك توضع صورة الملك مع وصف مآثره في خزنة ابتساء وصولهما إلى ذريته من بعده. واعتماداً على هذه المادة وضعت فيما بعد المدونة التي شاهدها السعودي، وفاحتها صورة مؤسس السلالة أردشير (٢٢٦-٢٤١) واقفاً وبideon رمح، وخافتها صورة صغيرة (منمنمة) لآخر ملوك الساسانيين يزدجرد الثالث واقفاً وبideon رمح، ويستند إلى سيف. وقد دهش السعودي لسطوع الألوان المستخدمة

في تزيين المخطوط ولجودة المادة التي كتب عليها، حيث وجد صعوبة في تحديد طبيعتها، أهي من الورق أم من الرق. وأغلب الظن انه عشر على أصل هذه المدونة المكتوب باللغة الفارسية الفهلوية، ويشدد على أنها ترجمت إلى اللغة العربية عام ٧٣١ لل الخليفة هشام بن عبد الملك. ولم يصلنا، للأسف، لا الأصل الفهلوى ولا الترجمة العربية، ولكن من الواضح تماماً أن تاريخ السلالة الساسانية التي يتناولها المسعودي بالوصف، وكذلك المدونات الإيرانية الأخرى، قد تركت أثراً هاماً على علم التاريخ العربي الإسلامي. ومن المحتمل أن العرب المسلمين قد أخذوا عن الإيرانيين مبدأ تقسيم المدونات إلى فصول مكرسة لعهد هذا الحاكم أو ذاك. وهذه المدونات المعروفة بتاريخ الملوك تشكل جزءاً هاماً من أدبيات علم التاريخ العربي الإسلامي. وفضلاً عن ذلك فقد استخدم المؤرخون العرب ومنهم المسعودي مواد من المدونات الإيرانية، بعد ترجمتها غالباً، في دراستهم تاريخ إيران في عهد الساسانيين.

وبعد أن تعرف المسعودي على عراقة مدينة اصطخر توجه جنوباً إلى مدينة جور التي بناها أردشير، أول شاهنشاه ساساني، في القرن الثالث للميلاد. وكانت في أول عهدها على شكل دائرة يحيط بها سور له أربعة أبواب حسب جهات الأرض الأربع. وربما كان مخطط بنائها هو النموذج الذي أخذ به الخليفة المنصور عند بناء بغداد. وفي مركز جور شيد برج على قمته هيكل النار. وقد شاهد المسعودي أطلال هذا البرج، وأشار في مؤلفاته إلى أن العرب دمروه. وعلى مسافة ساعة مسيرة من جور شاهد المسعودي معبداً آخر من معابد النار، ويبدو أنه قد حضر هناك عيداً لأتباع هذه الديانة. ويستطرق رحالتنا إلى الحرف في جور،

ويشير على وجه الخصوص إلى اشتهر المدينة بتحضير مااء الورد (من أهم المواد العطرية في الشرق) الذي كان معروفا في كل أنحاء دولة الخلافة.

كانت جور أقصى نقطة جنوب إيران يصلها المسعودي أثناء رحلته هذه. وهنا يقرر التوجه إلى منطقة الشمال الشرقي من هذا البلد. وبعد رحلة طويلة مع إحدى القوافل دامت بضعة أسابيع وصل إلى نيسابور، إحدى أهم مدن خراسان، التي بناها شابور الأول (٢٣٩-٢٧٢م) ابن الشاه الساساني الأول أردشير، وقد احتفظ اسم المدينة باسم مؤسسها، فكلمة (نيسابور) تعني (شابور الجميل). وعلى جبل راوند بالقرب من المدينة، كان لا يزال قائما في تلك الفترة أحد أهم المعابد الزرادشية في إيران، هو معبد بورزن مهر، الذي تقول الأسطورة (كان المسعودي على علم بها) أن رائد الزرادشية بالذات قد شيده. وتفيد أخبار العديد من الجغرافيين العرب المسلمين بأن نيسابور مطلع القرن العاشر كانت مدينة كبيرة مربعة التخطيط تقريبا، يعادل طول كل ضلع من هذا المربع ستة كيلومترات (فرسخ واحد)، وكانت تقسم إلى ٤٤ حياً تحيط بالقلعة القدية متراصةً متلاصقةً. وكان يوجد بالقرب من القلعة مسجد جامع جديد نسبياً شيد في النصف الثاني من القرن التاسع أخوه القائد العسكري والحاكم الذي مر ذكره يعقوب بن ليث الصفار. وجدير بالإشارة هنا إلى أن الصفار خاض صراعاً طويلاً ضد سلالة الطاهريين للسيطرة على نيسابور، وتمكن في نهاية المطاف من السيطرة عليها عام ٨٧٣ وأسر آخر حكام الطاهريين محمد. وبعد وفاة الصفار في العام ٨٩٢ عن الخليفة أخيه عمرو الذي بنى المسجد، حاكماً على خراسان. وقرر عمرو أن

يتخذ نيسابور عاصمة له، ولكنه لم يسعد طويلا في عاصمته الجديدة؛ فقد لقي أواخر القرن التاسع نفس المصير الذي لقيه محمد الطاهري الذي أسره الصفار، وذلك عندما استولى السامانيون على نيسابور وأسروا عمرو.

وأخيراً توجه المسعودي من نيسابور إلى مدينة بلخ الشهيرة (بكترا قديماً) مركز مقاطعة باكتريا التي سميت فيما بعد طهرستان. أما العرب الذين استقروا هنا بشكل نهائي عام ٦٦٣ فقد سموها " أم البلاد ". وتعود جذور بلخ الأولى إلى غابر الأزمان. وبعد أن استولى عليها الإسكندر المقدوني في القرن الرابع قبل الميلاد أطلق عليها اسم الإسكندرية، وأمر بإعادة بنائها على الطراز الإغريقي. ولقد انهارت إمبراطورية الإسكندر بعد ذلك بوقت قصير، ولكن التقاليد الثقافية الإغريقية المقدونية تجذرت في باكتريا بالرغم من ذلك، وأدى اندماجها بالتراث المحلي إلى ولادة الثقافة الإغريقية الباكتيرية. تقع بلخ عند تقاطع طرق تجارية، وفي نقطة تلاقي مؤثرات ثقافية متباعدة الأصول، ولذلك انتشرت فيها أوائل العصر الوسيط عقائد دينية مختلفة كالبوذية والزرادشتية والمانوية والنسطورية (مذهب مسيحي). وكان من أهم المراكز الدينية في بلخ الدير البوذي النوبهار الذي تنتقل رعايته (السدانة) بالوراثة بين أجداد البرامكة، سلالة وزراء الخلفاء العباسيين التي مر ذكرها في الفصل الأول من كتابنا هذا حيث تحدثنا، نقلاً عن المسعودي، عن نهايتها المأساوية في عهد الخليفة هارون الرشيد. لقد أدرك العرب بعد أن استقر بهم المقام في بلخ أنهم لن يتمكنوا من الشبات هنا ما لم يستأصلوا المعتقدات المحلية من جذورها، ولذلك فإن

أول ما قام به الضحاك بن قيس الذي استولت قواته على بلخ، هو تدمير النوبهار والأماكن المقدسة عند الديانات الأخرى. لم يُقدر للمسعودي أن يشاهد غير أطلال ما كان ذات يوم بناء عظيماً، ويبدو أنه استوضح من السكان المحليين عن ماضي الدير كما تدل على ذلك بعض التفاصيل. وق肯 رحالتنا من التتحقق من أن النوبهار كان مالك أراض زراعية كبيرة، وأن راعي الدير كان يحمل لقب برملك الذي جاء منه اسم عشيرة البرامكة وزراء الخلفاء العباسيين. وتفييد معلومات المسعودي بأنه كان ينتصب في وسط الدير برج على قمته رماح ورایات برتقالية اللون طول كل منها مئة ذراع (يرمز اللون البرتقالي في البوذية إلى فناء العالم). وذات مرة اقتلت الريع إحدى هذه الرايات، ومن ثم عشر عليها على بعد أكثر من ٥ فرسخاً (٣٠٠ كم) عن بلخ.

تقع هذه المدينة على نهر أموداريا (جيحون) الذي يصفه المسعودي بتفصيل واف. ويحظى بحر آرال الذي يصب فيه هذا النهر، باهتمام المسعودي الذي يبدو أنه وصل في رحلته إلى هذه المنطقة. ويخبرنا نقلاً عن شهود عيان أن آرال أكبر بحيرة على وجه الأرض، فطولها يعادل المسافة التي يقطعها الرجل في غضون شهر، والملاحة فيها على درجة كبيرة من التطور. ورحالتنا على علم بأن قبائل تركية تقطن غير بعيد عن هذا البحر، وان الأغوز الغزية يحتلون موقع السيادة بين هذه القبائل، " وهم نوع من الترك وأشدتهم بأساً وأحسنهم صورة وأطولهم قامة وأصبحهم وجوهاً ". وعلى رأس الغزية ملك يسمونه " خاقان ". ومن المجموعات التركية التي يرد ذكرها عند المسعودي الكارلوك والكيماك. كان يتتردد على بلخ عدد غير قليل من التجار الهنود. ولا شك في

أن المسعودي كان قد رأى هنودا في بغداد حيث كانت توجد، كما رأينا، أسواق خاصة لكتاب التجار الهنود والصينيين. وكان من بين سكان بلخ الأصلبيين من سافروا إلى الهند وجلبوا منها العديد من المواد العجيبة والحكایات المدهشة عما شاهدوه، ولذا ليس ثمة ما يدعو للاستغراب في أن يقرر رحالتنا الشاب الذي تأثر بما سمع، الاطلاع بنفسه على جمال هذا البلد.

إلى عجائب الهند

استخدم المغравيون العرب المسلمين مصطلح "الهند" للدلالة على الهند ذاتها، وكذلك على بلدان شرق آسيا. وكانوا يسمون الجزء الشمالي الغربي منها، أي باكستان الحالية، "السندي". وقد فتح العرب المسلمين هذه المنطقة في مطلع القرن السابع، وخضعت الإمارات المحلية الصغيرة للجيش العربي الذي كان على رأسه القائد الشاب محمد بن القاسم الذي وصل إلى السندي في العالم ٧١٢م. وبعد أن استولى على أهم مدن السندي وصل إلى نهر الهند، ولكنه لم يتجرأ على مواصلة تقدمه لأن شمال غرب الهند تفصله عن بقية أجزاء هذا البلد صحراء شاسعة لم يُقدم ابن القاسم على اقتحام أهواها بالرغم من أن العرب ألفوا العيش في الصحراء. وهكذا بقي وسط وجنوب شرق الهند بمنأى عن الفتح العربي الإسلامي في القرن الثامن للميلاد. أما السندي فقد غدت إقليما من أقاليم دولة الخلافة عليه وال. وانتشر الإسلام فيها لأنه دين الفاتحين وحسب، بل ولوجود عناصر ديمقراطية في العقيدة الإسلامية هي بقايا الأيديولوجية القبلية، ولبساطة طقوس العبادة

والشعائر الدينية مقارنة بالديانة الهندوسية. ولقد اجتذبت مزايا الديانة الجديدة هذه العديد من الهنود. أما المناطق الأخرى من هذا البلد فقد راح الإسلام ينتشر فيها عن طريق التجار ونشاط الدعاة.

وفي القرن التاسع اشتدت النزعات الانفصالية في دولة الخلافة، وقامت في السندي بضع إمارات إسلامية اعترفت بسلطة الخليفة أسميا فقط. وكان أكبر مركزين لهذه الإمارات في المولتان والمنصورة. وكانت المولتان أول مدينة هندية يصلها المسعودي ضمن قافلة قادمة من بلخ. ومن المعالم الهامة في المدينة التي لفتت انتباه رجالتنا كان معبد هندوسي يحتمل أنه لأحد آلهة الشمس، مزین بتمثال ذهبي بديع ظن المؤرخون العرب المسلمين خطأ أنه تمثال بودا. وكان المعبد والتمثال موضع إجلال كبير عند ملوك الهند من أتباع المعتقدات الهندوسية الذين حاولوا مرارا الاستيلاء على المولتان. ولكن الأمير المحلي في مطلع القرن العاشر وهو، حسب المسعودي، أبو اللهاب المنبه بن أسد القرشي، كان يهددهم كل مرة بتدمير المعبد والتمثال فيبعدون قواتهم عن أسوار المدينة.

توجه المسعودي من المولتان إلى المنصورة التي كانت عاصمة السندي العربية الإسلامية، وسميت كذلك لأن مؤسسها هو الوالي منصور بن جمهر الذي بناها عام ٨٧١ على مقربة من مدينة براهمن آباد الهندية القديمة. وهنا انكب المسعودي على دراسة هذا البلد الجديد عليه، علما بأنهقرأ باهتمام ومنذ كان في بغداد "كتاب الآراء والديانات" للحسن ابن موسى النوبختي (توفي مطلع القرن العاشر) وكتاب "عيون المسائل والإجابات" لأبي القاسم البلخي (توفي عام ٩٣١) اللذين يتحدثان عن ديانات الهند، كما أنه درس بعناية الأعمال الجغرافية

لليعقوبي وابن خرداذة وابن روسته التي تضمنت معلومات هامة عن جغرافيا وإثنوغرافيا هذا البلد. و بالرغم من ذلك فإن أمورا كثيرة كانت جديدة ومفاجئة للمسعودي هنا. ويمكننا القول بشقة إن المعلومات التي قدمها عن الهند كانت ثمرة مشاهداته ومتابعاته وأبحاثه الخاصة.

أعماق المسعودي اهتمامه بالدرجة الأولى لخصوصيات المظاهر الخارجية والحالة البدنية عند الهنود، فهم حسب رأيه، الذي يعززه رأي الطبيب الإغريقي المرموق جالينوس، أقرباء الزوج من حيث المواصفات الأنثروبولوجية، أي أنهم ينتمون إلى العرق الزنجي. "والسود يتميزون بتقليل الشعر وانتشار المنخرتين وكثرة الطرف" ، والهنود يمتازون بصحة جيدة ويهتمون كثيرا بالمحافظة عليها. على أن الحقيقة هي أن الأوصاف التي يرسمها المسعودي لهيئة الهنود الخارجية أكثر انطباقا على سكان الهند الجنوبية، وليس على سكان السندي. ومن المحتمل أن المسعودي عندما أورد هذا الوصف في كتابه " مروج الذهب " ، الذي شرع بكتابته بعد عشرين عاما من رحلته إلى الهند، كانت قد غابت عنه بعض الأمور، ولم يسجل إلا انطباعاته الأكثر سطوعا عن مظهر الهنود.

لقد سأل المسعودي السكان المحليين عن الأنهار التي تجري في السندي وتوصل إلى أن الهند نهر بذاته يصب في البحر، وبذلك دحض رأي سلفه الكاتب الشهير الجاحظ، الذي كان يظن أن الهند رافد للنيل لأن التماسيع تعيش فيها كلبيهما. ولم يكن المسعودي بالطبع ليغفل فرصة مشاهدة هذه الحيوانات المفترسة الرهيبة. لقد كانت التماسيع تشير خوفا كبيرا عند الناس، لأنه لم تكن لديهم معلومات دقيقة عنها. وقد اضطر رحالتنا أيضا أن يرضى بأقوال وأحاديث الناس المحليين. ولعل

هذا الأمر وحده هو ما يفسر ثقته بأن التمساح ليس له دبر، ولذلك يتکاثر الدود في معدته مما يسبب له ألمًا شديدا، وعندئذ يزحف إلى الشاطئ ويستلقي فاغرا فاه فتأتي الطيور وتأكل ما تراكم فيه من فضلات. ولكن قد تأتي مع هذه الطيور دوببة لا يتتجاوز طولها طول المرفق على صورة ابن عرس، ولها قوائم شتى ومخالب فتدخل جوفه وتخرقه ثم تخرج. وبعد أن تقضي عليه تبحث عن ضحية جديدة. إن هذه الشائعة الشعبية، وحكاية المسعودي، تعكسان حقيقة وجود طيور تنطف فاه التمساح من بقایا طعامه.

وصل المسعودي إلى المنصورة بعد أن قطع مسافة طويلة بين أكبر مدينتين في السندي تقدر بحوالي ٧٥ فرسخا، أي ٤٥ كم. ويبدو أنه حضر هنا حفل استقبال في قصر الأمير أبي المنذر عمر بن عبد الله، وشاهد المحاكم نفسه وزيره ولديه والعديد من وجهاء المسلمين. وفي المنصورة أيضا شاهد المسعودي لأول مرة في حياته فيلاً تشكل قبة رهيبة. أشار إلى أنه يوجد ضمن قوات الأمير ثمانون فيلاً تتشكل قبة رهيبة. وهنا سمع المسعودي بقصة الفيل القائد بين أفيال الأمير المقاتلة وكان يدعى مانفرقليس. فذات مرة كان هذا الفيل يتقدم بقبة الفيلة في أحد شوارع المدينة، وفجأة ظهرت أمامه على الطريق امرأة تزحلقت رعبا، ووَقَعَتْ أمام ساقيه مباشرة فكاد يدهسها. ولحسن الحظ تمكن الفيل من التوقف في الوقت المناسب، وساعد بخرطومه المرأة المرتعبة على النهوض. وعندما أخللت الطريق أعطى الإشارة لرفاقه الفيلة لمواصلة المسير. ويروى عن هذا الفيل أيضا أنه مات بعض سواسه فمكث أيامًا لا يطعم ولا يشرب، يبدي الحنين ويظهر الآنين كالرجل الحزين، ودموعه تجري من عينيه لا تنقطع. (الفيلة إذاً غير خالية من المشاعر!).

ومن المنصورة توجه المسعودي إلى أهم ميناء في السندي هو مينا،
الديبل الذي يسميه الهندو ديبل أو ديوال، أي ما معناه "المعبد" ، إذ
كان يوجد في هذا المينا قبل الفتح العربي الإسلامي معبد بوذى فيه
برج على شكل هاون، وهو مكان لإقامة طقوس العبادة يشبه قبة ترمذ
لسرعة انقضاء الكينونة، ويمثل مدفنا لرفات بودا وتلاميذه وغيرهم من
قديسي البوذية. وترفرف فوق الهاون راية كبيرة برقالية اللون تعتبر،
كما تمثال الأسد عند بوابة أصفهان، طلسمًا يحمي المدينة من الأعداء.
ولكن قوات محمد بن القاسم التي حاصرت المدينة في العام ٧١٢
تمكنت من إسقاط الراية والجزء الأعلى من البرج - الهاون بقذائف
المنجنيق، وسرعان ما سقطت المدينة المينا في أيدي العرب المسلمين،
فمنع ابن القاسم سكانها وضع أتباع ديانة معترض بها رسميًا، أي
ذميين، وشيد هنا أول مسجد في السندي، وأسكن أربعة آلاف عائلة
عربية في الأحياء التي أعيد بناؤها من جديد. وفي أواسط القرن التاسع
تحول البرج إلى سجن. وبعد بضعة قرون من زيارة المسعودي إلى الديبل
تدحرج وضع المينا وراح السكان يهجرون المدينة بالتدريج، ولم يعد
يعرف الآن أين كانت بالضبط.

لقد غادر المسعودي الديبل متوجهًا على الأرجح نحو ساحل الهند
الغربي، إلى أكبر دولة في هندوستان ذاك الزمن، أي إمبراطورية
الراشتراكورت التي كان يحكمها إنдра الثالث حوالي ٩٢٨-٩١٤م،
وذلك إبان الفترة التي كان المسعودي يقوم فيها برحلته في ربوع الهند.
يقول المسعودي إن هذه الدولة تسمى "البلهرا" ، ويشير أيضًا إلى
اتساع مساحتها، ويدرك أسماء عاصمة الإمبراطورية، مدينة مانكير،

وعدد من المدن الأخرى التي زار بعضها، ومنها كامباي وسندان وصوبارة وتانة وصيمور. ويرى المسعودي، وهو مصيبة في ذلك، أن الكيان السياسي القوي الآخر في الهند ذاك الزمن هو دولة القنوج الواقعة شمال شرق إمبراطورية الراشتراكوت التي تناصبت العدا، معها ومع الإمارات الإسلامية في الهند سواء بسواء. وبعد عام واحد من زيارة المسعودي إلى الهند سحق إنдра الثالث قوات دولة القنوج واستولى على عاصمتها. ويشير رحالتنا بسرور كبير، في معرض حديثه عن دولة الراشتراكوت، إلى أن أبناء دينه المسلمين يتمتعون فيها بامتيازات كبيرة، ولديهم العديد من المساجد التي يقيمون فيها صلواتهم بانتظام، واستناداً إلى أقوال سكان هنود يرى المسعودي أن استقرار وقوة هذه الدولة يعودان إلى أن ملكها يوفر الرعاية للمسلمين، بل واقتبس عنهم طريقة تنظيم الجيش، أي الإنفاق عليه من خزينة الدولة، "وهو ملك يرزق الجنود من بيت ماله كفعل المسلمين بجنودهم". ولكن حقيقة الأمر غير ما يراه المسعودي هنا، إذ أن أسلوب تجهيز الجيش النظمي الذي يتلقى إعاسته (مرتباته) من خزينة الدولة أسلوب ذو منشأ هندي محل ولا علاقة له، بشكل من الأشكال، بالنظام العسكري لدولة الخلافة.

ما كان المسعودي، الذي اهتم بالعديد من مجالات حياة الهند في عصره، ليمر مرور الكرام أمام ظواهر بالغة الأهمية كلغات شعوبها ومعتقداتها الدينية. ويشير في هذا الصدد إلى أن لغة سكان السند لا تشبه لغات غيرهم من سكان مناطق هندوستان الأخرى، ففي دولة الراشتراكوت توجد حسب ملاحظته لهجتان: الأولى هي لهجة المناطق

الوسطى من الدولة وخاصة العاصمة مانكير، والثانية تلك السائدة بين سكان ساحل الهند الغربي الذي يسميه المسعودي " لار ".

كان رحالتنا أول مؤلف عربي إسلامي يقدم معلومات هامة عن المنظومة الدينية الرئيسة في الهند، أي الهندوسية. وهذه المعلومات هي، على الأرجح، ثمرة متابعته الشخصية لحياة الهندود الدينية في دولة الراشتراكوت. فقد كان المسعودي مثلاً، على دراية بوجود نظام الطوائف الاجتماعية المغلقة " كاست ". وهو يفسر منشأ هذه الطوائف على النحو التالي: في الأزمنة الغابرة سادت الهند مساواة بين البشر. وفيما بعد فإن أبناء الذوات الذين بلغ اعزازهم بأنفسهم مبلغاً، قاموا باختيار ملك لهم هو الراهمن الأكبر، أي براهما أحد آلهة الهند، وبدأت الحضارة في الهند منذ ذلك الحين، فظهر الحكماء الفلاسفة، وأخذ الناس ببناء المعابد واستخراج الحديد، وتأليف الكتب في مجال الرياضيات وعلم الفلك. وسليلو الراهمن هم الراهمة الذين يشغلون مكانة خاصة في المجتمع الهندي، "ويضعون في رقاب الرجال والنساء منهم خيوطاً صفراء يتقلدون بها كحمائل السيوف ". أما الطوائف الأخرى فلا يرد لها ذكر عند المسعودي. وكان رحالتنا على معرفة أيضاً بأن الهندوسية توصي أتباعها بطقوس حرق الجسد بغية بلوغ الغبطة في العالم الآخر. وقد شاهد المسعودي مثل هذه الطقوس في صيمور، إذ طلب شاب من حاكم المدينة السماح له باعتلاء المحرقة فأجيب طلبه. وذات يوم خرج الشاب إلى الشارع رفقة أقربائه وقد ارتدى ثياباً من حرير ما لبث أن قام بتمزيقها منها بذلك لما هو مقدم عليه. وكان إكليل من الريحان على رأسه الذي قُشر جلده، وجمرات مشتعلة على هذا الرأس النازف. ووصل

إلى المحرقة على قرع الطبول، وهنا بقر بطنه بخنجر، وقطع قسما من كبده وأعطاه لأحد مرافقيه تعبيرا منه عن ازدرائه الموت وسروره بفارقة الحياة، ثم ألقى بنفسه في النار المتأجحة. ويضيف المسعودي أن بضعة أشخاص يحرقون أنفسهم عندما يموت الملك. ويصف طقوس الدفن بالتفصيل مشيرا إلى أن جسد الملك المتوفى يحرق وينشر رماده في الهواء.

وينهي المسعودي خلال تجواله في ربوع الهند ما كان له إلا أن يعجب بطبيعتها الجميلة أيا إعجاب. ولم يقتصر في وصفها على الفيلة والتماسيخ، بل تعدى ذلك إلى البيغاوات ووحيدات القرن وظباء المسك التي تعيش في التيبت. ويفسر كثرة النباتات وتنوعها في الهند بكونها المكان الذي هبط فيه آدم من الجنة، وبأن آبا البشر حمل معه جعبة فيها من بذور نباتات الجنة ما وهب الحياة لنباتات الهند، وقد جف ما كان على آدم من أوراق نباتات الجنة فذهبت بها الريح كل مذهب، ونشرتها في بلاد الهند، ونشأت منها أنواع الطيب الهندي والمجوهرات.

في بحر الحبشة

غادر المسعودي الهند أواخر العام ٩١٦ باتجاه ساحل أفريقيا الشرقية الذي كان بحارة جنوب الجزيرة العربية على خير معرفة به منذ قديم الزمان. كان الإبحار في المحيط الهندي الذي يسميه المسعودي "البحر الحبشي" كثير المخاطر. ويرجع أن يكون المسعودي قد ركب سفينة عربية، إذ ربما أراد أن يكون رفقة أبناء جلدته بعد فترة طويلة من الغربة. تميزت المراكب العربية آنذاك، مقارنة بالصينية على سبيل المثال،

بحجومها الصغيرة، وغالباً ما كانت تتعرض للحوادث. ولقد زار الرحالة الإيطالي الشهير ماركو بولو (١٢٥٤-١٣٢٤) العديد من بلدان الشرق في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، وشاهد سفن البحارة العرب فوصفها قائلاً "إن السفن عندهم (عند العرب) رديئة ويتعرض للهلاك عدد غير قليل منها، وأجزاؤها ليست مشدودة إلى بعضها بالمسامير الحديدية، بل بحبال من شجر جوز الهند، فهم يدقون لحاء هذه الشجرة حتى تغدو كشعر الخيل، ثم يجدلون منها حبالاً يشدون بها أجزاء المركب. وهذه الحال متينة ولا تتأكل بسبب المياه المالحة. وللسفينة عندهم سارية واحدة وشراع واحد ومدافن واحد، وليس لها غطاء. وبعد تحميلها يضعون جلوداً فوق الحمولة، وفوق الجلود يوثقون الخيل. والإبحار على هذه المراكب محفوف بالمخاطر، فالعواصف في بحر الهند كثيرة، والعديد من هذه المراكب يتعرض للهلاك". وبالرغم من كل المخاطر وصلت سفينة المسعودي إلى شواطئ أفريقيا الشرقية بسلام. وأعتقد أن هذه السفينة أبحرت أولاً بمحاذاة الساحل الأفريقي نحو جزيرة "بيمبا" الواقع بالقرب من شاطئ تنزانيا الحالية (ويسمى رحالتنا هذه الجزيرة "كانبالا") ومن ثم عادت أدراجها. وفي طريق عودتها كانت ترسو أحياناً لتفرغ حمولتها بمحاذاة شواطئ تنزانيا والصومال وإثيوبيا الحالية. وبعد ذلك تابعت سيرها بمحاذاة الساحل الجنوبي والجنوبي الشرقي لشبه الجزيرة العربية حتى وصلت إلى إيران.

ويخبرنا المسعودي أن جزيرة بييمبا تقع على مسافة يومين من اليابسة، وأن كانبالا (بيمبا) يحكمها مسلمون يشكلون مجموعة مهمة من السكان. ويبدو أن هؤلاء المسلمين عرب قدمو من المناطق الجنوبية

لشبه الجزيرة العربية وإيران فتأقلموا فيها بدرجة كبيرة، وكانوا يتكلمون لغة الزنج. والزنج من اللفظ الإيراني " زانجي " أي أسود. وقد أطلق العرب المسلمين هذه التسمية على السكان السود في أفريقيا جنوب الصحراء. وتعيش في هذه الجزيرة مجموعة مهمة من السكان الأصليين لم تعتنق الإسلام، ويبدو أنها حافظت على معتقداتها الدينية التقليدية. وتتصف شهادة المسعودي بأهمية كبيرة بالنسبة لدراسة تاريخ أفريقيا الشرقية، إذ أنها من أقدم الإشارات في الكتابات التاريخية المغравافية العربية الإسلامية إلى وجود ثقافة ولغة السواحيلي التي نشأت نتيجة امتصاص العناصر المحلية الأصلية مع العناصر الوافدة، أي العربية الإيرانية. لقد أولى المسعودي كبير الاهتمام لمعيشة قبائل البر الأفريقي، فوصف أحد كيانات الدولة الطبقية المبكرة في الجزء الشرقي من أفريقيا. وحسب المعلومات التي يوردها، فإن لقب ملك الزنج هو " قليمي " أو " فليمي " الذي يعني ابن السيد الأكبر، وبخلع على الملك لأنه ملزم بأن يحكم بالعدل. وإذا ما تجاوز الملك حد المباح ويبلغ حد الظلم يقوم الزنج بقتله، ويجعلون شخصا آخر ملكا مكانه. وكان الزنج، شأنهم شأن العديد من الشعوب التي كانت على الدرجة ذاتها من التطور الاجتماعي، يقدرون الفصاحة عالي التقدير. واشتهر بعضهم، كما يقول المسعودي، كخطباء مفوهين يجمعون جمهورا كبيرا من أبناء القبيلة ويناشدونهم السير في طريق الحقيقة والعدالة. لم يكن للزنوج أبجدية، وبالتالي لم يكن لديهم شريعة يرجعون إليها، ولذلك يسترشدون، كما يلاحظ المسعودي، برسوم للوکهم وأنواع من السياسات يسوسون بها رعيتهم.

لقد رأى المسعودي أن مجتمعات شرق أفريقيا التي درسها تختلف اختلافاً بيناً عن بلدان دولة الخلافة في المجالين الثقافي والاقتصادي. ويشدد على أن أدوات العمل لدى الزنج ضعيفة التطور، وأنهم يصنعون الحلي من الحديد لا من الذهب أو الفضة. وهذه ملاحظة صحيحة، إذ أن المجتمعات الطبيعية الباكرة كالبيونان، في ما يسمى حقبة هوميروس، كانت تستخرج كميات قليلة جداً من الحديد الذي كانت قيمته على قدم المساواة مع الذهب، بل وأثمن منه أحياناً. وإنه لأمر طبيعي تماماً أن تكون أدوات الزينة في أفريقيا قدّيماً مصنوعة من المعدن الأثمن. ويقول المسعودي إن الزنج لا يعرفون الخيل، وإنهم يستخدمون الأبقار للرکوب وللحتياجات الاقتصادية. أما الصيد فيلعب دوراً هاماً في حياة قبائل شرق أفريقيا، وخاصة صيد الفيلة. ويضيف المسعودي أن الفيلة موجودة في هذه المنطقة بكثرة، وأنها، خلافاً لفيلة الهند، غير قابلة للتدجين، ولذلك لا يستخدمها الزنج في الحرب ولا في العمل. ولصيد الفيلة يقوم الزنج بوضع أوراق وأغصان من نبات معين، له خاصية تخديرية، في الأماكن التي ترتادها الفيلة للشرب، ويختبئون بالقرب منها. وبعد أن تشرب الفيلة وتأكل هذه الأغصان والأوراق تسقط مغمياً عليها فيخرج الزنج من مكانتهم ويقتلونها بواسطة حراب كبيرة خاصة لهذا الغرض. وعلى ما في طريقة الصيد هذه من سهولة وراحة، فالأرجح أن تكون من ابتكار التجار العرب الذين كانوا يبادلون الأفارقة العاج بأشياء أخرى. وكان الزنج يعتبرون العاج غنيمة الصيد الرئيسة التي يقتلون الفيلة من أجلها. وتتميز الفيلة الأفريقية، حسب المسعودي، بأنها كبيرة جداً يزن كل منها ٣٠٠ - ٤٥٠ مان (٩٠٠ - ٤٥٠ كغ). وهذا، بالطبع، أمر

ضعيف الاحتمال جداً. وكان العاج ينقال من بلاد الزنج الى عُمان ومنها إلى الهند والصين حيث كانت له استعمالات عديدة. ويعبر المسعودي عن أسفه لأن قسماً كبيراً من هذه السلعة القيمة كان ينقل إلى الهند والصين، "فلولا ذلك لكان العاج بأرض الإسلام كثيراً". والزنج الذين كانوا يستخدمون العاج على نطاق ضيق استخدموه جلود الفيلة على نطاق واسع في صناعة الدروع. وفضلاً عن العاج، كما يقول رحالتنا، كانت جلود الأسود والفهود وقررون الحاموس والغزلان تستجلب من مناطق أفريقيا الاستوائية، وكذلك دروع السلاحف التي كانت مادة لصناعة الأمشاط.

ويتطرق المسعودي إلى جانب هام من جوانب حياة الأفارقة اليومية، أي الغذاء، مشيراً إلى أن الزنج يأكلون الموز الذي ينتاب بكثرة في شرق أفريقيا، وكذلك الذرة والعسل والدرنيات واللحوم أيضاً.

وفضلاً عن الفيلة لفت الزرافة أيضاً انتباه المسعودي الذي يبدو أنه رأها لأول مرة في شرق أفريقيا تحديداً. وكان قد سمع بها وقرأ عنها في بغداد، إذ كانت نوعاً من الهدايا العجيبة التي تجلب خصيصاً للملوك الساسانيين والخلفاء العباسيين. وبيورد المسعودي ثلاثة وجهات نظر عن الزرافة. فبعض العلماء العرب المسلمين يعتبرونها نوعاً من الجمال، والبعض الآخر يرى أنها هجين من الإبل والنمور، بينما يرى البعض الثالث أنها نوع مستقل بذاته كالخيل والحمير والبقر. والمسعودي يصف الزرافة على نحو غريب، إذ يفترض أن لهذا الحيوان قوائم أمامامية طويلة وقوائم خلفية قصيرة، وأن الركبتين لقوائمها الأمامية فقط. وحسب رأي الجاحظ العالم والكاتب العربي الإسلامي الكبير في القرن التاسع والمراجع

الشقة عند المسعودي، فإن الزرافة هجين من حيوانات مختلفة تلتقي عند ورودها الماء في أعلى النيل.

وتتابع المسعودي رحلته نحو الشمال. فمررت سفينته بمحاذة شواطئ الحبشة التي يقول عنها إنها بلد شاسع يحكمه النجاشي إمبراطور الحبشة. وبعد أن دارت سفينته رحالتنا حول القرن الأفريقي توافت بجزيرة سوقطرة الواقعة قبالة شاطئ اليمن الحالية. واشتهرت هذه الجزيرة بنوع مميز من الصبر "الند" الذي كان يُصدر إلى بلدان أخرى. ويبدو أن الصبر السوقطري الشهير قد ساهم في ابتداع حكايات مختلفة يورد المسعودي واحدة منها تقول إن الإسكندر المقدوني أرسل، بناء على نصيحة معلمه أرسطو، خلقا من اليونانيين إلى جزيرة سوقطرة، وقد حافظ هؤلاء كما تزعم الحكاية، على لغتهم ونسبهم أيضاً، حتى زمن المسعودي. ويرى رحالتنا أن سوقطرة هي المكان الوحيد على الأرض الذي بقي فيه إغريقيون أنقياء لم تمتزج دمائهم بدماء غيرهم. وبالفعل، فقد كان لا يزال في زمن المسعودي يعيش في هذه الجزيرة سليلو المهاجرين الإغريق الذين حافظوا على لغتهم وعاداتهم ودينهم المسيحي. ولكن أسلافهم لم يأتوا إلى سوقطرة في زمن الإسكندر، بل في العصر الهلبي.

غادر المسعودي سوقطرة مبحراً بمحاذة الشاطئ الجنوبي الشرقي لشبه الجزيرة العربية ونزل في أهم ميناء عُماني هو مينا سبارخار الذي كان صلة وصل تجارية بين اليمن والعراق والصين. وبالرغم من الهزات العديدة كان هذا المينا يزدهر ويزداد ثروة من يوم لآخر، وكان الكثير من البيوت فيه مشيداً من القرميد وخشب الساج الشمين على شاطئ البحر.

و عند الخليج مباشرة شيد مسجد جامع جميل ذو مئذنة عالية مكسوة بتربيعات متباينة الألوان.

في ربوع الوطن

دامت غيبة المسعودي عن بغداد مالا يزيد عن عامين، ولكنه تمكن خلال هذه المدة القصيرة من زيارة إيران والهند وشواطئ شرق أفريقيا. وكان عليه بعد هذه الرحلة أن يتمثل ما شاهده ويرتّب ما دونه من ملاحظات، وأن يسد ما لمسه أثناء ترحاله من نقص في معارفه. من المعلوم أن المسعودي، وبعد بضعة أشهر من عودته إلى بغداد، انطلق إلى المركز التجاري الثاني في العراق بعد بغداد، أي إلى البصرة الواقعة على سطح العرب الذي يتشكل من التقاء دجلة والفرات. وقد قام المسعودي برحلته هذه على مركب نهري مخر به مياه دجلة.

ووفقا لما يورده المسعودي في "كتاب التنبية والإشراف" من تصنيف للمدن التي شيدت في ظل الإسلام عندما تجاوز هذا الدين إطار شبه الجزيرة العربية، فإن البصرة تحمل المرتبة الأولى، إذ أنها أول مدينة أسسها العرب المسلمين على أرض استرجعواها من الساسانيين. وكان الخليفة الثاني عمر بن الخطاب قد أمر عام ٦٣٨ قائد القوات العربية الإسلامية في العراق، أحد صحابة رسول الله عتبة بن غزوان، أن يبني مكان الموقع الإيراني الحصين المهجور الذي كان يسميه العرب (الخريبة) معسكرا (دار الهجرة) ليكون مصدر قوة عسكرية لمواصلة الفتوحات. فشيدت البيوت في البصرة بادئ الأمر من القرميد الخام (اللبن). وفي النصف الثاني من القرن السابع، في عهد الوالي الأموي زياد بن أبي

سفيان، بدأ تشييد مبانٍ من القرميد المشوي، وخاصة المسجد الجامع وقصر الوالي. وقسم زياد بن أبي سفيان المدنية إدارياً إلى أخمس (خمس مناطق) أسكن في كل منها بدواً تعود أصولهم إلى مجموعة قبلية معينة.

بقيت البصرة طيلة سينين عديدة مركز الحياة الفكرية في العراق، ففيها ظهرت قواعد اللغة العربية وتعاليم المعتزلة الدينية الفلسفية التي تحدثنا عنها بإيجاز في الفصل الثاني من هذا الكتاب. وفي البصرة أيضاً عاش رواة الحديث المتضلعون وجامعاً المعلومات عن تاريخ الدولة العربية الإسلامية. وفيها ولد الشاعران العربيان الكبيران بشار بن برد وأبو نواس، وعاش وعمل كتاب النثر المشهورون: عبد الله بن المقفع وسهل بن هارون والماحظ.

كان تاريخ البصرة كغيرها من مدن الخلقة تاريخاً عاصفاً. وثورة الزنج إحدى الصفحات الأكثر سطوعاً وتراجيده في هذا التاريخ، إذ كان عشرات الآلاف من العبيد يعملون في تحجيف المستنقعات في ظروف غير إنسانية. وكان على رأس هذا التمرد الذي دام من العام ٨٦٩ حتى العام ٨٨٣م رجل من أتباع فرقة الأزارقة الإسلامية المتطرفة، هو علي بن محمد البرقعي الذين أعلن نفسه خليفة. وكانت "المختارة" الواقعة أسفل شط العرب والعاصمة التي أعيد تأسيسها لدولة الزنج، مركزاً لحركة التمرد. استولى المتمردون على البصرة وعلى مدينة الأهواز التجارية الهامة في إقليم حوزستان الإيراني. وسرعان ما استطاب علي بن محمد وأصحابه المقربون طعم السلطة، فراحوا يسلبون بلا رحمة سكان المناطق التي استولوا عليها. ويورد المسعودي معلومات هامة عن التمرد في

كتابه " مروج الذهب " ويقول إن نساء عربيات أسرن في المختارة كن يعرضن للبيع بالزاد ، وعندما استغاثت امرأة من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب بعلي بن محمد وسألته إن ينقلها إلى غير مولاها ، أو يعتقها مما هي فيه ، قال لها : " هو مولاك وأولى بك من غيره " . لقد أدت هذه السياسة الطائشة إلى ابعاد الفلاحين والبدو عن التمردين بعد أن كانوا انضموا في الفترات الأولى إلى ثورة الزنج . وكان المهليبي الأمر الناهي في البصرة التي استولى عليها الزنج ، وهو واحد من أبرز أنصار علي بن محمد وسليل قبيلة عربية مرموقة . ولقد أمر بإقامة منبر في الموضع المعروف بمقبرة بني يشكر ، وراح يخطب ويعظ أيام الجمعة ويترحم على أبي بكر وعمر ولا يذكر عثمان ولا عليا ، ويلعن جبابرة بني العباس وأبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان .

وأخيرا قرر بلاط الخليفة ، الذي اعتراه القلق ما يجري ، أن يقضي على الخليفة الدعي . فهب في العام ٨٨٣م جيش قوامه خمسون ألف رجل ضد الزنج ، وكان على رأسه الموفق أخو الخليفة المعتمد . وسرعان ما تم الاستيلاء على البصرة والأهواز . وكانت مقاومة أنصار المهليبي ضارية في البصرة ، ولكن قوات التمرد سُحقت في نهاية المطاف . أما الذين نجوا فقد اختبأوا في الآبار وكانتوا يخرجون منها ليلا بحثا عن الطعام . وفي بداية الأمر كان هؤلاء البوسae يأكلون القطط والكلاب والفرنان ، وعندما لم يتبق من هذه الحيوانات ما يسد رمقهم اتجهوا نحو جثث البشر . ويورد المسعودي قصة امرأة من أنصار المهليبي بكت لأنها لم تحصل إلا على الرأس من جثة أختها المتوفاة التي مزقتها الجياع . وبعد أن استولى الموفق على البصرة والأهواز أنزل ضريته الأخيرة بالمخたارة عاصمة الزنج ، فشدد

عليها الحصار طويلاً حتى سقطت وُقْتُل صاحب الزنج علي بن محمد وعدد كبير من المدافعين عنها. أما من وقعوا في الأسر فاقتيدوا إلى بغداد حيث أُنزل بهم أشد العقاب وقتلوا شر قتلة أمام الملأ.

وبقيت البصرة بالرغم من كل هذه الاضطرابات مركزاً ثقافياً وتجارياً هاماً زمن المسعودي، ولو أن قصب السبق بين المدن العراقية كان من نصيب بغداد بلا شك. وبالرغم من أن البصرة لا تقع على البحر مباشرة فقد كانت السفن البحرية الكبيرة تصل ميناها مروراً بشرط العرب. وفي المريد، الساحة المعدة خصيصاً لقوافل التجار، كان المرء يسمع لغات مختلفة. وكان في ضواحي البصرة الكثير من الكروم والنخيل.

وبعد أن حل في البصرة عام ٩١٧ أدرك المسعودي على قيد الحياة أحد أبرز علماء اللغة في النصف الثاني من القرن التاسع ومطلع القرن العاشر، وهو أبو الخليفة الفضل بن حباب الجمحى الذي توفي إبان العام ذاته. اشتهر الجمحى بالفصاحة، وكان يتحدث دائماً وفق قواعد اللغة العربية التقليدية وبصورة تلقائية دونما تصنع، كما يقول المسعودي. وعاش الجزء الأكبر من حياته في البصرة حيث نال احترام الناس وشغل مناصب في الإداره. ذات مرة أوفد رفقة بعض من أهالي البصرة إلى الخليفة المعتصم بعربيضة لتخفيض الضرائب، فأقنعت الخليفة فصاحة الجمحى بحق أهل البصرة في ذلك، ووافق على تلبية طلبهم. ولكن حب اللغة العربية الحق به أدى كبيراً ذات مرة، وذلك أثناء نزهة دعي إليها خارج المدينة. فعلى مقرية من المكان الذي اجتمع فيه المشاركون في الوليمة كان ثمة بستان نخيل ناضج الشمر، وكان المياومون يقطفون العناقيد الناضجة ويضعونها في سلال كبيرة، فطلب أحد المدعوبين من

الجمحي أن يخبره عن حرف وموقعه في آية من آيات القرآن. وإذا سرّ بهذه الفرصة السانحة لأن يفيض بمعارفه استجابة لحالاً لما طلب منه وراح يفسر قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً...}، مبيناً معنى حرف الواو في (قوا). وفجأة انهال قاطفو التمر على المضيف وضيوفه وخدمتهم بالضرب المبرح. وتبين فيما بعد أن هؤلاء الأغراط في معرفة دقائق اللغة والفقه ظنوا، عندما سمعوا كلاماً غريباً على لسان الجمحي، أن المجتمعين يهذّبون بكتاب المسلمين المقدس.

تعرف المسعودي أثناء زيارته من زياراته الأخيرة إلى البصرة بعلم آخر من سكانها هو التاجر والرحلة والكاتب أبو زياد السيرافي، الذي وضع مؤلفاً صغير الحجم كبير القيمة بعنوان "سلسلة التواریخ" يتضمن معلومات هامة عن الهند والصين. وهذا المؤلف يعتمد أساساً على أخبار تاجر يدعى سليمان كان قد زار هذين البلدين في النصف الثاني من القرن التاسع. وقدقرأ المسعودي هذا الكتاب بتمعن، واقتبس منه الكثير لكتابه فصل خاص عن الصين في "مروج الذهب" مع إضافة معلومات أخرى أخذها عن رحالة سابقين. وكان رحالتنا المسعودي قد شاهد في بلخ أثناء رحلته الأولى في ربيع إيران شيخاً جليلاً سافر مراراً إلى الصين مع القوافل. وربما كان اللقاء به والحديث معه قد أسهما في ما ظهر لدى المسعودي من رغبة بالكتابة عن هذه الإمبراطورية الشرقية العظيمة.

يرى المسعودي أن الصينيين هم سليلو عابور أحد أحفاد يافت التوراتي القرآني. واعتماداً على المظهر الخارجي لأهل الصين يفترض المسعودي أنهم أقرباء بالنسبة للأتراك ولأهل التبت. ويقول إن الصين كانت فيما مضى الدولة الوحيدة التي عاشت وفق قوانين وضعها ملوك

قدماً مؤمنون، وإن هؤلاء الملوك قسموا المجتمع إلى طبقات وفرضوا عبادة الأسلاف ونجموم السماوات. وتعكس هذه المعلومات بعضاً من مبادئ إحدى المنظومات العقائدية التي سادت في الصين، وهي الكونفوشية بما تتضمنه من إجلال للسماء والأجداد، وطقوس دقique التفاصيل للعلاقة بين الأعلى والأدنى، وتراتبية هرمية كانت قائمة فعلاً في هذا البلد لأنقاب ذوي الشأن. وبالرغم من أن ملوك الصين كانوا وثنيين، فقد حكموا بالعدل كما يرى المسعودي، بل إن بعض الأباطرة منهم كانوا يجلون في السر الله والأنبياء الذين أرسلهم إلى الأرض، والرسول محمد أيضاً. وتأكدنا لذلك بورود المسعودي رواية خيالية مأخوذة عن "سلسلة التواریخ" لأبي زیاد السیرافی تقول إن مسلماً معروفاً من ولد هبار الأسود فرَّ من البصرة أثناء ثورة الزنج إلى میناء سیراف الإیرانی ومنه إلى الصين. وإذا ألفی نفسه بلا مورد للعيش قصد قصر الملك وطلب العون منه، فاستعلم الملك عن نسب هذا المسلم من أهالي مدينة خانقها البحرية الكبيرة التي تعيش فيها جالية من العرب والفرس. وإذا تأکد له أنه يعود في أصله إلى قبيلة قريش التي ينتمي إليها الرسول محمد، أمر بإدخاله وأجزل له العطاً. وبعد ذلك أطلعه على سبط فيه صور للأنبياء الذين يجلهم الإسلام بدءاً من آدم وانتهاءً بمحمد. ويروى الدینوری المؤرخ العربي الإسلامي في النصف الثاني من القرن التاسع، قصة مماثلة عن إمبراطور بيزنطي. كان العرب المسلمين يلجأون إلى مثل هذه القصص التي تؤكد، على حد الزعم، ولاة ملوك أكبر دولتين في عصر الخلافة (الصين وبيزنطية) للإسلام، وذلك لتعليل بلوغ هذين البلدين شأوا كبيراً في الثقافة ونظام الدولة.

والملك الصيني في نظر المسعودي قدوة للتعامل العادل مع الرعية ومع التجار المسلمين الذين يأتون إلى الصين. وفي رواية أخرى عما لقيه المسلمون في هذا البلد يحدثنا المسعودي عن تاجر من سمرقند سجنه موظف ظالم وجرده من بضاعته، ولكن الملك الصيني أنقذه من هذه المحنة.

ذاع صيت الصينيين في الشرقين الأدنى والأوسط كحرفيين مهرة. وبصفتهم المسعودي بقوله إنهم من أكثر الناس تفنا على وجه الأرض، ويخبرنا بأن ملك الصين يكافئ الحرفي إذا عرض مصنوعته في غضون عام ونالت اعتراف الجميع بخلوها من العيوب. ويضيف: إن شخصاً رسم طيراً جاثماً على سبنبلة ولكن رجلاً أحدب لفت نظر الملك بعد أن تمعن في هذه اللوحة، إلى أن الطير لا بد أن يعني السبنبلة، الأمر الذي لم يأخذه الفنان بالحسبان، فحرم من أية مكافأة. ويقول المسعودي إن المباريات من هذا النوع تساعد على تنمية المهارة عند حرفبي كل الاختصاصات.

ويرى المسعودي أن الأمور سارت في الصين على خير ما يرام إلى أن اندلعت انتفاضة هوان تشاو (يانشو) التي استمرت من العام ٨٧٤ وحتى العام ٨٨٤م. وأثناء ذلك اقتربت قوات التمردين من أبواب مدينة خانقو التي تعيش فيها منذ زمن بعيد جالية من التجار المسلمين، ومسيحيون وبهود وزرادشتيون. وبعد أن استولى التمردون على المدينة قتلوا العديد من التجار الأجانب ثم استولوا على عاصمة الإمبراطورية وخلعوا الامبراطور وانتهكوا القانون. واستمرت الفتنة في الصين منذ ذلك الحين، كما يقول المسعودي، وتجزأت هذه الدولة إلى عدة إمارات مستقلة. ويلفت المسعودي إلى أن هذا الوضع في الصين يشبه الوضع

الذى نشا على أنقاض إمبراطورية الإسكندر المقدوني، كما يشبه الحالة في دولة الخلافة الإسلامية في القرن العاشر.

وبعد قرابة ثمانى سنوات من زيارته الأولى للبصرة ٩٢٥ م يقرر المسعودي السفر إلى شمال العراق والإقامة في تكريت والموصل، ففي هاتين المدينتين انتشرت عقيدة اليعاقبة المسيحية منذ القرن الرابع للميلاد. وكانت تكريت الواقعة على ضفة دجلة اليمنى مقراً للأسقف اليعقوبي، وكانت تقطنها قبيلة إباد العربية المسيحية قبل الفتح الإسلامي. وفيها التقى المسعودي الذي كان دائم الاهتمام بالتعاليم الدينية، العالم اليعقوبي أبا زكريا دنحا النصراني، وتجادل معه. ويضيف رحالتنا أن الجدال دار في كنيسة الثالوث الحضرة التي مازالت أطلالها باقية حتى أيامنا هذه في الجزء الجنوبي من تكريت الحالية. ويبدو أن المسعودي زار أيضاً دير سابا ودير مار يوحنا.

لقد توجه المسعودي إلى الموصى الواقعة شمالي تكريت لا مجرد اللقاء بواحد من أكبر علماء ذاك الزمان، جعفر بن حمدان الموصلي (توفي سنة ٩٣٥) والعمل في مكتبه، بل أيضاً لمشاهدة الآثار القديمة في المدينة وضواحيها. وإذا كان دير اليعاقبة الذي بني عام ٥٧٠ لا يزال باقياً في الموصى حتى أيامنا هذه، فلأن الموصى كما تكريت، كانت أحد مراكز المسيحية في العراق. ولقد شيد في الموصى في عهد الخليفة الأموي الأخير مروان بن محمد (٧٤٤-٧٥٠) مسجد الجمعة. وفي قلعة الموصى المعروفة "بالمربع" كانت تنعقد أيام الأربعاء سوق حافلة. وعلى مقرية من الموصى شاهد المسعودي أطلال قصر الخليفة (دار الخلافة) وزار ضريح النبي جرجس (وجرجس هو الاسم العربي للقديس غيورغى).

في ربوة سورية وفلسطين

قام رحالتنا في عشرينات القرن العاشر بأكثر من رحلة إلى سوريا وفلسطين المجاورتين للعراق. وقد اجتذبته هذه الديار لعدة أسباب، منها، أولاً، أن سوريا - كما إيران - بلد نشأت فيه منذ القدم ثقافات راقية بقي عدد كبير من آثارها قائماً في أيامه، ولأن سوريا، ثانياً، وخاصة عاصمتها دمشق، كانت القاعدة الرئيسية لسلالة بني أمية التي اعتمدت على قبائل بدوية استوطنت هذا الجزء من الدولة العربية الإسلامية. وقد اهتم المسعودي كبير الاهتمام بالأحداث السياسية التي شهدتها دولة الخلافة في عهد الأمويين، وكذلك بشخصيات مرحلة ما قبل حكم العباسيين. وكتب المسعودي عن الجميع تقريباً: عن معاوية بن أبي سفيان، وعبد الملك بن مروان، وعمر بن عبد العزيز وغيرهم من الخلفاء، صفحات ساطعة ضمنها "مروج الذهب". والسبب الثالث من أسباب رحلته إلى سوريا وفلسطين هو أن سوريا كانت قبل الفتح الإسلامي مقاطعة بيزنطية، وحافظت على علاقتها مع المتروروبيون السابقين. وكانت هذه الصلات ملموسة بشكل واضح في شمال البلد، في منطقة "العواصم" كما يسميها العرب المسلمين، أي المدن الحصينة، إذ كان يوجد فيها عدد من هذه المدن - القلاع للدفاع عن الحدود الشمالية الغربية للخلافة. والحقيقة أن الصلات في شمال سوريا مع البيزنطيين كانت ذات طابع عدائى، إذ جرت هناك صدامات مسلحة دائمة بين قوات كلتا الدولتين الكبيرتين. ولكن المسعودي كان يحدوه الأمل بأن يحصل في منطقة العواصم تحديداً على معلومات عن الوضع في الدولة ذاك الزمن، وكذلك عن تاريخها وثقافتها، من كبار السن الذين قدر لهم أن

يحاربوا ضد البيزنطيين وأن يتفاوضوا معهم، وكذلك من المحاربين المسلمين العائدين من الأسر البيزنطي إذ أتيح للعديد من هؤلاء التعرف من الداخل على خصم الخلافة الرئيسي.

توجه رحالتنا إلى سوريا أول مرة عام ٩٢١ وحل آنذاك في حلب الواقعة على نهر قويق الصغير، وأقام فيها بعض الوقت. وفيها تعرف على القاضي إبراهيم بن جابر وتحادث معه طوبلا، وشاهد أيضاً معالماً الأثرية، فحلب مدينة مأهولة منذ ثلاثة آلاف عام قبل زمان السعوديين. وفي عهد السلوقيين الذين انضمت سوريا إلى دولتهم بعد انهيار إمبراطورية الإسكندر المقدوني تحولت حلب إلى مدينة هللينية حقيقة، وتغير مظهرها الخارجي بشدة نظراً لانتشار المسيحية وما تبع ذلك من إقامة السيادة البيزنطية. وفي العام ٦٣١ استسلمت حلب أمام القوات العربية الإسلامية التي وصلت إلى أبوابها. وتعهد الفاتحون بمحاسبة المساس بالاستسلام أن تبقى كافة الكنائس المسيحية في المدينة دون أي مساس بها، ولذا كان على أتباع الدين الجديد (المسلمين) أن يعيدوا بناء القوس القديم الذي كان ينتصب في رواق الأعمدة و يجعلوا منه مسجداً. وكان رواق الأعمدة هذا قد تحول قبيل انهيار السيادة البيزنطية إلى شارع شرقي عادي في المدينة يتتألف من مبان متلاصقة عديمة الانتظام تشغل الحوانين طوابقها الأرضية. وفي عهد الخلفاء الأمويين (إما في عهد الوليد بن عبد الملك أو في عهد سليمان) الذين أبدوا عناء كبيرة بالمدن السورية، شيد في مكان المسجد الأول المسجد الكبير الذي شاهده السعوديون وبقي حتى أيامنا هذه. وعندما كان السعوديون يتوجهون في شوارع حلب عام ٩٢١ لم يكن بمقدوره طبعاً أن يعلم أن هذه المدينة

ستسقط بعد ٢٣ عاما في أيدي الحمدانيين، وأن سيف الدولة، أحد ألمع أبنائهم المشهور بانتصاراته على البيزنطيين، سيجعل من حلب عاصمة لإمارته. ولم يكن بوسع المسعودي أن يعلم أن راعي العلوم والآداب المتألق هذا، سيف الدولة، ستلتف حوله حلقة من الشعراء والعلماء الموهوبين وسilmع من بينهم شاعر العرب الكبير في العصور الوسطى أبو الطيب المتنبي (٩٦٥-٩١٥).

ومن حلب توجه المسعودي نحو الشمال الغربي إلى أنطاكية التي تأسست نحو العام ٣٠٠ قبل الميلاد على يد سلوقيس القائد السابق عند الإسكندر المقدوني (القرن الرابع - القرن الثالث قبل الميلاد). وكانت هذه المدينة ضمن منطقة العواصم. وفي أنطاكية زار المسعودي المعابد المسيحية ومنها كنيسة القديسة ماريا ، وكنيسة القدسية بربارة ، وكنيسة القديس بولص . واهتم أيضا بالآثار القديمة (الإغريقية) . وللحقيقة نقول إن من الصعب التتحقق من صحة أخبار المسعودي عن الآثار القديمة . وعلى أية حال يتحدث رحالتنا في " مروج الذهب " عن أطلال معبد إغريقي يقع على تل داخل المدينة كان فيه العديد من التماثيل وغيرها من التصاوير المقدسة . واعتمادا على ما يورده المسعودي من آراء أتباع طائفة الصابئة ، وكانت غالبيتهم تعيش في حران شمال شرق سوريا ، وما يعتقدونه من أن هذا المعبد بناه في أنطاكية الإله الإغريقي القديم إسكلبيوس [سقلابيوس ، وهو إله الطب عند الإغريق] يمكننا الافتراض أن الأطلال التي شاهدها المسعودي كانت في السابق مكانا مقدسا لهذا الإله ، وقد تهدمت حسب معطيات المسعودي في القرن الرابع الميلادي في عهد أول إمبراطور روماني يعتنق المسيحية ، أي الإمبراطور قسطنطين .

وتحول المعبد إلى نقطة مراقبة. وفي زمن المسعودي كان على الجنود الذين ينابون فيها أن يخطروا قائداً حامياً أنطاكية باقتراب المراكب الرومية. وإضافة إلى المسجد الجامع في المدينة شاهد رحالتنا معبداً قد يسميه "الديايس".

توجه المسعودي من أنطاكية إلى مدينة أخرى تقع ضمن منطقة العواصم هي طرسوس التي اشتهرت عند المسيحيين لأن الرسول بولص ولد فيها كما تقول الروايات. ولعل هذا الأمر بالذات، ناهيك عن موقعها الاستراتيجي الهام، كان سبباً من الأسباب التي جعلت البيزنطيين يصرؤن في سعيهم للاستيلاء على المدينة وبقائهما في أيديهم. أما العرب المسلمين فلم يكن في نيتهم التنازل عنها لجيرانهم المعروفين بنزاعتهم الحربية، ولذلك انتقلت طرسوس مراراً من يد إلى أخرى مع ما رافق ذلك من دمار وخراب حلّ بها. ومع ذلك كان يُعاد بناؤها وتحصينها من جديد. وكانت طرسوس عند زيارته المسعودي لها قلعة قوية ذات أسوار مزدوجة. وما يشير إلى دورها الحربي بابها المتجه صوب العدو الذي كان يسمى "باب الجهاد".

كانت أضنة، وهي أقصى موقع سوري حصين شمالاً على الحدود مع بيزنطة، آخر مدينة من المدن الأساسية الثلاث في منطقة العواصم التي زارها المسعودي. ومثلها مثل طرسوس، انتقلت مرات عديدة من يد إلى أخرى. وفي المرة الأخيرة، قبيل زيارة المسعودي لها، كانت قد وقعت في يد الإمبراطور فاسيلي باسيلوس الأول عام ٨٧٥م ولكن العرب المسلمين تمكنوا من استعادتها مرة أخرى. وفي أواسط الأربعينات، وكان المسعودي لا يزال على قيد الحياة، وقعت أضنة لفترة قصيرة تحت سيطرة

الروم. لقد حظى رحالتنا أثناء زيارته لها باستقبال من حاكمها العسكري والدبلوماسي المعروف أبو عمير عدي بن أحمد بن عبد الباقي الأزدي الذي قام أكثر من مرة بزيارة إلى القسطنطينية وغيرها من مدن الدولة الرومية بهمات دبلوماسية. ومن نافل القول إنه قدّر له اللقاء بالبيزنطيين في ساح القتال مرات تفوق كثيرة لقاءاته بهم في قاعات القصور التي كانت تجري فيها الاستقبالات الرسمية. ومن المحتمل أن أبي عمير قد تحدث للمسعودي بالكثير عن عادات البيزنطيين، والتسميات الإدارية في بيزنطة وعن عاصمتها القسطنطينية. إن المعلومات التي أدلّى بها هذا الرجل الذي يكن له الاحترام العرب المسلمين وأعداؤه البيزنطيون أيضاً، كانت ذات قيمة كبيرة، خاصة أنه كان يتقن اللغة الإغريقية بشكل رائع، وأن المسعودي من خلال أحاديثه معه قد استقى المعلومات من مصدرها الأول، كما يقال. ولم يكن من قبيل الصدف أن أطلق رحالتنا على أبي عمير لقب شيخ الثغور السورية الحصينة.

وكان للمسعودي مصدر آخر للمعلومات عن الوضع في بيزنطة، هو البحار الشهير وعاصفة الرعد في الشواطئ البيزنطية، ليون تريبيوليتيانين (الأسد الطرابلسي) أو كما يسميه العرب المسلمين (أبو العارث لاوي) الذي كان بيزنطي الأصل واعتنق الإسلام، وشن حرباً بحرية ضارية ضد من كانوا أبناء قومه. وقد شن في العام ٩٠٤ غارة جسورة على مدينة فيسالونيكا البيزنطية، فأسر الكثيرين واستولى على غنائم ثمينة.

لم يكن المسعودي في كتاباته، التي يفرد فيها حيزاً كبيراً لبيزنطة، ليرضى بأخبار شفوية، لأنّه شخص دقيق ورصين، يسعى للحصول على

معلومات تامة وموضوعية قدر الإمكان، ولذلك استخدم على نطاق واسع المصادر العربية الإسلامية والبيزنطية على حد سواء. ويبدو أنه استقى معلومات عامة عن إمبراطورية الروم من المؤلفات الجغرافيةسابقيه ابن خرداذة وقدامة بن جعفر، وهو يدين بالكثير أيضاً للأعمال التي لم تصلنا من مؤلفات الباحثة العربي الإسلامي في القرن العاشر مسلم بن أبي مسلم الجرمي. وكان الجرمي قد وقع في الأسر البيزنطي، ومن ثم افتدي عام ٨٤٥م. على أن ما رواه الجرمي لأبناء قومه لم يقتصر على بيزنطة والبيزنطيين وحسب، بل وشمل جيرانهم الآفاريين والبلغار والسلاف (الصقالبة). وفضلاً عن ذلك اعتمد المسعودي على التقارير الرسمية المتعلقة بالحملات الموسمية للعرب المسلمين ضد بيزنطة، والتي تضمنت كما يبدو، العديد من الواقع الملموس. وقد حقق المسعودي، اعتماداً على مؤلفات الكتاب البيزنطيين، تقويم الراهب الإسكندراني آنيان من القرن الخامس للميلاد. ويقول إنه شاهد في إحدى كنائس أنطاكية مدونة بيزنطية مكتوبة باللغة الإغريقية، وأنه اطلع عليها (بمساعدة مترجم على الأرجح)، ففي سوريا ذاك الزمن كان الكثيرون يتقنون لغة الروم، وكان يعيش في دولة الخلافة الكثير من المسيحيين، سوا، منهم أتباع الديانة السائدة في بيزنطة، أي الأرثوذكسية، أم الذين على غيرها من التيارات المسيحية. والواضح أنأغلبية مسيحيي الدولة العربية الإسلامية راحوا بحلول القرن العاشر ينسون اللغات التي كانوا يتكلمون بها، وخاصة اللغة السورية (الآرامية-السريانية)، ولذلك كان المتعلمون من أبناء الطوائف المسيحية في الشرق الأدنى مضطرين لأن يضعوا باللغة العربية مؤلفات

تاريجية فيها حيز كبير لتاريخ بيزنطة. وبغية جمع المعلومات عن التاريخ القديم، وغير القديم، لدولة الروم لما المسعودي إلى أعمال العديد من المؤلفين المسيحيين الذي كتبوا باللغة العربية كالراهبين الأرثوذكسيين يوتحيا وأغابي، والكاتب النسطوري يعقوب بن زكريا، والراهب اليعقوبي أبو زكريا دنحا، والعالم الماروني قيس الماروني.

والسؤال الآن: ما الذي حظي باهتمام المسعودي أكثر من سواه في

وصفه بيزنطة؟

يعير المسعودي اهتماماً كبيراً للتقسيمات الإدارية في هذه الدولة الجارة، أي لوصف المناطق (التي هي مناطق إدارية ودوائر عسكرية في الحين نفسه). ويبداً بوصف المناطق الآسيوية في بيزنطة ثم ينتقل إلى تلك الواقعة في أوروبا. إن المعلومات التي يوردتها في هذا الصدد تتصرف بدرجة كبيرة من الدقة، فكل المناطق التي يذكرها معروفة أيضاً في المصادر البيزنطية، والاستثناء الوحيد هنا هو إحدى المناطق الأوروبية التي استحال التتحقق من هويتها وهي طفلاً أو طبلاً أو تايلاً. وارتکب المسعودي بعض الهفوات في وصف المناطق الآسيوية، فالوحدات الإدارية الثلاث: كرمانون، وقولونسة، وسلوقية، التي يعتبرها مناطق، هي في الواقع الأمر تقسيمات أقل مرتبة. ومن الواضح أنه استند إلى معلومات قديمة، إذ أن التقسيم الإداري لدولة الروم في زمانه كان غير ذلك، وكان عدد المناطق أكبر. ومرد هذه الأخطاء مفهوم تماماً، فالمسعودي لم يزر بيزنطة أبداً، وربما جاء وصفه للنظام الإداري في الإمبراطورية الجارة اعتماداً على المصادر العربية الإسلامية المبكرة التي شاع فيها الاعتقاد بأن بيزنطة تنقسم منذ القدم إلى أربعة عشر قسماً. وإذا يحدثنا عن

المناطق البيزنطية لا يغفل المسعودي المدن الكبرى الواقعة في إطار كل منها، كالمدن الحدودية (على الحدود مع سوريا): عمورية، هرقلية، نيقا (إفس) التي كانت، حسب قوله، موطن العديد من حكام الإغريق وأطبائهم، وأنقرة، وفي سالونيكا (التي تعرضت لغارة أسد الطرابلسي...) وغيرها من المدن.

وكان المسعودي على معرفة جيدة بالبحار التي كانت تحت سيطرة بيزنطة، فيحدثنا عن هيلسبونت، وبحر مرمرة والبوسفور الذي يسميه " خليج القسطنطينية ".

وبناءً على شهادات الرحالة والدبلوماسيين العرب المسلمين الذين كانوا يسلكون طريق البحر للوصول إلى عاصمة بيزنطة يقدم المسعودي وصفاً للموانئ التي كانت تتوقف فيها المراكب البيزنطية في طريقها إلى سوريا. ولا يستبعد أن الرحلات البحرية بين الساحل السوري والقسطنطينية كانت منتظمة، فالمسعودي في معرض وصفه لها يقول إنها " محطات بريد ".

إن الاهتمام الكبير الذي أولاه المسعودي لحدود إمبراطورية الروم البحرية أمر مفهوم تماماً، فالعلاقات الإسلامية والصراعات الحربية على حد سواء، بين دولة الخلافة وبيزنطة كانت غالباً ما تجري في البحر. وكان البحارة العرب المسلمون يهاجمون بجرأة السواحل البيزنطية، ويستولون في عرض البحر على السفن الرومية بحمولاتها الثمينة، وكانتوا يحظون باحترام كبير في مدن الساحل السوري. ويقص علينا المسعودي حكاية يبدو أنها كانت متداولة في أوساط قراصنة البحر السوريين، تقول إن معاوية بن أبي سفيان دبر حيلة مع بحار من صور

مكنته من أسر بطريق رومي كان قد أهان أسيراً عربياً قرشي الأصل عندما كان في أسر الروم. ولما أتى به إلى الشام اقتض منه القرشي، ثم أكرمه الخليفة وأعاده إلى قومه.

يروي المسعودي هذه القصة فيقول إن محارباً عربياً وقع في أسر الروم في عهد الخليفة الأموي الأول معاوية (٦٦١ - ٦٨٠)، وعند مشوله هو وغيره من الأسرى أمام الإمبراطور ألبك به أحد رجال البلات إهانة كبيرة إذ صفعه بحضور الجمع. فصاح هذا المحارب الأسير بأعلى صوته "اماوايه ! " معتاباً الخليفة ومتسائلًا كيف يسمح للعدو بالحق الأذى والإهانة برعایاه ؟ . ووصلت صرخة الأسير إلى مسامع الخليفة، فغضب وأمر بافتداء كل الأسرى العرب. وبعد أن تم ذلك استدعى ذاك الأسير السابق ووعده بأن يثار له. استدعي الخليفة بحاراً بارعاً كان قد سافر إلى بيزنطة مراراً، ويجيد التحدث بلغة الإغريق، وأمره باختطاف الجاني وإحضاره إلى قصر الخليفة في دمشق. صنع البحار مركباً بالغ السرعة بمال الذي خصص له من خزانة الخليفة، واشترى كميات كبيرة من شتى أنواع السلع الثمينة وانطلق إلى مقصدته. وإذا تمكن من الوصول إلى قصر الإمبراطور راح هذا "التاجر" ببيع لرجال البلات، وللإمبراطور نفسه، ما يريدونه من السلع الغربية. وبعد أن قام بعدة رحلات بين البلدين تمكن من كسب ثقة رجل البلات الذي صفع المحارب المسلم. وفي نهاية المطاف أغراه بزيارة مركبه، ومن ثم نقله إلى سوريا. مثل هذا الرومي في دمشق أمام الخليفة معاوية الذي أمر بإحضار المحارب المهاجر الذي تطاول عليه الرومي، فرد هذا الإهانة بالمثل صوناً لكرامته. وبعد ذلك انصرف وهو يشيد بحكمة معاوية وعدله. أما الخليفة فقد أكرم رجل

البلاط الرومي وأطلقه بكل احترام إلى سيده الإمبراطور طالبا منه إبلاغه أن الخليفة يصون حياة وكرامة رعاياه الذين يقعون في أسر الروم. ويضيف المسعودي أن إمبراطور الروم أمر بتحرير إهانة الأسرى العرب، وذلك عرفانا منه بشهامة معاوية في معاملة رجل البلاط الرومي المذكور.

من الواضح تماماً أن قصة كهذه كان يمكن أن تظهر في ذاك الوسط الذي بقي، بالرغم من حلول سلالة حاكمية محل أخرى في دولة الخلافة، على موقف حسن من الأميين الذين صورهم علم التاريخ العباسى الرسمى كفارة وفجراً وغاصبين. إن معاوية الذى تصوره المدونات التاريخية زمان المسعودي كغادر ومتعطف للسلطة ومستهتر سياسياً، يبدو في الحكاية السابقة حاكماً نبيلاً وحكيناً يدافع عن المسلمين، ويعامل برحابة صدر حتى مع العدو. لقد سبق ورأينا أن المسعودي كان ذا ميل كبير إلى مثل هذه القصص والحكايات التي كثيراً ما يزين بها مؤلفه الأساسي "مروج الذهب" الذى يعد بفضل هذه المقتطفات أثراً عظيماً من آثار النثر العربى في القرون الوسطى.

لنعد الآن إلى ما يخبرنا به المسعودي عن دولة الروم!! من البديهى أن تشير القسطنطينية لدى المسعودي الاهتمام الأكبر من بين كل المدن البيزنطية. وقد كان على علم بعده تسميات، أو أسماء، لهذه المدينة، منها القسطنطينية (وهي التحوير العربى للفظة كونستانتنوبول)، وفيزنتيا (بيزنطة) التي تعنى في العلم المعاصر الإمبراطورية الرومية، وملكة المدن، (بالإغريقية باسيلييس بولوس)، وكذلك الاسم الشعبي لدولة الروم: استابولين (المدينة)، ومنه جاءت التسمية التركية (استانبول) بعد أن فتح العثمانيون القسطنطينية.

يقدم لنا المسعودي وصفاً لموقع القسطنطينية اعتماداً على أقوال عدد من العرب المسلمين الذين شاركوا في الحملات على بيزنطة، ف البحر مرمرة، أو "خليج القسطنطينية" كما يسميه هو، يحيط بالمدينة من جهتي الشرق والشمال، ومن الجنوب تحدّها اليابسة. وهناك تقع أبواب القسطنطينية الذهبية المغطاة بصفائح من النحاس (محاكاة لهذه الأبواب أقيمت أبواب تحمل الاسم نفسه في مدینتي كييف وفلاديمير الروسيتين القديمتين). ويلاحظ المسعودي أن أسوار المدينة الدفاعية تقع في عدة صدوف في بعض الأماكن. وهذه معلومة صحيحة، فمن المعروف أن الجزء الشمالي الغربي من القسطنطينية يضم قصر بيشيرانس. وعلى ضفة الخليج، أي بحر مرمرة، يوجد قصر له أبراج صغيرة، وبرج للحراسة. إن المقصود بذلك هو قصر عظيم يقع بالضبط في المكان الذي يشير إليه المسعودي. وللقسطنطينية عدة أبواب. ومن الجهة الخارجية لأسوارها يوجد العديد من الكنائس. وكان المسعودي على علم أيضاً بناحية عاصمة بيزنطة إذ يقول إن هذا المكان "بلد عفن مختلف المهاب مرطب للأبدان لكونه بين هذه البحار". يدل هذا القول على أن من زود المسعودي بالمعلومات لم يطأ القسطنطينية أبداً، وإنما أبى على الأرجح، في مركب بمحاذة هذه المدينة، وربما كان ذلك أثناء غارة سلب بحرية على مدينة رومية أخرى، ولذلك كان انتباهه منصباً في المقام الأول على موقع القسطنطينية كما تبدو من البحر، وعلى موقع الأسوار وبنائين كبيرين يشاهدان من وراء التحصينات. ومن المحتمل أيضاً أن يكون من زوده بهذه المعلومات أحد المشاركين في حصار ما للمدينة، وكان وبالتالي على البر من ناحية الأبواب الذهبية، وقد شعر جراء مكوته فترة من الزمن

تحت الأسوار بالتأثير الضار للمناخ في هذه البقعة. وأيًّا كانت الحال، فإن المعلومات التي يوردها المسعودي تتصف بقدر كبير من الدقة. وفضلاً عن وصف الدولة البيزنطية وعاصمتها، فقد وجد القارئ العربي الإسلامي في مؤلفات المسعودي عرضاً مسهباً للتاريخ البيزنطي، عمل المؤلف في سياقه على حل عدد من المسائل الهامة بالنسبة لعصره، وكان مبدعاً في الكثير من جوانب هذا الأمر.

وخلالاً للعديد من سابقيه، ومنهم المحافظ الكاتب الكبير في القرن التاسع، يشير المسعودي، أولاً، إلى الصلة التاريخية بين بيزنطية عصره وقدماء الإغريق. وكان ذلك خطوة جريئة في زمانه، إذ أن العلماء العرب المسلمين كانوا يرفضون التصديق بأن فلاسفة اليونان القديمة الذين كانوا محظٍ إعجابهم وتلذموا عليهم، هم أجداد الروم الكنفدرالية الذين اضطررت دولة الخلافة لخوض حرب مضنية ضدهم.

وإذا كان المسعودي يرى في البيزنطيين، من الناحية الإثنية، أحفاداً لقدماء الإغريق، فإنه يرى فيهم من ناحية الدولة ورثة للرومانيين القدماء. وهو يفسر هذه الظاهرة على النحو التالي: عاش الإغريق والروم (الرومان) جنباً إلى جنب، كما عاش الفرس والبطاطيون (سكان العراق وكانتوا يتكلمون لغة سامية). وفيما بعد غلب الروم الإغريقين، وأصبح الكل روماً، مثلما غلب الفرس البطاطيين. وهكذا نرى أن المسعودي أدرك أن بيزنطة عصره هي وريثة الإمبراطورية الرومانية.

يبرز المسعودي في عرضه لتاريخ دولة الروم ثلاث مراحل: فهو، أولاً، تاريخ حكم أباطرة الروم الوثنيين حتى ديوقلتيان (٢٨٤-٣٠٥) أي في الحقيقة تاريخ الإمبراطورية الرومانية لا تاريخ بيزنطة؛ وثانياً،

حكم الأباطرة الروم المسيحيين الذين كانت القسطنطينية عاصمة لهم بدءاً من مؤسس هذه المدينة قسطنطين الأول (٣٢٧-٣٠٦) الذي اعتنق المسيحية، وانتهاءً بالإمبراطور هرقل (٦٤١-٥٧٥)؛ وثالثاً وأخيراً، تاريخ بيزنطة بعد الإسلام.

يقدم لنا المسعودي معلومات صحيحة عن عدد الأباطرة البيزنطيين وسنوات حكمهم، ويلقي المزيد من الأضواء على نشاط الكنيسة المسيحية، ويحدثنا عن الماجامع (السنودسات) الستة الأولى. وإذا يرى في ظهور الإسلام الحدث المركزي في تاريخ البشرية كله يخصص حيزاً كبيراً لعرض الأحداث التي شهدتها عهد الإمبراطور هرقل الذي فقدت بيزنطة في عهده سوريا في آسيا ومصر في أفريقيا، بعد أن أنهكتها عداوتها التي دامت سنتين طويلة مع إيران الساسانية، ولم تستطع الصمود أمام ضغط العرب المسلمين. وأغلبظن أن المسعودي استقى ماداته عن المرحلتين الأولى والثانية في تاريخ بيزنطة من المدونات البيزنطية التي ترجمت له، ومن المدونات العربية المسيحية التي درسها بنفسه.

إن المعلومات التي يقدمها المسعودي عن الوضع في الإمبراطورية الجارة تتصف بأهمية كبيرة بالنسبة للباحثين في تاريخ بيزنطة، والعلاقات العربية البيزنطية. والحقيقة أن المسعودي حصل على هذه المعلومات بعد وقت طويل نسبياً من رحلته الأولى إلى سوريا، بعد أن استقر به المقام في مصر ولم يكن يسافر إلى دمشق وغيرها من المدن السورية إلا نادراً. في صيف العام ٩٤٦ م جاء إلى دمشق الدبلوماسي والعالم البيزنطي المعروف يوحنا المتصوف للقاء وإليها التابع لحاكم مصر

أخشيد الذي ضم إلى ملكه جزءاً كبيراً من سورية، والتفاوض معه لعقد هدنة وتوقيع معااهدة لتبادل الأسرى. وهنا غادر المسعودي الفسطاط على عجل متوجهاً إلى دمشق، حيث تمكّن من لقاء رجل البلاط البيزنطي هذا. وفي هذا اللقاء حدثه يوحنا عن الصراع على السلطة بين اثنين من الطامحين بالعرش البيزنطي هما قسطنطين السابع الأرجواني (٩١٣-٩٥٩) ورومان الأول (٩٢٠-٩٤٤)، هذا الصراع الذي انتهى بانتصار قسطنطين وحبس رومان في الدبر. وبعد بضع سنوات علم المسعودي أن الإمبراطور المخلوع رومان قد توفي، وأن أحد ولديه قد قتل وزج بالثاني في السجن. ولقد تحدث المسعودي عن ذلك لكن في آخر مؤلفاته، "كتاب التنبية والإشراف".

وأبدى المسعودي اهتماماً أيضاً بوضع بيزنطة السياسي الخارجي، ولفتت انتباذه الحرب البيزنطية البلغارية حيث قام العرب المسلمين بتحركات مشتركة مع البلغار الذين كانوا تحت حكم القيصر سيميون. ويخبرنا المسعودي كذلك عن هجمات البشناق والجررين على الحدود الشمالية للإمبراطورية.

ونحن لا نستبعد أن يكون المسعودي أثناً، وجوده في سورية وهو يجمع المعلومات عن بيزنطة، قد سمع لأول مرة عن شعب اسمه الروس، وأن جنوداً سابقين من العرب قد أخبروا العراقي المحب للاطلاع (المسعودي) أن كلمة "روسي" تعني (الأغبر، الأشرف، الأصهب). وهذا كان لون شعر غالبية أبناء هذا الشعب الذين قدر لحراس الحدود السوريين أن يروهم. وعلم المسعودي أيضاً أن الروس قاموا ذات حين بهجمات على القسطنطينية، ولكن فيما بعد، وعلى حد تعبير

السعودي: " دخل كثير منهم في جملة الروم... فشحنا بهم كثيراً من حصونهم التي تلي الشغور الشامية وجعلوهم بإزا، برجان وغيرهم من الأمم المتأيدة لهم والمحبطة بملوكهم ". إننا لا نعرف على وجه الدقة ما المقصود من قوله " ودخلوا في جملة الروم " ، ولكن من المعلوم أن المعاهدات التي عقدت بين بيزنطة وأمرا، ككيف الروسية عام ٩١١ وعام ٩٤٤ تضمنت ما يشير إلى أن فصائل خاصة من المحاربين الروس شاركت في العمليات الحربية ضد العرب المسلمين. وهذا لا يعني بالطبع أن كيف الروسية صارت عملياً دولة تابعة لبيزنطة، كما قد يكون بذا الأمر للسعودي الذي حصل على معلومات مجتزأة جداً ومن جانب واحد عن حقيقة العلاقات الروسية البيزنطية. ولكن لا مجال للشك في أن روسيا القرن العاشر راحت تنجذب أكثر وأكثر إلى فلك النفوذ البيزنطي السياسي والثقافي ما أدى في نهاية القرن إلى اعتناق روسيا الدين المسيحي الأرثوذوكسي. فالمحاربون الروس إذن لم يتواجدوا على الحدود البيزنطية السورية كتابعين للإمبراطورية، وإنما كحلفاء. وعلى أية حال فإن التعرف على الروس، ولو بالسمع، قد أيقظ الاهتمام لدى السعودي بهذا الشعب الذي كان يعيش، حسب تصور عالمنا، في أقصى طرف العمورة، وجعله يصمم أن يتعرف عليه بشكل أفضل. وبعد حين من إقامته على الحدود السورية البيزنطية يقوم رحالتنا بسفرة إلى منطقة بحر قزوين والقوقاز حيث يحصل على معلومات أكثر تفصيلاً عن كيف الروسية. وكرّس بعد ذلك فصولاً خاصة من كتابه " مروج الذهب " للروس والسلاف عاماً.

لقد اهتم السعودي أيضاً بالعلاقات بين بيزنطة والغرب اللاتيني،

علمًا بأنه لم يكن لديه من المعلومات التفصيلية عن أوروبا الغربية ذاك القدر الذي كان بحوزته منها عن بيزنطة الحارة الأقرب لدولة الخلافة (بيزنطة). ويرى أن مركز الغرب هو روما وعلى رأسها "صاحب روما"، وبما كان المسعودي يقصد بذلك البابا. وروما، حسب المسعودي، هي عاصمة "ملكة الفرنجة" التي يتبع لها العديد من شعوب الغرب. وكان "صاحب روما" يتبع، بموجب معاهدة قديمة، إمبراطور بيزنطة، ولم يكن له تاج ولا أرجوان (رمز السلطة الإمبراطورية) ولكن فيما بعد "اشتد أمره" وأعلن نفسه ملكاً مستقلاً. وإذا علم بذلك إمبراطور بيزنطة قسطنطين الأرجواني وجه قواته للاستيلاء على روما، ولكنه مني بالهزيمة. وعندئذ تم عقد اتفاقية سلام بين الطرفين، وقبل ذلك كان "صاحب روما" قد زوج ابنته لابن قسطنطين الأرجواني، ولكنها سرعان ما توفيت.

إن جميع هذه المعلومات، على العموم، بعيدة عن الحقيقة. ولعله نشأ هذا التصور لدى المسعودي عن خصوص "صاحب روما" لسيد القسطنطينية على أساس أن بيزنطة طالبت في القرن الرابع، وهو زمن بعيد بالنسبة للمسعودي، باستعادة سلطتها على إيطاليا، وسيطرت على روما لبعض الوقت فعلاً.

وفي القرن العاشر انتقلت بيزنطة، التي تخلفت في وقت من الأوقات عن دولة الخلافة من حيث الجبروت، إلى الهجوم على الدولة العربية الإسلامية. وبغض النظر عن ذلك فقد حاول المسعودي، الذي كان على علم طبعاً بانتصارات الروم على أبناء دينه، أن يرسم صورة أكثر ما يمكن أن تكون موضوعية للثقافة البيزنطية. وخلافاً لبعض المؤلفين

العرب المسلمين فإن هذا العالم العراقي لا يلوم البيزنطيين على كونهم يخسرون (يطوشون) أبناءهم، ولا يصفهم بعدم النظافة في حياتهم اليومية، ولا بعدم النزاهة... بل إنه يتضح نظام الإدارة البيزنطي ويشدد على أن هذه الإمبراطورية حفقت النجاح في صراعها مع دولة الخلافة بفضل المركزية.

وبعد خمس سنين من إقامته في شمال سوريا وزيارة منطقة العاصم قرر المسعودي التعرف على مدن فلسطين وأثارها التاريخية وطبيعتها. ومن المحتمل أن رحلته هذه بدأت من مدينة طبرية الواقعة على بحيرة طبرية. وبالنسبة للمسعودي الذي يعشق القديم كان في هذه المنطقة ما يستحق المشاهدة. وكانت لا تزال باقية في طبرية أطلال قصر إغريقي قديم، وأسوار المدينة القديمة، ومعبدوثني تحول إلى كنيسة مسيحية، وكان قد شيد في عهد الإمبراطور أدريان. وزار المسعودي قبراً تقول الروايات المتوازنة إنه يضم رفات أحد الأنبياء التوراتيين. والتى في طبرية بأحد موالي خلفاءبني أمية المخلوعين، ووجد لديه مؤلفاً في تاريخ هذه السلالة. وهذا المؤلف الذي لم يصلنا، ولم يعرف عنه من المصادر الأخرى، قدم على ما يبدو خدمة كبيرة للمسعودي، إذ استقى منه الكثير من المعلومات الهامة عن تاريخ الخلافة المبكر.

إلى الجنوب من طبرية تقع في واد تحيط به الجبال مدينة نازاريت الفلسطينية العريقة التي يسميها العرب (الناصرة) وفيها عاش السيد المسيح حتى الثلاثين من عمره. ولم يكن بوسع المسعودي أن يغفل هذه المدينة وهو الذي كان على ذاك القدر الكبير من الاطلاع على تطور المسيحية في بيزنطة، وعلى معرفة حسنة بالعديد من الشخصيات

المسيحية في الشرق الأدنى ومؤلفاتهم. وقد زار، كما يقول، كنيسة في الناصرة يجلها الناس كثيراً، وربما كانت كنيسة القديسة مريم التي بناها البيزنطيون. ويشير رحالتنا في معرض حديثه عن زيارته للناصرة إلى أن كلمة (النصرانية) وهي إحدى التسميات الشائعة في دولة الخلافة للديانة المسيحية، قد جاءت من اسم نازاريت العربي، أي "الناصرة". وزار المسعودي أيضاً بيت لحم، مسقط رأس السيد المسيح.

ومن الناصرة وصل المسعودي إلى نايلس التي جاء اسمها هذا من تسمية المدينة الرومانية التي كانت في الموقع نفسه، أي مدينة نيابوليس، وكان يقطنها في القرن العاشر أتباع طائفة السامريين اليهودية التي سعى المسعودي للاطلاع على تعاليمها في عين المكان. وإذا تابع مسيرة نحو الجنوب وصل رحالتنا إلى الرملة، وهي بلدة صغيرة كان الخلفاء الأمويون يستطيبون الاستجمام والصيد فيها. والكثير من الأمور هنا كان بالنسبة للمسعودي مقتربنا بالخلفية الأموي سليمان الذي أسس الرملة عندما كان والياً على فلسطين في عهد أخيه الوليد بن عبد الملك، وعندما صار خليفة لم يهجر مكان إقامته الطويلة هذا، بل كان مقامه في الرملة أكثر منه في العاصمة دمشق. ويأمر منه قام المسيحي السوري بطريق ابن النقعة ببناء قصر فيها فضلاً عن بناء المسجد الأبيض الذي تم توسيعه في عهد عمر بن عبد العزيز الذي خلف سليمان. وكان محراب المسجد الأبيض في زمن المسعودي هو الأكبر في العالم الإسلامي كله. وكان في المدينة نظام لتأمين الماء حيث كان يصل إلى المنازل من خزان العنزية الذي أنشأ في عهد هارون الرشيد عام ٦٨٩م. ولقد صور المؤرخون العرب المسلمين مؤسس الرملة سليمان رجلاً

نهماً ونيقاً. ويخبرنا المسعودي أن سليمان الجائع أبداً كانت له عادة الإمساك بقطع الدجاج المقلي الساخنة بعد أن يلف يديه بكمي الشوب الذي يرتديه من أثوابه الثمينة ما كان يستوجب استبدال لباسه الملوث بالدهن باستمرار. ويضيف المسعودي أن هذه الأثواب الملوثة بالدهن كانت محفوظة في خزنة هارون الرشيد، وأن هذا الخليفة أهدى واحداً منها للعالم اللغوي الأصممي لأنه استطاع أن يفسر أصل البقع التي عليها.

وبعد يومين من مغادرته الرملة وصل المسعودي إلى هدف رحلته، عاصمة فلسطين، المدينة المقدسة عند المسيحية واليهودية والإسلام، أي مدينة أورشليم (القدس).

أطلق الجغرافيون العرب المسلمين، ومنهم المسعودي، على هذه المدينة اسم (القدس) أو (بيت المقدس) وذلك إكراماً لذكرى واحد من الآباء التوراتيين كان يعيش فيها في قديم الزمان. وفي عهد الإمبراطور الروماني أدريان (١٣٨-١١٧ م) أقيمت مكان أورشليم مدينة جديدة هي إيليا كابيتولينا. كان المسعودي مطلعًّا على تاريخ هذه المدينة القديم، ولكن ما استثار باهتمامه في المقام الأول هو الآثار المسيحية والإسلامية الموجودة فيها بكثرة، إذ أن أورشليم غدت بمرور الزمن مدينة مقدسة للمسيحية والإسلام أيضاً. وفي عهد الإمبراطور قسطنطين بدأت إعادة بناء أورشليم بروحية مسيحية. وشاركت في ذلك أم الإمبراطور هيلينا، التي بُني بأموالها المعبد المسيحي الرئيسي في المدينة وهو كنيسة القيامة، كما يقول المسعودي في "كتاب التنبية والإشراف". وإذا غداً المسيحيون سادة الموقف في الإمبراطورية الرومانية فقد سعوا سعيًّا

حيثياً للعثور في القدس على دلائل مادية عن حياة وألام السيد المسيح. وسرعان ما اكتشفوا بقايا الصليب الذي صلب عليه.

و حول هذا الموضوع شاعت في أوساط المسيحيين السوريين حكاية تقول إن امرأة كريمة المحتد تدعى بروتونيكا (فروطانيا) كانت مسيحية قبل أن يعتنق قسطنطين هذا الدين، وذهبت إلى أورشليم للحج، وهناك وجدت الصليبان التي صلب عليها المسيح واثنان من قطاع الطرق أعدما معه. وعندما جيء بهذه المرأة وأولادها إلى قبو تحت الأرض كانت توجد فيه الصليبان وقعت ابنتها مغشياً عليها كالميت، فرأى مرافقو فروطانيا في موت الفتاة إشارة إلهية، وأخذوا يضعون الصليبان الواحد بعد الآخر على جسد الفتاة الهاامد. وعندما وضعوا على جسدها الصليب الذي صلب عليه المسيح بعثت حية في الحال. وبذلك تم التتحقق من هوية الصليب المقدس صانع المعجزات. لقد كان المسعودي مطلاعاً على هذه القصة التي لا يوردها كاملاً، بل يكتفي بذكر واقعة عثور امرأة رومانية على الصليب، ويقول إنها زوجة قيسار روما، واسمها قروطانيا. "ودانت امرأة الملك، وكان اسمها فروطانيا، ويقال بطريقية النصرانية، وصارت إلى أورشليم بيت المقدس فأخرجت الخشبة التي تظن النصارى أن المسيح صلب عليها. ويسموها صليب المسيح. وكانت في أيدي اليهود، قد منعوا النصارى منها، فأخذتها منهم وردتها على النصارى وقوت أمرهم". وكان المسعودي، على الأرجح، يعتقد بأن هذه القصة تقوم على أساس واقعة تاريخية ما، ولم يرغب بتعقيده روایتها بتفاصيل خيالية كان المسيحيون يؤمنون بها. لقد كان موقف المسعودي المسلم من المسيحية على قدر كبير من الاهتمام والتقدير، ولكن دوناً تصدق

قوى. إن ذكره اسم فروطانيقا يدل على مدى الدقة والسعنة الكبيرتين المميزتين لعمله في جمع وانتقاء المواد في تلك الأماكن التي قدر له زيارتها.

ومن أورشليم قام المسعودي برحالة إلى البحر الميت، فهو يشير إلى نسبة الأملاح العالية جداً في هذا الحوض المائي الذي لا وجود للكائنات الحية فيه، والذي كان بإمكان المرء أن يستلقي على سطحه ساكناً دون أن يغرق في مائه. ويصف المسعودي نهر الأردن الذي يصب في هذا البحر.

وفي العام الثاني (٩٢٧م) سافر رحالتنا إلى مدن وسط سوريا، ولعل نقطة انطلاقه كانت من مدينة حران الواقعة على الحدود بين سوريا والعراق، وكانت إبان القرون الوسطى مركز طائفة الصابئة التي نشأ مذهبها من امتزاج العبادات المحلية القديمة بعقائد قدماء الإغريق التي انتقلت إلى الشرق الأدنى إثر فتوحات الإسكندر المقدوني. وكان الصابئة يجلون اثنين من كبار الفلاسفة الأنبياء هما: أzymon، وهرمز الإغريقي الذي يساوون بينه وبين الإله المصري سبت. وكان المغني الأسطوري أورفيوس يعتبر واحداً من أنبياء الصابئة. على أن العالم، حسب تعاليم أتباع هذه الطائفة، خلقه خالق قدسي عليم بكل شيء، وبواسع الإنسان التقرب إليه بواسطة أرواح لا أجساد لها (شفافة، نورانية)، تليها مرتبة الأرواح التي تسير الكواكب والشمس والقمر، وتقيم في معابد مشيدة لها.

إن عبادة أرواح الكواكب تفسر سبب تلك الدرجة العالية من تطور علم الفلك عند الصابئة، حتى أن المسعودي كان يعتقد أن أهل حران

باليذات هم الذين اخترعوا نظام قياس مدارات الكواكب، وطبقاً لذلك أخذوا يسمون الكهنة حسب الدرجات، وعبر عن اعتقاده بأن المسيحيين فيما بعد أخذوا عن الصابئة نظام المراتب الروحية.

وعند اطلاعه على عقائد طائفة حران عبر تجربته الشخصية تفحص المسعودي معبدهم الرئيسي الذي تقول الروايات المتوارثة أن عذراً أبا إبراهيم التوراتي هو من شيده. وشاهد رحالتنا على باب أحد بيوت العبادة عند الصابئة كتابة باللغة السريانية التي كانت لغة مقدسة عند هذه الطائفة، تقول "من عرف نفسه تأله". وكان الصابئة يعتقدون أن هذا القول المأثور يعود إلى الفيلسوف الإغريقي أفلاطون.

وفي طريقه إلى دمشق توقف المسعودي لبعض الوقت في واحة تقع إلى الشمال الشرقي من العاصمة السورية، إذ لفت انتباذه هناك آثار تدمر العظيمة، تدمر عاصمة المملكة العربية الهللينية التي نافست الإمبراطورية الرومانية في الشرق الأدنى في القرن الثالث الميلادي. وكانت تحكم تدمر آنذاك مملكة تدعى زنوبيا تمكنت من إخضاع سوريا كلها، ومصر أيضاً. ولكن الإمبراطور الروماني أورليان وضع حدأً لنجاحات هذه المملكة الطموحة. وبعد أن قضى على قواتها استولى على تدمر وخربها وأرسل زنوبيا أسيرة إلى روما حيث ماتت. وقد شاركت الرومان في القضاء على تدمر قوات إضافية شكلت من العرب البدو. وبفضل ذكريات هؤلاء عن الملكة الجبارة زنوبيا ظهرت إلى الوجود حكاية تدمير تدمر وموت ملكتها المعروفة عند العرب باسم الزباء.

ويورد المسعودي هذه القصة في "مروج الذهب" فيقول إن الزباء حكمت سوريا بالكامل وقسمها من العراق، وكانت عازبة، وأن جذيمه

حاكم إحدى المالك العربية المجاورة تقدم لخطبتها، فوافقت واقتربت عليه الحضور إليها. جمع جذيمة المقربين منه وشاورهم في الأمر، فرأوا جميعاً أن زيارة الزباء لا تنطوي على أي خطر، إلا كاسر بن سعد الذي نصحه بأن يدعوا ملكة تدمر إليه بدلاً من يزورها هو؛ فإذا كانت نوایاها طيبة ستلبى الدعوة حتماً. ولكن الملك لم يأخذ بنصيحة كاسر، وقرر أن يذهب إلى الزباء. وما أن رأته حتى أمرت بشق عروقه وجمع دمه كله في وعاء من الذهب، إذ قيل لها إن في دم جذيمة فوائد في العلاج من الأمراض، ولذلك قررت استقادمه وقتله. وكان أن قتل معه كل أفراد حاشيته، إلا كاسرا الذي نجا من الموت وفرَّ على حصان سريع، وأفلت من مطارديه حتى وصل سالماً إلى عمرو بن عدي خليفة جذيمة. وقرر الاثنان الانتقام من الزباء. ولكن كيف الوصول إليها وهي خلف أسوار تدمر المنيعة؟ فكر كاسر بحيلة، وطلب من عمرو أن يجدع له أنهه ويصلم أذنيه. وتوجه كاسر وهو في هذه الحال إلى الزباء وقال لها إن عمرو بن عدي قد أهانه أياً إهانة، ولذلك جاءها متسللاً حمايته والانتقام من المسيء. استقبلت الزباء كاسراً وجعلته تاجر البلاط عندها. ذهب كاسر سراً إلى عمرو وأحضر من عنده سلعاً حظيت بإعجاب شديد من قبل سيدته الجديدة. ولقد نال كاسر ثقتها إلى درجة أنها أخبرته بوجود سرداد سري تحت الأرض يؤدي من قصرها إلى خارج المدينة يمكن استخدامه في حال الخطر. وبعد ذلك بوقت قصير أبلغها كاسر أنه سيسافر لإحضار سلع جديدة لها، ولكنه توجه إلى عمرو وأبلغه بالأمر، وأشار عليه بأن يختبئ وألفان من المقاتلين في صناديق حملت على الجمال ونقلت إلى تدمر على أنها سلع للملكة. وعندما دخلت الجمال

المدينة قفز عمرو ورجاله من الصناديق وراحوا يقتلون كل من يقع تحت أيديهم. اندفعت الزباء إلى السرداد طلبا للنجاة، إلا أن كاسر اعترض طريقها والسيف بيده، فعادت مسرعة إلى الوراء، ولكن عمرو بربز أمامها وقتلها. وهكذا قضت هذه الملكة الدموية، وقضت معها أيضاً تدمر المنية التي دمرها جنود عمرو بن عدي.

وبعد أن حل في دمشق زار المسعودي المسجد الأموي، مكان العبادة الإسلامي الرئيسي في العاصمة السورية، الذي شيد في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (٧١٥-٧٠٥) مكان كنيسة يوحنا المعمدان الأرثوذكسية التي انتزعت من المسيحيين بالرغم من المعاهدة المعقودة بين سكان دمشق والعرب المسلمين الذين دخلوها عام ٦٣٥ م. وقد ضمنت هذه المعاهدة للمسيحيين الحفاظ على حياتهم وكنائسهم ومتلكاتهم. وهدمت كاتدرائية يوحنا المعمدان هذه عام ٧٠٥ م ولم يبق منها إلا جدرانها الحجرية الضخمة التي بنيت داخلها قاعة للصلوة تعلوها قبة، وأحيطت باحة المسجد برواق من الأعمدة المنسقوفة. ويقول المسعودي أيضاً إن البنائين المسلمين أبقوا على أبراج الأجراس في الكنيسة، فتحولت إلى مآذن. وبقي في المسجد أيضاً، كما تقول الرواية، ضريح يضم رأس يوحنا المعمدان الذي يجله المسيحيون والمسلمون على حد سواء.

كان المسعودي على علم بأنه في مكان المسجد الأموي، وقبل إقامة كاتدرائية يوحنا المعمدان، كان يوجد معبد جوبتر الذي بني في أيام الرومان، ولكنه لم يكن يعلم أنه في هذا المكان أيضاً كان يوجد معبدوثني مقدس وذلك قبل ضم سوريا إلى الإمبراطورية الرومانية. ويبدو أن

المسعودي وصلته معلومات عما لهذا المكان من أهمية بالنسبة للطقوس والعبادات القديمة، ولذلك نراه يورد حكاية أخرى تقول إنه تم العثور أثناء بناء المسجد على لوحة حجرية عليها كتابة باليونانية تدعو إلى الزهد والتقوى. ورأى العالم المسلم وهب بن المنبه الذي فك رموز هذه الكتابة أن اللوحة تعود إلى زمن سليمان بن داود التوراتي.

ومن الأماكن الأخرى التي زارها المسعودي في رحلته هذه، ولابد من الإشارة إليها، بعلبك الشهيرة التي بقي فيها مجمع المعابد الرومانية من الفترة المتدة ما بين القرنين الأول والثالث الميلاديين، والذي يتتألف من المعبد الكبير (معبد جوبير) والمعبد الصغير (معبد عطارد) والمعبد الدائري (معبد الزهرة). وكان العرب المسلمين آنذاك يعتقدون أن هذه المبناني الهائلة قد شيدتها الجن بإمرة النبي سليمان. ولعل القارئ يذكر أن أطلال بيرسبوليس، التي شاهدها المسعودي أثناء وجوده في اصطخر الإيرانية كانت تنسب إلى قوة الجن أيضاً من وجهة نظر عشاق القديم في القرون الوسطى. وخلافاً لمعاصريه يفترض رحالتنا بحق أن معابد بعلبك من صنع يد الإنسان، وأنها تعبر عن قدسيّة بعل أحد آلهة الساميين الذي كان موضع إجلال في فينيقيا وفلسطين وسوريا. وبالفعل كان في بعلبك منذ القدم معابد للآلهة الفينيقية التي أصبحت تتماهي في العهد الهلنلّي والرومانى مع زفس - جوبير، وأفروديد - الزهرة، وهرمز - عطارد. ولما لم يكن التناول التاريخي للظاهرات الاجتماعية والآثار الثقافية معمولاً به في زمن المسعودي، فقد ربط مؤلفنا عبادة بعل في بعلبك بقدماً الإغريق. إن رحلته إلى هذه المدينة ذات المبني الضخمة، الرحلة التي عاد منها بانطباعات غنية، كانت خاتمة لائقه لترحاله في

ربوع سورية التي سرعان ما عاد منها إلى بغداد. ولكن المسعودي لم يطل الإقامة في بغداد، فتوجه، وهو الرحالة الذي لا يكلّ، إلى اليمن مهد الحضارة العربية، مروراً بجزيرة العرب.

عبر رمال جزيرة العرب

لعبت اليمن، الواقعة في جنوب شبه الجزيرة العربية، دوراً متميزاً في تاريخ الشرق الأدنى، فمنذ القدم عرفت هذه البلاد الزراعة المروية التي أدت بمرور الزمن إلى قيام حضارة وكيان دولة راقبين، وكانت حاجة المجتمع للبقاء والتطور دافعاً للغة العربية الجنوبية في اليمن كي تبتكر أبجديتها التي بقيت في العديد من الشواهد الأثرية المكتشفة في أراضيها. وكان لثقافة اليمن تأثيرها الكبير على البلدان المجاورة، ففي الألف الأول قبل الميلاد أخذ اليمنيون يتغلغلون في أراضي الحبشة حيث اختلطوا بالسكان المحليين ذوي البشرة السمرة، وأرسوا أسس الحضارة الحبشية. وكانت علاقات سكان اليمن الحضريين مع الرحل وشبه الرحل في المناطق الداخلية لشبه جزيرة العرب، علاقات وطيدة، ولذلك لم يكن من قبيل الصدف، كما جاء في قصص العرب، أن قام ملوك اليمن في أحيان كثيرة بدور الحكم في النزاعات التي كانت تنشب بين القبائل العربية. لقد تجاوز صيت اليمن منطقة البحر الأحمر وشبه جزيرة العرب فكان معروفاً لدى جغرافيي قدماء الإغريق الذين أطلقوا على اليمن اسم "بلاد العرب السعيدة" واعتبروها موطن العطور الشميّة النادرة. وفي القرن الأول بعد الميلاد، عندما أخذت حضارة اليمن بالانحدار، جرت هجرة جماعية للقبائل العربية من وسط شبه الجزيرة باتجاه اليمن.

وفيما بعد، في القرون الأولى بعد الإسلام، تمازج اليمنيون مع أقريائهم الواقدين هؤلاء، ونسوا شيئاً فشيئاً لغتهم الأصلية القديمة، وأخذوا يتكلمون بلهجات لغة الشمال العربية، لغة الشعر الجاهلي والقرآن التي انتشرت مع الفتوحات العربية الإسلامية في مناطق واسعة. وبالرغم من أن اليمن قد تعرّف، فإن سكانها ما زالوا حتى يومنا هذا، يحافظون على وعي الانتماء إلى جماعة يمنية متميزة، وعلى الاعتزاز بأنهم ورثة حضارة عريقة.

كانت العصبية اليمنية زمن المسعودي قوية جداً. فقد انقسمت القبائل العربية في سياق الفتوحات العربية الإسلامية إلى مجموعتين متناقضتين هما: العدنانيون أو عرب الشمال، والقططانيون أو عرب الجنوب. وهؤلاء يعودون بأصولهم إلى قحطان الجد الأسطوري الذي عاش على أرض اليمن، كما يقال. وكان القططانيون يعتبرون أنفسهم أحفاد اليمنيين القدماء، وورثة ملوك اليمن، ولذلك نشأ في بيئتهم ما يسمى بالموروث القصصي العربي الجنوبي (القططاني) الذي هو جملة من الأساطير والحكايات التي تتحدث عن ملوك اليمن القديم، مع تحويل شديد لواقع التاريخ الحقيقية. وفيما بعد انتقل هذا الموروث القططاني إلى مؤلفات العلماء العرب المسلمين ذوي العلاقة بالقبائل العربية الجنوبية، وغدا جزءاً من علم التاريخ العربي الإسلامي ككل.

وما لا شك فيه أن المسعودي قد تعرف على هذا الموروث مذ كان تلميذاً في بغداد، وعرف من خلاله أنه قامت في اليمن حضارة قديمة، كانت آثارها شواهد عليها حتى زمنه. ولذلك نراه يقرر، بعد أن استراح قليلاً من عناه سفرته في ريوس سوريا، مشاهدة هذه الأوابد شخصياً.

ولن كان من المستحيل أن نحدد تاريخ رحلة المسعودي إلى الجزيرة العربية، فإن بالإمكان الافتراض أن ذلك كان في النصف الأول من ثلاثينيات القرن العاشر. و يبدو أن رحالتنا انضم مرة إلى قافلة حجيج قبيل شهر ذي الحجة الذي تقضى فرائض الإسلام بالحج إلى مكة المكرمة في الأيام العشرة الأولى منه. وكان على رأس قافلة الحجيج التي تنطلق من بغداد شخص مكلف من الخليفة ينتهي عادة إلى بني العباس: وبعد وصوله إلى مكة مع القافلة أدى المسعودي فريضة الحج. وبالمناسبة، كان القرامطة (وهم فرقة إسلامية متطرفة) قد استولوا على مكة ونهبواها قبل وقت قصير من وصول رحالتنا إليها، أي في العام ٩٣٠م. وكان من جملة ما أخذوه الحجر الأسود الذي يتوجب على الحجاج تقبيله، ولم يسترجع إلا بعد ٢١ عاماً. وهكذا نرى أن عنصراً هاماً من عناصر فريضة الحج كان غائباً عند زيادة المسعودي لمكة. وبعد انتهاء شعائر الحج اتجه رحالتنا فوراً صوب عاصمة اليمن صنعاء، المدينة العريقة، موطن السيفون اليمنية الشهيرة في الشرق الأدنى كله، والتي كان الخليفة المتوكل مولعاً بجمعها، كمارأينا، وولعه هذا هو ما أودى بحياته إذا ما صحت رواية المسعودي.

في النصف الأول من القرن العاشر لم تكن اليمن خاضعة لسيطرة بغداد عملياً، وكانت السلطة فيها لسلالة بني يعفر المحلية التي تُرجع نسبها إلى الملك اليمني تَبع. ولم تكن الأوضاع في اليمن تتصرف بالهدوء إطلاقاً، فقد ناصب اليعفريين العداء كل من القرامطة وأبناء الطائفية الزيدية، وانتقلت صنعاء في مطلع القرن العاشر من يد إلى أخرى عشرين مرة. وقبيل وصول المسعودي كانت العاصمة صنعاء تحت

سيطرة الحاكم اليعمري أسد بن إبراهيم، وفيها شاهد رحالتنا أطلال قصر غمدان الفخم الذي شيده أحد ملوك اليمن في القرن الأول قبل الميلاد.

كان العرب المسلمين، كما سبق وأشارنا، كثيراً ما ينسبون بناء المنشآت الفخيمة إلى النبي سليمان الذي يؤمنون بأنه ملك الجن، ولقد ظهرت إلى الوجود أساطير من هذا النوع فيما يتعلق ببناء قصر صنعاء.

أما المسعودي فيرى أن غمدان ليس قصراً بل هو معبد كوكب الزهرة بناه الصحاك، الذي تقول الأسطورة إنه غزا إيران، حيث أوثق إلى جبل دباوند. وفي القرن السادس احتل الأحباش اليمن لبعض الوقت فدمروا قصر غمدان، ثم أعاد بناءه من جديد سيف بن ذي يزن الذي طرد الأحباش بمساعدة شاه إيران. وبناء على ما ورد في أوصاف هذا القصر، فإن ارتفاعه بلغ عشرين طابقاً، وكان جزؤه الأسفل يتتألف من كتل حجرية ضخمة، أما جزؤه الأعلى فقد شيد من المرمر. وكانت تزين هذا البناء الضخم أربعة تماثيل أسود برونزيّة. وعندما عمّت الفتنة اليمن مرة أخرى في القرن السابع كان مصير قصر غمدان يدعو للحزن كالعديد من شواخص العمارة، إذ دمر عن آخره ولم يبق فيه حجر على حجر. ويخبرنا المسعودي أن ذلك كان بناء على أمر من الخليفة الثالث عثمان بن عفان (٦٤٤-٦٥٦). وقد شاهد رحالتنا في مكان القصر تلاً هائلاً يخفي آثار القصر عن أعين الناس. وعلم المسعودي من السكان المحليين أن حاكم اليمن أسد بن يعفر كان ي يريد بناء القصر من جديد ولكن أحد مقربيه نصحه بآلا يفعل. وهكذا كان، فبقيت أطلال غمدان تحت الأرض.

كانت أمجاد قصر غمدان لا تزال حية في العالم العربي الإسلامي، ولكن طفت عليها أمجاد منشأة شهيرة أخرى في اليمن هي سد مأرب،

عاصمة مملكة سبا التي تعد من أقدم كيانات الدول على أرض هذا البلد. لم يفوت المسعودي فرصة زيارة مأرب الواقعة إلى الشمال الشرقي من صنعاء. فقد كان سد مأرب خزانًا كبيراً تجتمع فيه المياه المنحدرة من الجبال، ومنه توزع على الحقول بقنوات خاصة. وكانت الأرضي حول مأرب تستثمر استثماراً زراعياً متقدماً. ويقول المسعودي إن البساتين هناك كانت متراحمية الأطراف يمكن للمرء أن يركب الخيل فيها ويسير في أي اتجاه مدة ثلاثة أيام تحت ظلال الأشجار المشمرة. ولم تقتصر فائدة سد مأرب على تجميع المياه وتوزيعها، بل كان يدرأ خطر السيول أيضاً. وفي القرن السادس على الأغلب، حلت كارثة بهذا السد إذ دمرته سيول قوية فغمرت مياهه أراضي خصبة واسعة وأغرقتها فأوقعت ضربة قوية باقتصاد اليمن القديمة.

إن المسعودي الذي لم يكن يحب المكوث طويلاً في مكان يعينه، لم يكتف على الأرجح بزيارة صنعاء ومأرب، بل تنقل في ربوع هذا البلد الجديد عليه ولو أنه لا يخبرنا عن ذلك. ولكنه أورد في "مروج الذهب" وصفاً موجزاً، ودقيقاً في الحين ذاته، لحدود اليمن يذكر فيه المسافات بين أهم مناطقها.

عاد المسعودي أدراجه عبر الطريق نفسه وعيشه لا تغفل شيئاً من حياة البدو العرب، فلاحظ أن العيش في الصحراء، ورغم كل المصاعب والحرمان، أكثر عافية للأبدان من العيش في المدن التي غالباً ما كانت تنتشر فيها الأوبئة في زمانه. ويرى المسعودي أن العرب من أكثر أهل الأرض عافية، ويعزو ذلك إلى دوام ما يعانون من مصاعب، وإلى الهواء النقي المنعش والأرض الخالية من التلوث. وفضلاً عن ذلك فإن الصراع

ال دائم مع الظروف الطبيعية القاسية قد عودهم على إكرام الضيف والنزاهة ومساعدة الجار وعابر السبيل. ولذلك لم يكن غريباً أن ظهرت رواية يوردها المسعودي عن البدوي حاتم الطائي الذي اشتهر بكرم لا حدود له، حتى إنه بعد موته يحسن ضيافة كل من زار قبره.

لقد قدر للمسعودي أن يسمع أثناء ترحاله في ربوع الجزيرة العربية من المسافرين معه، ومن البدو الذين صادفهم وتحدث إليهم أثناء استراحات الطريق وقرب مواقد النار، قصصاً وحكايات ساطعة عن لقاءات فظيعة مع كائنات خارقة هي غيلان غدارة متعطشة للدماء تأكل لحوم البشر، وشياطين من الجن خلقها الله من نار. والغول وحش مرعب له قوائم ماعز يحب، كما يقول العرب، استدرج عابري السبيل إلى أماكن مقفرة خالية من البشر فি�أكلهم. وبالرغم من أن الاعتقاد بوجود الجن والغيلان عززه العديد من أقوال "شهود عيان" وهيبة القرآن الكريم والعديد من صحابة الرسول، فإن المسعودي لم يكن على إيمان كبير بحقيقة هذه الكائنات، ولو أنه يورد رواية عن الخليفة عمر بن الخطاب تقول إنه صادف مرة، قبل الإسلام، غولاً وقتلته بالسيف. ويشير المسعودي بحذر إلى أن الغول، برأي بعض قدماء الفلاسفة، ليس مسخاً يأكل لحوم البشر، وما هو إلا حيوان وحسب. وأن حكماً الهندي لا يعدون الغول إلا مجرد سراب ناشئ عن نور النجوم، وما الجن إلا هلوسات في ذهن الإنسان تسببها الوحدة الطويلة وسط الرمال اللاهبة.

وببدو أن رحلة المسعودي من اليمن إلى بغداد مرت دون وقوع أحداث تذكر، وعاد إلى موطنه بسلام.

على الحدود مع بلاد الروس المجهولة

قام المسعودي في النصف الثاني من ثلاثينيات القرن العاشر بواحدة من رحلاته كانت الأوفر حظاً من حيث الأخبار والمواد التي جمعها، إنها رحلته إلى سواحل بحر قزوين الذي كان يسمى في زمانه بحر الخزر، وإلى القوقاز أيضاً. وكان المسعودي قد سمع مراراً من التجار العرب المسلمين الذين زاروا هذه المناطق، عن شعوب عديدة لم تكن معروفة لديه، وتعيش في القوقاز، أو في جبل القبغ (أو القبج) كما كان يسميه العرب، وكذلك في الأماكن المجاورة لهذه السلسلة الجبلية. ويبدو أن رحالتنا أراد التعرف عن قرب على الخزر، والبلغار الذين اعتنقوا الإسلام قبل فترة قصيرة من ذلك، وعلى الروس الذين ربما كان قد سمع عنهم إبان وجوده على الحدود السورية البيزنطية. وإضافة إلى ذلك كان عليه أن يحل مسألة جغرافية بحثة، هي استبيان ما إذا كان بحر بنطس (البحر الأسود) وبحر الخزر (بحر قزوين) متصلين فيما بينهما، إذ أن الجغرافيين العرب المسلمين الذين عاشوا قبل المسعودي كانوا يعتقدون اعتقاداً جازماً بأن بحر الخزر جزء من بحر بنطس، وهذا ما كان موضع شك عنده بناءً على معلومات أولية غير مؤكدة لديه.

كانت بغداد على ما يبدو نقطة الانطلاق في رحلته هذه، وقرر أن يسلك الطريق إلى بحر قزوين عبر إقليمي طبرستان (مازنديران الحالية) وجرجان الإيرانيتين المضطربتين، حيث كانت السلالات الحاكمة فيهما لا تخضع للخليفة إلا اسمياً. وبعد أن وصل إلى ميناً آبسكون الواقع على مسافة ثلاثة أيام من مدينة جرجان عاصمة الإقليم المسمى بهذا الاسم نفسه، ركب المسعودي سفينته تجارية وأبحر بمحاذة الساحلين الجنوبي

والشرقي لبحر قزوين. وأثناء إبحاره شاهد في الماء كائنات غريبة كانت تعتبر في العالم العربي الإسلامي تنانين، ولكن يبدو أنها كانت في الواقع الأمر، من الفقمة التي كانت تكثر في هذا البحر. وفي إحدى الجزر رأى صقروراً بيضاً، كانت تعد من العجائب في العالم العربي الإسلامي. ويقول المسعودي إن هذا النوع من طيور الصيد، حسب رأي العارفين، هو الأكثر سرعة، ولذلك كانوا يطعمونها سمكاً، ومن ثم يصطادونها ويدجنونها ثم يبيعونها. وعند شواطئ أبشرون أتيح للمسعودي مشاهدة منابع نفط تحت الماء ظنها براكين. وحدثه التجار الذين يجوبون كل الأصقاع، عن الأنهار التي تصب في بحر قزوين، أي الفولغا، والأورال، وكورا. ولكن ذلك لم يكن في نظره على قدر من الأهمية يعادل أهمية التتحقق مما إذا كان بحر قزوين حوضاً مائياً مستقلاً بذاته ولا اتصال له بالبحر الأسود. وإذا قام المسعودي شخصياً باختبار دقة هذا الأمر، كتب يقول باعتزاز إن بحر الخزر غير متصل ببحر بنطس، إذ أنه أبخر فيه واستفسر عنه كل التجار الذين صادفهم.

كانت مدينة باكو، على أغلب الاحتمالات، النقطة الأخيرة في رحلة المسعودي في بحر قزوين. ويقول رحالتنا إن في ضواحيها الكثير من منابع النفط. وهي ميناً هاماً كانت تنطلق منه السفن إلى بلاد الخزر التي كانت أول كيان دولة في شرق أوروبا. وقد قامت في القرن السابع على أنقاض خاقانية الترك الغربية المتهارة. فقد كانت مملكة الخزر تجتمعًّا متعدد الألوان من حيث الانتماء القبلي، أما نواة هذه الدولة الإقطاعية الباكرة فكانت من الخزر الذين تنتهي لغتهم إلى المجموعة التركية الغربية. وكان بين هؤلاء أيضاً قسم من البلغار القربين نسباً إليهم

وكانوا يسكنون حوض بحر آزوف وشبه جزيرة تaman. وقد أخضعهم الخزر منذ القرن السابع حال قيام الدولة الخزرية المستقلة. أما القسم الآخر من البلغار الذين لم يرضوا بالاعتراف بسيادة وجهاه الخزر فقد رحلوا، وعلى رأسهم الملك أسبروخ إلى حوض الدانوب حيث أقاموا بلغاريا الدانوب بالاشتراك مع من أخضعوا هناك من السكان السلاف (الصقالبة). وشيئا فشيئا ذاب بلغار الدانوب الذين كان عددهم ضئيلاً للغاية مقارنة بعدد السكان السلاف المحليين، واندمجوا تدريجياً بالسكان المغلوبين وقتلوا لغتهم ونمط حياتهم، ولم يبق ما يدل عليهم إلا اسمهم في بلغاريا السلافية. أما القسم الثالث، والأخير، من البلغار فقد أقام دولة على أراضي ترستان الحالية. لقد خاضت مملكة الخزر حرباً ضاربة ضد الدولتين الرئيسيتين في الشرق الأدنى، أي دولة الخلافة وبيزنطة، ولكن نجمها أخذ بالأفول في القرن العاشر. وبعد مرور قرابة ثلاثين عاماً على زيادة المسعودي إلى باكو، أي عام ٩٦٥م، وجه أمير كييف سفياتوسلاف ضربة قاضية لهذه المدينة.

كانت عاصمة الخزر إيتيل (آمل) تقع في أسفل حوض نهر الفولغا، ومن المرجح أن المسعودي لم يزر هذه المنطقة إلا أنه ترك لنا وصفاًحيا لهذه المدينة مبنياً، كما يغلب الظن، على أخبار التجار المسلمين الذين كانوا يسافرون إلى مملكة الخزر لأغراض تجارية. ويقول المسعودي إن إيتيل (آمل) تقع على ضفتي نهر عظيم ينبع من بلاد الترك، أي نهر الفولغا، وأن قصر الملك قائم على جزيرة في وسط النهر ويصلها بإحدى ضفتيه جسر عائم.

كان المسعودي على معرفة حسنة بالنظام السياسي لدولة الخزر،

وعلى علم بأن السلطة الفعلية في هذه الخاقانية لملك هو صنيعة لوجهها، البلغار. أما الشخصية القدسية التي عليها يتوقف خير البلاد بأسرها حسب معتقدات الخزر فهو الخاقان المقيم في القصر دائمًا، والذي لا يحق له الظهور أمام الشعب. وإذا ما سارت الأمور في البلاد على غير ما يرام، كأن يحل الجفاف أو ينتصر الأعداء، يقوم الملك بناء على طلب الرعية بقتل الخاقان، أو بتركه لهم للتنكيل به، ثم يحل محله أحد أبناء عشيرته نفسها. كان المسعودي عند شروعه بدراسة أي بلد جديد، يهتم دائمًا بالديانة السائدة فيه، وكان على علم بأن الخاقان ومحيطة الأقرب قد اعتنقوا اليهودية في مطلع القرن التاسع، أما أكثريتهم العامة بين الخزر والبلغار فقد حافظوا على معتقداتهم الوثنية التقليدية.

ويخبرنا المسعودي بأن مجموعة كبيرة من المسلمين كانت تقطن آمل، وتسمى الالراسية، أصلها من خوارزم. ويعتقد الباحثون المعاصرون بأن هذه المجموعة هي بقايا قبائل اللان والآس من آسيا الوسطى، ويضيف رحالتنا أن المسلمين في بلاد الخزر قطعوا بنفوذ كبير في خاقانية الخزر، إذ كانوا يشكلون القوة العسكرية الأساسية عند الملك. ولقد عقد الالراسية، وفقاً للمعلومات التي يوردها المسعودي، معاهدة مع الملك تضمن لهم وضعًا امتيازياً، فكان لهم الحق في ممارسة طقوسهم الدينية بحرية، وألا يشاركون في حروب الخزر ضد مسلمين آخرين، إضافة إلى أن منصب مستشار الملك، الوزير حسب تعبير المسعودي، كان يناث برجل مسلم حصراً. ويدرك المسعودي اسم المسلم الذي كان يشغل هذا المنصب في زمن رحلته إلى القوقاز ومنطقة بحر قزوين، وهو أحمد بن كويه. وكان في إيتيل (آمل) مجموعتان آخرتان من السكان هما الوثنيون

(الروس والسلاف)، والسيحيون. وكان النظام القضائي في عاصمة الخزر يأخذ بعين الاعتبار تعدد الطوائف في هذه المدينة، فكان فيها قاضيان للبيهود، وقاضيان للمسيحيين، وقاض واحد للوثنيين.

وفضلاً عن دولة الخزر كان المسعودي على علم أيضاً بوجود بلغاريا حوض الفولغا. وقد اهتم على نحو خاص ببلغار الفولغا لأنه كان يعلم أن حاكمهم والقربين منه قد اعتنقوا الإسلام في عهد الخليفة المقتدر (٩٠٨ - ٩٣٢). وفي هذا المجال يذكر المسعودي بهجمات البلغار على القسطنطينية، ولكنه يجانب الصواب في ذلك، إذ اختلطت عليه التسمية بين بلغار الفولغا وبلغار الداتوب الذين حاربوا فعلاً ضد بيزنطة. وفي معرض حديثه عن البلغار يلاحظ بحق أن هذا الشعب هو فرع من الأتراك. ويقول أيضاً إن الليالي في بلاد البلغار قصيرة إلى حد يتغدر معه على المرء "أن يفرغ من طبخ قدره" في ليلة واحدة من هذه الليالي. إن هذه المعلومات التي نجدها كذلك في مؤلفات غيره من الجغرافيين العرب المسلمين لا تخص بلغاريا حوض الفولغا، بل مناطق أكثر بعده نحو الشمال معروفة بلياليها البيضاء في فصل الصيف، ولكنها معلومات وصلت إلى المسلمين عن طريق البلغار فنسبها جغرافيوهم إلى بلغاريا.

ويشير المسعودي إضافة إلى الخزر والبلغار، إلى شعوب أوروبا الشرقية الرحل، أي البشناق والمديار (المجريين) والغوز.

ولعل المسعودي أحاط علماً من قبل التجار الذين كانوا يسافرون إلى بلاد الخزر ويحدثونه عنها، بأن شعباً آخر (الروس) قام قبل عشرين عاماً ونيف من رحلة المسعودي إلى منطقة القوقاز، بحملة

كاسحة على الساحل الجنوبي والجنوبي الشرقي لبحر قزوين. وقد يكون تجار عاشوا ويلات تلك الحملة هم الذين أخبروا رحالتنا بأن . . ٥ مركب روسي على كل منها قرابة . . ١٠٠ من المحاربين الروس أبحرت نحو مخفر حراسة خزري، يبدو أنه قوتراكانى، على الساحل الشمالي لبحر آزوف الذي يسميه المسعودي " خليج بحر نيطس ". وهنا توجه قواد الروس إلى ملك الخزر، عن طريق حامية القلعة، يطلب السماح لقوتهم بالمرور عبر الأراضي الخزرية إلى أراضي المسلمين الواقعة على الساحل الجنوبي والجنوبي الشرقي لبحر قزوين. وكان الخزر آنذاك في صراع مع الإمارات الإسلامية للسيطرة على الطريق التجاري المؤدي إلى الشمال من بحر قزوين عبر نهر الفولغا. ولذلك وافق ملوكهم على مرور مراكب الروس شريطة أن يقدموا له في طريق عودتهم نصف ما يسلبونه من غنائم. وهكذا أخذ الروس طريقهم صعداً في نهر الدون. وبعد ذلك قاموا (المسعودي لا يحدثنا عن هذا الموضوع) بنقل مراكبهم جراً نحو نهر الفولغا، إلى المكان الذي تقع فيه عاصمة الخزر، ومن ثم نزلوا إلى بحر قزوين مباشرة بطريق نهر الفولغا. وبعد أن قطعوا هذا البحر على مراكبهم وصلوا إلى شواطئه الجنوبية، حيث انقسموا إلى فصائل راحت تعمل نهباً في أذربيجان وطبرستان والديلم، وخاضوا معارك ضارية، وخاصة على مقرية من باكتو. وعندئذ جمع ملك شروان علي بن الهيثم قوات كبيرة وهاجم هؤلاء الضيوف المتطفلين الذين أقاموا لأنفسهم ملاجيء في الجزر القريبة من الشاطئ، غير أن هذه القوات منيت بهزيمة قاسية وتکبدت خسائر فادحة. وبعد أن أمضى الروس شهوراً عديدة في بحر قزوين قرروا العودة إلى بلادهم. وتحركوا ببطء شديد، على أغلب

الظن، لأن مراكبهم كانت مثقلة بالغنائم والأسرى. وبعد وصولهم إلى آمل، قدموا لملك الخزر ما يملئه عليهم الاتفاق، وقرروا مواصلة رحلتهم، ولكن مقاتلي الlarسية المسلمين التابعين لملك الخزر هاجموهم بالقرب من آمل. أما الملك المدين للروس لما قاموا به ضد جيرانه المسلمين، وما دفعوه له كرسوم مرور عبر أراضيه، فقد نبه الروس إلى ما يتهددهم من خطر، إذ لم تكن لديه وسيلة أخرى لردع جنوده المسلمين العصاة. وقد اصطفت قوات الlarسية، وفي عدادها الكثير من الخيالة، على ضفة الفولغا وسدت الطريق أمام الروس، فخرج هؤلاء من مراكبهم وانتظموا في نسق قتالي. ولكن المعركة بين الطرفين انتهت نهاية مأساوية بالنسبة للروس، فسقط كثيرون منهم في ساحة المعركة وغرق آخرون، فيما تكبت البقية المندرحة، وتقدر بنحو خمسة آلاف مقاتل، من النجاة على المراكب. ولكن بينما كان هؤلاء في طريقهم النهري إلى ديارهم تعرضوا للهجوم وقتل أغلبهم، على أيدي بلغار الفولغا وغيرهم من القبائل القاطنة على ضفاف هذا النهر العظيم. وهكذا منيت هذه الحملة العسكرية الروسية بفشل ذريع.

ويرى الباحث الروسي ف.م. بيليس في دراسته مؤلفات المسعودي بوصفها مرجعاً في تاريخ أوروبا الشرقية، أن أحد الأسباب الخفية لهذه الحملة يكمن في رغبة أمير كييف بالتخلص من الزيادة المفرطة في تعداد قواته التي أثقلتها تكاثر عدد المرتزقة عند إعداده لحملته على القسطنطينية عام ٩١١م، ف جاء الهجوم على منطقة بحر قزوين الجنوبية بعد عامين فقط من هذه الحملة... ولذلك من المحتمل تماماً أن قسماً هاماً، إذا لم يكن القسم الأكبر، من الروس الذين حاربوا هناك، كان من المحاربين الاسكيندرينيين.

وأيا كان الأمر، فإن المعلومات التي حصل عليها المسعودي عن حملة الروس على ديار المسلمين عامي ٩١٣-٩١٤م، وذكرياته عما سمعه عنهم أثناء إقامته على الحدود السورية البيزنطية هو ما أثار اهتمامه بهذا القوم، وساعدته في جمع كل ما أتيح له من أخبار عنه. كان المسعودي يسأل الناس عن كل ما يعرفونه عن الروس حتى توصل إلى استنتاج مفاده أنهم عنصر من العناصر التي تكون منها السلافية (الصقالبة) التي قدر لها أن يقرأ عنها في مؤلفات بعض الجغرافيين العرب المسلمين. ويحدد رحالتنا الأرض التي يشغلها الروس، فيرى أنها تقع على الحد الشرقي الأقصى لجماعة السلاف، غربي بلاد الخزر. ويعتبر أن أهم معلم جغرافي ذي صلة بأرض الروس هو بحر بنطس (البحر الأسود) الذي يطلق عليه لأول مرة في علوم الجغرافية العربية الإسلامية اسم "بحر الروس" ، "إذ لا ي البحر فيه أحد سوى الروس". ويبدو أن المسعودي لم يكن هو من ابتكر هذه التسمية، بل سمع بها من التجار العرب المسلمين الذين مخرروا عباب هذا البحر. واشتهر الروس في العالم العربي الإسلامي كمحاربين وبحارة شجعان، وقصة المسعودي التي أوردها أعلاه، عن حملتهم على منطقة قزوين، تدل على ذلك. ويقول المسعودي إن الروس يقومون برحلات إلى القسطنطينية وروما والأندلس لأغراض تجارية، بل ويعتقد بأن القوم المجهولين الذين شنوا عام ٩١٢ هجوماً على سواحل الأندلس كانوا من الروس. وما يؤكد هذا الأمر، من وجهة نظره، هو أن بحر بنطس (الأسود) يتصل بالمحيط الذي تحد مياهه المعمورة كلها. لقد كان المسعودي على خطأ فيما يتعلق باتصال البحر الأسود بالمحيط، وفيما يتعلق بالشعب المجهول الذي هاجم الأندلس.

ويبدو أن هؤلاء كانوا من النورمانديين. وبالرغم من ذلك، فإنه لا يجوز أن ننفي احتمال قيام الروس، ضمن فصائل متطوعين من أصول مختلفة، بحملات استطلاع إلى إيطاليا وشبه جزيرة إيبيريا لغرض الاستيلاء على الغنائم والاتجار مع السكان المحليين. ومن المهم هنا أن نشير إلى أن المسعودي كان على علم باسم واحد من أكثر قياصرة السلاف حبروتاً، أي (دير) وهو صاحب مدن فسيحة كان يؤمها التجار المسلمين ومعهم شتى أنواع البضائع. وربما كان من المغرى أن نرى في "دير" هذا الشخص ذاته الذي كان اسمه "دير" أيضاً، أي شريك أوسكولد في الحكم كما ورد في "قصة الأزمان" الروسية القديمة، ولكننا بالطبع لا نملك الآن أدلة مباشرة على ذلك.

كان المسعودي يعرف الكثير عن عادات وطقوس الدفن عند السلاف والروس. واهتمامه بذلك أمر مفهوم، لأنه يعتبر هذه الطقوس من مظاهر الحياة الدينية عند الشعوب، فكان يولي ذلك اهتماماً كبيراً حيثما حل. ولقد حصل المسعودي على معلومات تتعلق بمراسيم الدفن والجنازة عند السلاف والروس من المصدر ذاته الذي وصف له عاصمة الخزر إيتيل (أمل)، التي كان السلاف والروس يشكلون جزءاً هاماً من سكانها، وكانت عاداتهم معروفة جيداً للتجار العرب المسلمين الذين يسافرون إلى هذه العاصمة. ويخبرنا المسعودي أن السلاف والروس الوثنيين كانوا يحرقون مع الميت سلاحه وحليه وخيله. وعند وفاة الزوج كانوا يحرقون معه زوجته حيةً. وإذا كان عازباً كانوا يزوجونه بعد موته، وتتعرض هذه الزوجة للموت الأليم نفسه. وبالرغم من ذلك كما يقول المسعودي، كانت النساء يطمحن للموت في نار محرقة الدفن، إذ أن

مotaً كهذا يضمن لهن، كما يعتقدن، النعيم في العالم الآخر. ويشير رحالتنا الذي كان قد اكتسب قبل زيارته إلى القوقاز، معارف وتجربة ترحال هامة، إلى أن عادة إحراق الأموات كانت موجودة عند الهنود أيضاً.

ربما لاحظ القارئ أننا نكرر وراء المسعودي مصطلحي "السلاف" (الصقالبة) و"الروس" مع تأكيدنا أن المسعودي كان يعتبر الروس جزءاً من السلاف. واستناداً إلى معطيات المصادر العربية الإسلامية الأكبر يمكننا الافتراض أن المسعودي لم يتوصل حالاً إلى هذا الاستنتاج، إذ أن أسلافه لم يقيموا صلة نسب بين الروس والслав. وتفسير ذلك أن الدولة الروسية لم تكن تضم كل القبائل السلافية، فالروس الشرقيون الذين كانوا يدفعون الأتاوة لأمير كييف، أصبحوا يسمون روساً، بينما كانت القبائل الأخرى تسمى عند الجغرافيين العرب المسلمين بمصطلح (صقالبة).

ويرسم لنا المسعودي حدود أراضي السلاف بشكل تقريري جداً، فيرى أنهم يتجاوزون مع الفرنجة غرباً، ومع البرجاء (بلغار الدانوب) والروم (البيزنطيين) جنوباً، ومع الروس شرقاً. ويورد أسماء تسع قبائل سلافية تشير إلى أصل كل من: الفيلت والستودوريان، ودوليب التشيك، والملازوฟشان، والصرب، والكروات، والكاشوب، والدرانغويت، وسلامف مورافيا. وبالإضافة إلى ذلك ينسب المسعودي إلى هذه القبائل كلاً من نامجين (الألمان) والسكسون مجانيناً الصواب. ومن الواضح أن هذه المعلومات لم يكن بإمكانه الحصول عليها في القوقاز، ولا في سوريا عبر العلاقة مع البيزنطيين، بل إنه استفاد على الأرجح، من

مؤلفات مكتوبة. ويرى الاختصاصي البارز بدراسة المصادر العربية الإسلامية المتعلقة بشعوب أوروبا الشرقية الأستاذ في جامعة خاركوف أ.ب. كوفاليفسكي، أن المسعودي استقى معلوماته عن السلاف من كاتب عربي إسلامي أندلسي مجهول كان قد زار أراضي السلاف في عشرينات القرن العاشر، وكان يتقن إحدى لهجات القبائل السلافية، ذلك أن أسماء هذه القبائل عند المسعودي قربة جداً من أصلها الأول، إضافة إلى أن هذا الكاتب المجهول يطلق على الجerman اسم نامجين (فتثنين) جرياً على ما هو معهود عند السلاف.

اهتم المسعودي اهتماماً كبيراً بديانة السلاف من بين جوانب عديدة لفتت انتباذه في حياتهم، وقد رأينا ذلك في وصفه طقوس الدفن السلافية الروسية. ويتبين هذا الاهتمام في فصل خاص عن أخبار البيوت المعظمة عند السلاف جاء في قسم من "مروج الذهب" خصصه للمعابد عند مختلف الشعوب. وقد تناول البروفيسور كوفاليفسكي هذا القسم بدراسة مستفيضة.

وإذ قام كوفاليفسكي بفرز العديد من الأخبار الخيالية عن الأخبار المعقولة، توصل إلى استنتاج مفاده أن ما يقصده المسعودي هو معابد سلافية وثنية كانت موجودة فعلاً في منطقة الكاريبيات وساحل بحر البلطيق، لها شكل القبب، وبدون نوافذ. وكانت الأصنام في هذه المعابد مصنوعة من معادن مختلفة ومزينة بأحجار كريمة. وكانت توجد في أحد هذه المعابد تصاوير أشكال هندسية للتبصير (قراءة المستقبل). إن المسعودي في وصفه المعابد السلافية يأخذ عن "كتاب الآلاف" للفلكي والمنجم المعروف في القرن التاسع أبو معشر الفلكي، الذي نرجح أنه

استقى معلوماته عن تلك المعابد عند السلاف وهو في بغداد ، من التجار العرب المسلمين الذين زاروا الديار السلافية. ويبدو أن هذه المعلومات كانت بحوزة المسعودي قبل بدء رحلته في منطقة بحر قزوين، ما يشير إلى ما قام به من استعداد دقيق لرحلته العلمية المزمعة.

حاول المسعودي أثناء وجوده في باكو دراسة مملكة شروان التي استقلت عن الخلافة منذ القرن العاشر، وكانت ذات تقاليد عريقة، وعلى علاقات تبعية بإيران الساسانية قبل الفتح العربي الإسلامي. وبخبرنا المسعودي أن ملك شروان في زمنه كان محمد بن يزيد من سلالة الميادين العربية، ولكنه رغبةً منه في الاعتماد على التقاليد المحلية، نسب نفسه إلى الشاه الساساني بهرام غور. ويورد المسعودي أسماء بعض القبائل والمناطق التي خضعت لشروان شاه كشعب اللکز (يبدو أنهم الليزгиون) والدوادنية (السيزيون) وغيرهم.

ومن باكو توجه المسعودي، على أغلب الظن، إلى (باب الأبواب) المدينة القلعة (دربرنت الحالية)، الواقعة على بحر قزوين أيضاً. ووفقاً للتقاليد التاريخية الإيرانية التي ورثها علم التاريخ العربي الإسلامي، فإن هذه المدينة تكون قد تأسست في عهد الشاه كسرى الأول أنوشروان (٥٣١-٥٧٩). أما المعطيات العلمية المعاصرة فتفيد أنها تأسست قبل ذلك، أي في القرن الخامس الميلادي، وكانت تحرس مدخل وادي جبال القوقاز الذي سماه العرب "الباب" ولذلك سميت القلعة بهذا الاسم. كانت "باب الأبواب" نقطة بالغة الأهمية في منظومة كاملة من التحصينات التي أقامها ملوك إيران في القوقاز. وكانت هذه التحصينات تحمي مناطق إيران الشمالية من غزوات الرحل القادمين من

سهوب منطقة قزوين. وبعد أن استولى عليها العرب المسلمين عام ٧١٧م أصبحت "باب الأبواب" موقعًاً أمامياً هاماً لانتشار الإسلام في القوقاز. ونظراً لما أصاب سلطة الخلفاء في بغداد من ضعف فقد سادت في "باب الأبواب" سلالة محلية من الهاشميين كانت في النصف الأول من القرن العاشر في موقع التبعية لملكة شروان التي كانت قائمة على أراضي أذربيجان الحالية. وكانت "باب الأبواب" ميناً هاماً على بحر قزوين، ولكن ذلك لم يحظ، على ما يبدو، بكثير اهتمام لدى المسعودي، إذ يقتصر ما أخبرنا به عنها على ما شاهده في الأسواق من جلود ثعالب رمادية داكنة يؤتى بها من الشمال (أوروبا الشرقية).

ومن "باب الأبواب" سافر المسعودي إلى برذعة، المدينة المزدهرة الواقعة على نهر ترتر (تقع أطلالها الآن على مقرية من مركز قضاء بارد). و شأنها شأن "باب الأبواب" كانت برذعة قلعة حدودية حصينة تسكنها أغلبية من العرب المستوطنين تتكلم لهجة متميزة من لهجات اللغة العربية. ومن المحتمل أن المسعودي زار السوق الواقعة خلف سور المدينة بالقرب من "باب الأكراد" ، الذي كان يتردد عليه التجار من العراق، وربما أتيح للمسعودي أن يلتقي بأبناء قومه في هذا المكان.

وأثناء رحلته في ربوع القوقاز زار المسعودي مدينة تفليس (تبليسي الحالية) التي فتحها العرب المسلمين أواسط القرن السابع، فأضحت إحدى النقاط الهامة للسيادة العربية ما وراء القوقاز. ويخبرنا رحالتنا أن الكرج (الجورجيين) والأبخاز كانوا حتى حكم الخليفة المتوكلي يدفعون الجزية لوالى المدينة، إلا أن سلطة الخلافة تزعزعت بقوة بعد العديد من الحروب الداخلية بين قادة الجنديين العرب، فتوقف دفع الجزية.

راقب المسعودي حياة العديد من شعوب هذه المنطقة، ومن بين الذين كتب عنهم بتفصيل متفاوت الدرجات: الطابسان، والأفار، والكتايك (أسلاف الدراغين الكاتياك الحالبين)، والغوميك (أسلاف اللاك)، والآلان (أسلاف الأوسيتيين) والكاشاك (غاسوغ في المدونات الروسية القديمة) وهم أسلاف الأضفبيين والشركس والقباردين. ويدرك أيضاً الجورجيون والأبخاز.

وهكذا نرى أن رحلة المسعودي إلى القوقاز قد أتت ثمارها حقاً، وأগنت معارف العلماء العرب المسلمين عن هذه المنطقة والبلدان المجاورة لها.

في بلاد الأهرام

بعد رحلته إلى القوقاز يغيب المسعودي مرة أخرى عن أنظارنا لبعض سنوات. والإشارة الأقرب زمنياً إلى هذه الرحلة ما يرد في مؤلفاته تعود للعام ٩٤٢م، إذ يخبرنا أنه شهد في السادس من كانون الثاني/يناير في الفسطاط (الواقعة ضمن حدود القاهرة الحالية) عيد الغطاس المسيحي. ومن الجدير بالذكر أن التقاليد المسيحية القبطية، بصرف النظر عن الفتح العربي الإسلامي، بقيت قوية في مصر، ولذا فإن عيد الغطاس كان مناسبة يحتفل بها الشعب عامه، (ومن طقوسه الاستحمام في مياه النيل)، بل إن حاكم مصر محمد الإخشidi أمر، كما يفيدنا المسعودي، بتزيين قصره بالمشاعل. وشاهد رحالتنا أثناء الاحتفال الناس وهم يتزاحمون على ضفتني نهر النيل العظيم، وبعضهم يغطس في الماء اعتقاداً منهم أن ذلك يقيهم من الأمراض. ولم يكن ثمة

متسع كاف للسباحة لأن عدد الراغبين كبير جداً، بل لأن سطح النهر ضمن حدود الفسطاط كلها تقريباً كان مغطى بالقوارب المزينة بالمشاعل والشموع والمكتظة بالمشاركين المبتهجين.

وببدو أن المسعودي أقام في أربعينيات القرن العاشر بشكل دائم في مصر التي كانت مع جزء من سوريا تحت حكم سلالة الإخشيديين المستقلة عملياً، والخاضعة للخلفاء العباسيين اسمياً. فما الذي جعل المسعودي يغادر العراق، موطنه الحبيب على قلبه، إلى الأبد؟ يتلخص الأمر في أن سلطة الخليفة التي دخلت مرحلة أزمة شديدة في النصف الثاني من القرن التاسع، وصلت في ثلثينات القرن العاشر حافة الانهيار. وسرعان ما بربت في إيران قوة جديدة تبين أنها قادرة على إخضاع سلالة العباسيين لنفوذها فترة طويلة. وهذه القوة هي البوهيميون متمثلة في ثلاثة أبناء أحد ملاك الأرض الصفار في إقليم الديلم الإيراني اسمه أبو شجاع بن بوهيم. وكان أبو شجاع قد شارك كقائد عسكري في الحروب التي دارت بين سلالة أبناء علي الشيعية الحاكمة في طبرستان من جهة ودولة السامانيين من جهة أخرى. وقد استولى الأخوة الثلاثة، علي وحسن وأحمد، على شيراز ومن ثم على ميديا وكerman، وبعد ذلك تحركوا نحو بغداد. وفي كانون الأول / ديسمبر من عام ٩٤٥ اضطر الخليفة المستكفي بالله للاعتراف بسلطة البوهيميين في عاصمة الخلافة، ولأن ينحأ أحمد لقب أمير الأمراء. وحصل الأخوة الثلاثة من الخليفة في الدولة العربية الإسلامية على لقب مشرفة أخرى. ولم ينقض شهر واحد على إقامة سلطة البوهيميين في بغداد حتى قرروا أن الخليفة المستكفي ليس طيباً بالقدر اللازم، فخلعوه عن العرش بعد أن

سلوا عينيه، ونصبوا مكانه عباسياً آخر هو المؤتي. كان المسعودي من أنصار حكم العباسيين، ورأى ضعفهم وكتب مراراً عن ذلك، ولذا لم يكن بمقدوره العودة إلى موطنه بعد كل هذه التغيرات السياسية، فضلاً عن أن البوهين كانوا على مذهب الشيعة في حين كان المسعودي سنياً على الأرجح، الأمر الذي جعله في بغداد شخصاً غير مرغوب فيه. وأغلبظن أن المسعودي لم يُكتب له بعد ذلك أن يعود إلى موطنه أبداً. فليس من قبيل المصادفة أن يعود مراراً إلى الكتابة عن حنينه لبلاده.

ولكن هذا العالم والرحلة الذي اضطر للعيش في الغربة بقية حياته، ظل وفياً لنفسه، فقرر أولاً أن يتعقب في دراسة ما اشتهرت به مصر من إنشاءات عجيبة تزيّنها تماثيل وكتابات مبهمة. فقد شاهد المسعودي، على مقربة من العاصمة المصرية الفسطاط، الأهرامات الشهيرة التي يصفها بأنها معجزة فن العمارة. لقد أدهشت عظمة هذه الإنشاءات مخيّلة رحالتنا. وبناءً على شهادات السكان المحليين الأسطورية يخبرنا المسعودي أن ملوك مصر القديمة الذين بنوا الأهرامات أمروا أن يُكتب عليها "إنا ببنيناها، فمن يدعي موازنتنا في الملك وبلغنا في القدرة وانتهاءنا من السلطة فليهدمنا". ولبيذ اسمها، إن الهدم أيسر من البناء". ويقول المسعودي إن أحد حكام مصر المسلمين قرر أن يجرب قواه في هذا الميدان غير النبيل، ولكنه أدرك فيما بعد، أن تنفيذ هذا الأمر لا يكفيه الخراج الذي يجبى من البلد بأسره. غير أن المسعودي لم يفلح في معرفة مغزى الأهرامات، إذ كان يعتقد أنها عبارة عن معبد هائل.

كان المسعودي يقع في كل مكان على آثار المعابد المصرية القديمة،

ونظراً لأنه كان مهتماً ببيانه قدماء المصريين دون أن تتوفر لديه معلومات أكيدة عنها، رأى أن المصريين كانوا من أهل التوحيد، بل أن حكامهم تمكنوا من أن يتباوا بالطوفان.

وضع المسعودي رؤيته لتاريخ مصر الأسطوري استناداً إلى الموروث الخرافي العربي المصري الذي تشكل بعد الفتح العربي الإسلامي لمصر، وثبت في المدونات العربية التي كتبت في مصر، فافتراض أن أصل المصريين يعود إلى بيسر حفيد نوح، الذي كان اسم ابنه البكر مصر، ومنه جاءت التسمية العربية لبلاد النيل، وسمي سكانها بالأقباط نسبة إلى قبط ابن مصر البكر. وبعد حين استولى على مصر ملك من الشام من ملوك العمالق يحمل اسمًا عربياً هو (الوليد بن دومع). وربما جاءت الحكايات المتوارثة حول هذا الملك بتأثير الذكريات المشوّشة عند المصريين عن إخضاع مصر في القرن الثامن عشر قبل الميلاد من قبل الهاكسوس الرحل الذين يعتقد مبدئياً بأنهم ساميون قدمو من الجزيرة العربية. أما الوليد بن مصعب، حفيد الوليد بن دومع، فهو الفرعون الذي عاش موسى في زمانه، وقد هلك في البحر الأحمر مع جنده أثناء مطاردة النبي الراحل مع بني قومه عن مصر. وبعد ذلك حكمت البلاد امرأة حكيمة اسمها دلوكة ينسب إليها المسعودي بناه الكثير من المعابد.

حاول المسعودي مراراً، وهو يدرس التاريخ الأسطوري لبلده الجديد مصر، أن يستبين ماذا تعني كلمة (فرعون). ولكن جميع الأسئلة التي طرحتها على المصريين الأصليين (الأقباط) بهذا الخصوص لم توصله إلى أحد يستطيع إرضاء فضوله وإرواء غليله، فيقول إن لغة المصريين على ما يبدو قد تغيرت بشدة منذ قديم الأزمان.

وبحدثنا المسعودي أيضاً عن ثقافة مصر الهللبيّة ومركزها الإسكندرية التي أسسها الإسكندر المقدوني عام ٣٣٢ قبل الميلاد، ويقدم لنا غير قليل من المعلومات عن معالمها وأثارها وشواهدها. ومن الطريف بهذه المناسبة، أن نشير إلى تفسير رحالتنا للقب الفاتح الشهير (المقدوني)، إذ لم يكن العرب المسلمين يعرفون مقدونيا التي كانت قدماً تقع إلى الشمال من اليونان، وكان المسعودي يرى أن هذا البلد جزء من شمال مصر مركزه الإسكندرية، ولذا فإن الإسكندر لقب بالمقدوني.

انتشرت في الإسكندرية، وفي مصر كلها، أساطير كثيرة عن بناء هذه المدينة، وقد دون المسعودي بعضاً منها، فهو يقول على سبيل المثال أن ألق المرمر الأبيض في المدينة المشيدة للتو كان يبهر الأبصار حتى أن الناس كانوا يعلقون قطعاً من قماش الحرير الأخضر في الشوارع للتخفيف من انعكاس ضوء الشمس. وفي أسطورة أخرى أن جمال الإسكندرية لم يرق لغيلان البحر التي كانت تعيش غير بعيد من الشاطئ الذي بنيت عليه عاصمة مصر الجديدة. ويضيف المسعودي أن شياطين البحر أخذت تخرج إلى البر وتدمّر مباني المدينة. وعندها أمر الإسكندر المقدوني بصنع صندوق تكون له نوافذ من الزجاج، ونزل فيه تحت الماء رفقة رسامين صوروا تلك الغيلان. وبعد خروجهم من الماء صنعوا وفقاً لهذه الرسوم تماثيل أمر الإسكندر بنصبها على الشاطئ. وفي الليلة التالية رأت الشياطين صورها فأخذوها الحوف وكفت عن إقلال سكان الإسكندرية.

إن الشخصية الأسطورية الأكثر شعبية في الإسكندرية، بعد شخصية مؤسسها، هي كليوباترة ملكة مصر الأخيرة في سلالة البطالمة،

محبوبة يوليوس قيصر وأنطونيو، التي خلدها الأدب العالمي في " سير متوازية " لبلوطارك ومسرحيّة " أنطونيو وكليوباترا " التراجيدية لشكسبير، قصة " ليال مصرية " لبوشكين. إنها قصة حب كليوباترة للقائد الروماني أنطونيو، غريم أوكتافيان أوغسطس، الحب الذي ضحت ملكة مصر الأبية بحياتها من أجله. ولم تبق هذه القصة خالدة في صفحات الكتب فقط، بل وفي ذاكرة الإسكندرانيين أيضاً، ولكن مع تحويل كبير. ولعل المسعودي علم من الإسكندرانيين أنه كان لклиوباترا زوج اسمه أنطونيوس، ولكن ملك الرومان أوغسطس شن حرباً على الزوجين السعیدين، فقتل أنطونيوس في إحدى المعارك. وإذا رأت كليوباترا أنها لا تملك ما يكفي من القوى للدفاع عن مصر في وجه الرومان قررت أن تقتل ملوكهم. وفي اليوم الذي كان مقرراً أن يحضر فيه أوغسطس الظافر إلى قصر الملكة المهزومة أمرت كليوباترا بإحضار أفعى سامة. وتلقت خادمة أرادت الموت مع الملكة سم الأفعى قبل الملكة، فماتت. ثم اعتلت كليوباترا العرش وتركت الأفعى تلدغها، ففارقت ملكة مصر الحياة على الفور، واختبأت الأفعى في المراوح القريبة منها. وسرعان ما وصل أوغسطس إلى القصر، وحين دخل قاعة العرش... ظن أن الملكة حية فاقترب منها. وكان أن لدغته الأفعى، فشلت يده اليمنى وساقه اليمنى وعميت إحدى عينيه. ويقول المسعودي لو أن الأفعى لم تلدغ قبل ذلك كلاً من الخادمة والملكة لمات ملك الرومان حالاً. ولكنه عاش بعض الوقت مقعداً، وبكى قسمته المرة بأشعار حزينة. إن شهرة المدن ومجدتها لا يتوقفان على من يسكنها، بل وعلى ما فيها من الأوابد العمارية. ولقد كانت منارة الإسكندرية في زمن

المسعودي المنشأة المعمارية الأشهر في المدينة. وكانت قد شيدت في عهد الملك بطليموس سوتير (٣٠٥-٢٨٣ ق.م) في الطرف الشمالي من جزيرة فوروس الواقعة على مقرية من الشاطئ، والمتصلة بالبر بواسطة سد خاص. ويقول المسعودي إن مرآة ضخمة كانت توجد قدماً على قمة المناارة لراقبة السفن في البحر، وللحيلولة دون اقتراب أسطول الأعداء من الإسكندرية خفية. والمنارة مشيدة من كتل ضخمة من الحجر الأبيض، وقاعدتها المربيعة تبلغ ثلثي ارتفاعها كما يقول المسعودي. أما جزؤها العلوي ذو السطوح الثمانية فيُتوجّه برج وقبة. وللأسف لم يبق من هذه المنشأة البديعة أي أثر، فقد انهارت عام ١٣٢٤، وفي العام ١٤٧٧ شيدوا من بقايا المناارة حصن فاروس، الذي يوجد في مكانه الآن مربى لحيوانات البر كالثعابين والزواحف. وقد لعبت هذه المناارة دوراً هاماً في الدفاع عن الإسكندرية أمام الهجمات من البحر سواء في زمن الإغريق القدماء، أم في زمن البيزنطيين أو العرب. ويبدو أن البيزنطيين قاموا غير مرة بعمليات تخريب بغية تدمير المناارة وتسييل الاستيلاء على المدينة.

ويروي لنا المسعودي، كعدهه دائمًا، قصة مشوقة حول هذا الموضوع، فيقول إن ملك الروم أرسل مرة أحد خدمه المخلصين إلى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بهمة تخريب منارة الإسكندرية بأية طريقة كانت. وإذا أراد هذا الخادم أن ينال ثقة الخليفة، قال له لما مثل أمامه إن ملك الروم أرسله لقتل الخليفة. وطلب الصفع، وأعلن عن رغبته باعتناق الإسلام. أكرم الخليفة هذا المرتد عن قومه وكافأه بسخاء وجعله من المقربين. وبعد فترة أخبر خادم الملك الرومي الخليفة الوليد بسر عظيم من

أسرار سيده السابق، هو أن كنوز الإسكندر المقدوني مطمورة تحت منارة الإسكندرية. كلف الخليفة، الذي لم يشك بالأمر، المسلم الجديد بهدم المئارة وانتشال الكنوز. وبالفعل كان نصف المئارة قد تم هدمه عندما فطن الخليفة إلى أن في الأمر حيلة من قبل ملك الروم. ولما أدرك "المسلم المزعوم" أن أمره قد افتضاح، اختفى عن الأنظار.

إن هذه القصة التي تشير إلى سذاجة الخليفة الوليد تتضمن موضوعاً مميزاً جداً من مواضيع الفولكلور المصري، هو موضوع الكنوز المخبأة منذ القديم. ومن المفهوم أن بلداً غنياً بآثار الماضي كمصر، يمكن أن تقوم فيه مثل هذه الروايات على أساس وقائع حدثت حقاً، فمن المعروف أن قرى مصرية عديدة كانت حتى عهد قريب متخصصة بنهب المقابر القديمة وببيع ما يوجد فيها من أشياء غريبة. وكانت الخرافات التي تتحدث عن الكنوز المسحورة واسعة الانتشار بين المصريين، حتى أن حكاية "مصباح علاء الدين" في "ألف ليلة وليلة" التي تعد مصرية الأصل، هي نموذج لفلكلور البحث عن الكنوز. وفي هذا الشأن يقص علينا المسعودي قصة شخص حضر مرة إلى والي مصر الأموي عبد العزيز بن مروان واقتصر عليه الحفر في تل يحتوي، حسب زعمه، على كنزة كبيرة. فأرسل الوالي إلى التل جماعة من العبيد. فبدأوا بالحفر وسرعان ما اكتشفوا سرداياً يؤدي إليه سلم من نحاس، ومن ثم ظهرت جواهر وكنوز من مختلف الأنواع، ولما تعمقوا في الحفر ظهر سيفان قطعاً الرجل الذي يحفر، وبعد ذلك ابتلعت الحفرة كل الرجال وعددهم ألف. وما لا شك فيه أن اهتمام المسعودي لم يقتصر على الحكايات المتوارثة في أرض مصر، بل إنه حال في هذه الأرض كثيراً قصد

دراستها على أفضل نحو ممكن، وقدم في مؤلفاته توصيفات دقيقة لهذا البلد عامة، ولأماكن معينة فيه. يقول المسعودي إن مصر تقع بين أفريقيا (المغرب - شمال أفريقيا) من الغرب، وبحر قلزم (البحر الأحمر) من الشرق، وبحر الروم (المتوسط) من الشمال، وأراضي السود من الجنوب. ويقسم هذا البلد، حسب قوله، إلى ثمانين منطقة في كل منها مدن ومبان قديمة غريبة. وربما كان رحالتنا يقصد بذلك تقسيم البلاد منذ عهود قديمة إلى وحدات إدارية خاصة بقعت حتى القرون الوسطى.

أدرك المسعودي تمام الإدراك أن اقتصاد مصر هو نهر النيل الذي تروي مياهه حقولاً خصيبة يزرعها الفلاحون، وب بواسطته ينقلون ثمار عملهم إلى العاصمة الفسطاط، وإلى خارج البلد أيضاً. ويقول في "مروج الذهب" إن النيل على درجة من الأهمية والاتساع يجعل الناس يسمونه بحراً. أما منابعه فتوجد، حسب المسعودي، خارج العمورة، والملاحة فيه ممكنة حتى أسوان التي تقع بعد بضعة أميال منها عتبات يستحيل على المراكب عبورها. ومن ثم يجري النيل بمحاذاة واحة الفيوم. وبعدها يتوزع إلى أفرع عدة، ويجري أمام الإسكندرية ورشيد ومياط ويصب في بحر الروم (المتوسط) إضافة إلى العديد من البحيرات الصغيرة والكبيرة في الدلتا.

تسود الزراعة المروية في مصر منذ قديم الزمن، ولذلك نجد المسعودي يقدم لنا غير قليل من المعلومات عن القنوات التي تنقل مياه النيل إلى حقول الفلاحين، ويقول إن الماء أثناء فيضان النهر كان فيما مضى يغمر الأرضي كيغما اتفق. وفيما بعد تعلم المصريون حفر الأقنية وبناء الترع ما شكل أساساً لتطور الحضارة، "فأرض مصر مليئة بالمدن".

ويعتقد رحالتنا أن منظومة قنوات الري في واحة الفيوم كانت الأكثر تطوراً في زمانه. ومن المعروف أن المصريين راحوا يصنعون "مقاييس النيل" لقياس منسوب الماء في النهر بغية ضمان سقاية أفضل للحقول. ويقول المسعودي إن النبي يوسف (في التوراة) قد استخدم هذه المقاييس. وبعد ذلك نقلت أجهزة بهذه إلى مصر العليا في عهد ملكة مصر الأسطورية دلوكة. وكانت "مقاييس النيل" تصنع أيضاً إبان الحكم العربي الإسلامي ومنها جهاز صنع في عهد حاكم مصر أحمد بن طولون، وربما يقصد المسعودي بذلك مقاييساً نصب عام ٨٦٢م في جزيرة الروضة (تقع ضمن حدود القاهرة الحالية) وبقي حتى أيامنا هذه، وهو عبارة عن حفرة ملبدة بحجر منحوت عمقها ١٣ متراً تطل عليها قناطر ثلاثة أنفاق ينتقل بواسطتها ماء النهر إلى الحفرة. وفي الوسط منها يوجد عمود قُسم إلى درجات لكل منها علامة، وفوقه تاج كورنيشي.

إنه لصعب جداً أن نتابع مسار رحلات المسعودي في مصر، كما في غيرها من البلدان، ولكن من المؤكد أنه زار مينا، قلزم على ساحل البحر الأحمر الذي كان يعرف باسم هذا الميناء. إن هذه المدينة المهجورة منذ القرن الثالث عشر هي اليوم ركام من الآثار والخرائب المطحورة تحت الرمال. وكانت تمر هنا، كما يقول المسعودي، قناة تصل بين النيل والبحر الأحمر. وعندما فتح العرب المسلمين مصر كانت هذه القناة قد ردمتها الرمال، فاقتصرت على مصر عمرو بن العاص على الخليفة عمر بن الخطاب (٦٤٤-٦٣٤) حفرها من جديد، ولكن الخليفة عمر رفض تنفيذ المشروع إذ خشي أن تجد مراكب الروم طريقاً عبر القناة إلى شواطئ الجزيرة العربية. وفيما بعد حاول هارون الرشيد حفر القناة هذه، ولكن محاولته

لم تشر. وما لا شك فيه أن المسعودي ركب النيل صعداً وزار مدينة أخميم المشهورة بصناعة النسيج، وشاهد أطلال معبد قديم فيه الكثير من التماضيل لبشر وحيوانات كان السكان يسمونها "برابي" وواحدتها "بريا". وتوقف المسعودي لفترة قصيرة في القبط، ثم وصل إلى مدينة أسوان الواقعة على الحدود بين مصر وبلاد النوبة المسيحية. وعندما فتح العرب المسلمين مصر، حاولوا فتح بلاد النوبة، ولكن حملتهم باهت بالفشل، وسرعان ما توصل والي مصر العربي الإسلامي إلى اتفاق سلام مع ملك النوبة مقابل أن يقدم (الملك) عدداً محدوداً من البضائع والعبيد. وكان هذا النوع من الاتفاقيات ينص، كما يقول المسعودي، على تقديم ٣٦٥ عبداً كل عام، وكانت هذه الأتاوة تحجب إلى أسوان من النوبة. وفي وادٍ على مقرية من أسوان، كانت مناجم الذهب الهامة للعالم العربي الإسلامي بأسره.

يبدو أن عشرات السنين التي أمضاها المسعودي في الترحال، والمليئة بالمخاطر والحرمان، قد أثرت على صحته. وبعد أن تنقل كثيراً في ربوع مصر، وأدرك أنه لم يعد كما كان في السابق، قرر رحالنا الاستقرار في الفسطاط، عاصمة مصر، ليتمكن من ترتيب ما دونه أثناء سفراته.

وعلى الأرجح لم يكن المسعودي في ضائقة مادية، فقد يكون نقل جزءاً هاماً من ثروته العائلية من بغداد عندما أدرك أن تغيرات سياسية غير مؤاتية قد تحدث في عاصمة الخلافة. ومن ناحية أخرى، يشير المسعودي إلى أنه لقي استقبلاً حسناً في بلاط حاكم مصر، الذي نعتقد أنه لم يتتجاهل هذا الرجل العالم ولم يتركه دون تخصيص معاش يتناسب

ووضعه. وبذلك لم يكن على المسعودي أن يفكر بقوت يومه، وانكب بكل قواه على عمله العلمي الإبداعي الخير، فأنجز عام ١٩٤٧م وهو في الفسطاط مؤلفه الرئيس "مروج الذهب ومعادن الجوهر". وبعد ذلك وضع قرابة ثلاثين مؤلفاً في مختلف ميادين العلوم العربية الإسلامية. وما يدعو للأسف أن المسعودي كتبها لنفسه ولم يقدمها للوراقين ليقرواها بنسخها، لذلك فإن أيّاً من أعماله في ذلك الحين لم يصل إلينا، أو أنه على أية حال، لم يعثر عليه في الماجمיע العديدة للمخطوطات العربية الإسلامية. ولحسن الحظ نجا من هذا المصير آخر مؤلفاته "كتاب التنبية والإشراف" الذي يحمل خلاصة تأملاته عن العالم وسير تاريخ البشرية. لقد أنجز المسعودي الصيغة النهائية لهذا الكتاب في العام ١٩٥٦م، وفارق الحياة بعد بضعة أشهر. إن من يعرف ما في طباع المسعودي من قوة العزيمة والعمل الدؤوب، والخصال التي جعلته في حل وترحال دائمين ودفعته لكتابه آلاف الصفحات من الورق والبردي... إن من يعرف بذلك يحق له الافتراض أن المسعودي استقبل المنية بقلم من قصب تمسك به أصحاب يده النحيلة.

بدلاً من الخاتمة

بعد الممات حياة

ثمة أقدار في حياة المبدعين تحكم على أصحابها بالنكران والمحود في حياتهم، والنسيان بعد مماتهم، فلا تناول أعمالهم الاعتراف والتقدير إلا عند أحفادهم بعد أجيال عديدة. ولكن مصير ميراث المسعودي سار على نحو مغاير تماماً. ولئن كنا عاجزين عن قول شيء عن شعبيته في حياته، فإننا نعلم أن مخطوطات مؤلفاته الرئيسية نسخت مرات عديدة بعد وفاته، فوصل العديد منها إلى الخزائن الأوروبية، ومنها خزانة متحف آسيا في سان بطرسبورغ الذي وصلت إليه نسخ منها بفضل مساعي الدبلوماسي الروسي المعروف في النصف الأول من القرن التاسع عشر إ. يا. إيطاليانسكي. ولقد وضع العلماء العرب المسلمين عروضاً مختصرة لممؤلفات المسعودي الذيحظى أيضاً بتقدير عال من قبل المفكر العربي الإسلامي الكبير في القرن الرابع عشر ابن خلدون، الذي كتب عنه يقول: ..هذا وقد دون الناس في الأخبار، وأكثروا وجمعوا تاريخ الأمم والدول في العالم وسطروا الذين ذهبوا بفضل الشهرة والأمانة المعتبرة، واستفرغوا دواوين من قبلهم في صفحهم المتأخرة، هم قليلون لا يجاوزون عدد الأنامل، ولا حركات العوامل، مثل ابن إسحق، والطبرى،

وابن الكلبي، ومحمد بن عمر الواقدي، وسيف بن عمر الأستدي، والمسعودي وغيرهم من المشاهير المتميزين عن الجماهير. ومن هؤلاء من استوعب ما قبل الملة من الدول والأمم والأمر العثماني، كالمسعودي ومن نحا نحوه...". (المقدمة لابن خلدون - القاهرة. سنة النشر مجهولة ص ٣). ويضيف ابن خلدون "فأما ذكر الأصول العامة للأفاق والأجيال والأعصار فهو أُسُّ للمؤرخ تبني عليه أكثر مقاصده وتتبين به أخباره. وقد كان الناس يفردونه بالتأليف كما فعل المسعودي في كتاب "مروج الذهب"، شرح فيه أحوال الأمم والأفاق لعهده في عصر الثلاثين والثلاثمائة غرباً وشرقاً، وذكر نحلهم وعواوينهم ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول وفرق شعوب العرب والعجم، فصار إماماً للمؤرخين يرجعون إليه، وأصلاً يعلون في تحقيق الكثير من أخبارهم عليه". (المقدمة لابن خلدون القاهرة. سنة النشر مجهولة ص ٢). ومنذ ظهور الطباعة في العالم العربي نشر "مروج الذهب" العديد من المرات، ولا يزال حتى الآن من أكثر الكتب العربية القديمة طلباً للقراءة.

أما العلماء والمستعربون الغربيون فلم يخلوا بالاهتمام بتراث المسعودي. ولأول مرة اطلع جمهور كبير من القراء (بمقاييس القرن الثامن عشر طبعاً) على مقتطفات من مؤلفات المسعودي في ملحق لترجمة باللاتينية لمدونات المؤرخ والجغرافي العربي الإسلامي في القرن الثالث عشر والرابع عشر أبي الفيضي، التي نشرها المستعرب الألماني إ. ريسكه بين عامي ١٧٨٩-١٧٩٤ م. وفي الحين نفسه تقريراً أخذ المستشرق الفرنسي جوزيف دي غيه بدراسة مؤلفات المسعودي. وكانت مقالته عن المسعودي التي نشرها في باريس عام ١٧٩٠ م المضطرب بالنسبة

لفرنسا، أول محاولة للقيام بتحليل علمي لأعمال هذا الجغرافي العربي الإسلامي. وبعد عشرين عاماً نشر المستعرب الفرنسي الشهير سيلفستر دي ساسي مقالة عن المسعودي يقدم فيها بشكل رئيسي عرضاً لضمون مؤلف المسعودي "كتاب التنبية والإشراف" الذي لم يكن قد نشر بعد. وفي الثلاثينات من القرن التاسع عشر الميلادي عاد الاهتمام لدى المستعربين الأوروبيين بالسعودي للانبعاث مجدداً على يد إ. كارتيير الذي نشر عام ١٨٣٩ في "جورنال آزتيك" الباريسية مقالة عن حياة ومؤلفات المسعودي. وفي الأربعينات من القرن نفسه غدت هذه المؤلفات موضوع تحليل شامل من قبل م. رينيه الباحث الفرنسي البارز في مجال علم الجغرافيا العربي الإسلامي. وسرعان ما لاحظ المستعربون أن مؤلفات المسعودي تتضمن مادة باللغة القيمة بالنسبة لتاريخ وإتنوغرافيا الشعوب الأوروبية في القرون الوسطى، فاستفادوا منها في أبحاثهم، ومنهم الفرنسي م. دوسون الذي أدرك الأهمية الكبيرة لأعمال المسعودي بالنسبة لعلم الجغرافيا العربي الإسلامي، ولإثنوغرافيا التاريخية الأوروبية على حد سواء، وأطلق على المسعودي لقب "هيرودوت العرب"، ما جعلناه عنواناً لكتابنا هذا.

كانت أعمال الباحثين في النصف الأول من القرن التاسع عشر بمثابة تمهد لأول إصدار علمي لكتاب المسعودي "مروج الذهب"، وذلك ما بين عامي ١٨٦١-١٨٧٧م، على يد المستعربين الفرنسيين ب. دي مينار. وأ. بافيه دي كورتيل. وفي العام ١٨٩٤م نشر المستعرب الهولندي م. دي غويه نص "كتاب التنبية والإشراف"، وأنجز الفرنسي ب. كارا دي فو في العام ١٨٧٩م ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة

الفرنسية. وفي القرن العشرين كانت أعمال المسعودي موضع بحث من قبل علماء أجانب آخرين، ناهيك عن الروس. ومن هؤلاء الأجانب إ.ماركفارت، وف.ف.مينورסקי، وأ.ز.فالسي - توغان، ود.م.دانلوب، وخ.بريكيلاند، وأ.ميغيل، وس.مقبول أحمد، وم.خ. شبول أحمد، وت.خالدي وغيرهم. وفي الستينات والسبعينات من القرن العشرين أصدر المستعرب الفرنسي ش.بيلا طبعة علمية جديدة من "مروج الذهب". أما في علم الاستشراق الروسي والسوفيتية فقد قام بدراسة المسعودي علماء منهم ب.أ.دورن، وخ.د.فرین، وأ.ي.غاركافي، وف.ف.غريغوريف، ون.أ.كارژولوف، وف.إ.برون، وإ.ي.كراتشكوفسكي، وف.ف.بارتولد، وأ.ي.ياكوبوفسكي، وأ.ب.كوفاليفسكي، وب.ن.زاخودير، وف.م.بيليس، و ت.م.كالينينا وغيرهم.

إن كتابنا المتواضع هذا عن الرحالة العربي الإسلامي العظيم هو أول ما كتب باللغة الروسية استناداً إلى دراسة مستقلة لمؤلفات المسعودي، وعلى أعمال أبناء قومي، والزملاء الأجانب ومن سبقونا في هذا المجال. فليكن هذا الكتاب شاهداً متواضعاً ليس على حياة المسعودي فقط، بل وعلى جهود أولئك الذين جعلوا تراثه في متناول العلم العالمي كله.

المراجع

- ١ . بارتولد ف.ف. "أخبار العرب عن الروس" الاستشراق السوفييتي، ١٩٤٠ ، العدد الأول ص ٥ - ١٥ (بالروسية).
- ٢ . بيليس ف.م. "السعودي عن العلاقات الروسية البيزنطية في خمسينات القرن العاشر" ، علاقات روسيا الدولية حتى القرن السابع عشر ، موسكو ١٩٦١ (بالروسية).
- ٣ . بيليس ف.م "بيانات مؤلفات الجغرافيين العرب في القرنين التاسع والعشر عن البحر الأسود" ، الشرق الأدنى والأوسط ، موسكو ١٩٦٢ (بالروسية).
- ٤ . بيليس ف.م "مؤلفات المسعودي كمرجع في تاريخ أوروبا الشرقية في القرن العاشر" أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ ، موسكو- ١٩٦٣ (بالروسية).
- ٥ . كوفاليفسكي أ.ب "أبو الحسن علي المسعودي عالماً" ، "النشرة العلمية لجامعة خاركيف. نشاطات كلية التاريخ" ، المجلد ٥. ص ١٦٧ - ١٨٢ ، خاركيف - ١٩٥٧ (بالأوكرانية).
- ٦ . كراتشковسكي إ.ي. الأعمال المختارة ، أدبيات العرب الجغرافية ، موسكو - لينينغراد ١٩٥٧ . المجلد ٤ ، (بالروسية).

7. Islamic historiographi . The Histories of Masudi by Tarif Khalidi,
Allany ,1975.
8. Notice sur la vie et les aurage de Matsonod par M. Quartremer/
Journal Asiatique-Janvier 1839,p.5-32.
9. Shboul Ahmad M.H.Al-Masudi and his world. A Muslim hu-
manist and his interest in non-Muslim-London ,1979.

الفهرس

5	مقدمة
9	الفصل الأول : الطفولة في مدينة "ألف ليلة وليلة "
65	الفصل الثاني: نحو ذرا المعرفة
105	الفصل الثالث: من الهند إلى مصر، ومن القوقاز إلى مدغشقر
209	بدلاً من الخاتمة : بعد الممات حياة
213	المراجع